



تقاليد الفروسية عند العرب

دار المعارف بمصر

تقاليد الفروسية عند العرب

واصف بطرس غالي

تقاليد الفروسية عند العرب

تقديم

الدكتور طه حسين

ترجمة

الدكتور أنور لوقا
مدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس

مراجعة وتحقيق

حسنى محمد النجار
مدرس بالإبراهيمية الثانوية

دار المعارف بمصر

WACYF BOUTROS GHALI

LA TRADITION CHEVALERESQUE DES ARABES

Paris, Plon-Nourrit, 1919



واصف بطرس غالى

موضوعات الكتاب

واصف غالى كما عرفته

كان واصف غالى رحمه الله رجلا كريم النفس كأكرم ما تكون النفوس ، سمح الطبع كأسمح ما تكون الطباع ، وكان حسن الشيمة رقيق الشعور دقيق الحس ، حسن العشرة .

كنت أسمع عنه أحسن الذكر وأجمل الحديث ، ثم لقيته ذات يوم مصادفة فلم أقض معه ساعة حتى اتصلت بيننا الأسباب واشتدت الألفة حتى كأن المودة اتصلت بينه وبينى منذ أبعد العهود .

فكنا نلتقى فى مصر وكنا نلتقى فى فرنسا ، وكنا إذا التقينا لا نكاد نأخذ فى حديث مهما يكن موضوعه حتى نخلص منه إلى الأدب فى أسرع وقت . ثم نمضى فى حديث الأدب إلى غير غاية ولا نقطعه إلا كارهين .

كان الرجل أديبًا بطبعه لا يحب شيئًا كما يحب الخوض فى فنون الأدب ، يحفظ الكثير جدًّا من جيد الشعر ورائق النثر فى اللغتين العربية والفرنسية . أحس من ذوقه ميلاً إلى هذا اللون من ألوان المعرفة فأقبل عليه مؤثراً له مشغوفًا به حتى عرف منه أصفاه وأرقاه . ثم تعمقه وأتقن العلم بدقائقه . وكان قد نشأ مع ذلك نشأة ليس بينها وبين هذا اللون من الفن صلة .

درس العلوم السياسية ثم انصرف عنها إلى القانون فتخرج فيه . وفرضت عليه ظروف الحياة أن يقف نشاطه على السياسة، وعلى السياسة المصرية خاصة ، فشارك سعداً وأصحاب سعد فى الجهاد الوطنى منذ شبت الثورة المصرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. وتعرض لضروب من المكروه فذاق حياة السجن وسمع الحكم عليه بالموت فلم يضق بشىء من ذلك ولم يجزع له وإنما تلقاه كريماً جلداً . ونفذ منه نقى القلب ماضى العزم صادق الإخلاص . ثم لم يستطع شىء من ذلك أن يصرفه عن الأدب أو يزهده فيه وإنما كان يستريح إلى القراءة كلما أتيحت له الفرصة .

وكان أوسع السياسيين فى مصر ثقـــافة وأعمقهم علماً بكل ما يذكى القلب ويصفى الذوق حتى كان يظهر غريباً بين رجال السياسة. وكان على ذلك شديد الإلف للسياسة كأنه لم يخلق إلا لها . فكان من أجل ذلك يظهر غريباً بين الأدباء . التأم فى نفسه حب الجهاد فى سبيل الوطن وحب الإمعان فى الفن والأدب . فاستقام له طبع لا كالطباع ولا سيما فى هذا العصر .

كان سياسياً كأبرع ما يكون السياسى وكان أديباً كأرقى ما يكون الأديب . وليس فى ذلك شىء من الغرابة فقد نشأ فى بيئة سياسية ، كان أبوه وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء وصريعاً من صرعى السياسة .

وتثقف ثقافة فرنسية فأتقن العلم بلغة الفرنسيين وبرع فى أدبهم ثم أحس أنه مصرى مخلص لوطنه فأضاف إلى علمه بالأدب الفرنسى ،

علماً عميقاً واسعاً بالأدب العربى . وأحس منذ شبابه الأول أن وطنه مظلوم بين الأوطان يخضع لسلطان الأجنبي من جهة ويجهله الغرب المتحضر المتسلط على العالم من جهة أخرى . فأراد أن يرفع عن وطنه هذا الظلم وأن يحرره من السيطرة الأجنبية ويعرفه إلى الغرب الذى دفعه الجهل به إلى الاستعلاء عليه والطمع فيه .

وكذلك استقامت له السياسة واستقام له الأدب وأبلى فيهما كليهما أحسن البلاء .

جاهد فى السياسة حتى تعرض للموت كما قلت آنفاً، وحتى لقى من المكروه ما لقى أصحابه، وحتى ظفر مع أصحابه بإلغاء الحماية البريطانية وإعلان الحياة الدستورية وإعطاء وطنه من الحرية الداخلية والخارجية نصيباً إلا يكن ملائماً لما كان الوطن يطمح إليه، فقد كان خطوة بعيدة فى سبيل الاستقلال . ومدت له أسباب الحياة حتى رأى وطنه مستقلاً، فكان أرضى الناس بذلك وأنعمهم بالا .

وجاهد فى تحرير وطنه من جهل الغرب به وجحوده لفضله وغضه من قدره . فكتب فى اللغة الفرنسية كتباً ، وقفها كلها على تعريف الغرب بحقائق الوطن المصرى والوطن العربى كله .

وما أعرف مصرياً أو عربياً أبلى قبله مثل بلائه أو قريباً من بلائه فى إظهار الحضارة العربية للغرب كما أظهرها ، راقية كأرقى ما تكون الحضارة، نقية مبرئة من كل الشوائب التى شابتها فى نفوس الغربيين نتيجة

للجهل بها أو لتعمد الغض منها .

كان الفرنسيون يعتزون بأدبهم فأظهر لهم فى كتابه « جنة الزهر »أن للعرب أدبًا يستطيع أن يثبت للآداب العالمية الكبرى .

ترجم لهم نماذج من الشعر الرائق الشائق ليبين لهم أن العرب لم يكونوا كما كان يزعم لهم بعض المستشرقين أمة ينقصها سمو الخيال وتنقصها رقة الشعور وصفاء الذوق، وإنما كانوا مثلهم أمة زكية القلوب نافذة البصيرة واسعة الأفق بعيدة الطموح ، ترقى فى الأدب حتى تبلغ مثل ما كانوا يعتزون به من أدبهم الرفيع . ليست جامدة ولا هامدة ولا مقصرة فى الفن كما كانوا يصورونها لأنفسهم جاهلين لحقائقها ومتجاهلين .

وكان الفرنسيون يعتزون بحبهم القديم للمثل العليا وتاريخهم المأثور فى الفروسية التى تسمو بالنفس إلى التضحية فى سبيل الحق والواجب والكمال. فبين لهم فى كتابه « الفروسية عند العرب »أن الأمة العربية قد عرفت الفروسية قبل أن يعرفوها وأدت إليها أكثر مما أدوا من الحق . فكان فيهم المضحون فى سبيل الحق والخير والجمال، وكان فيهم الذين يحسنون إنصاف المظلوم من الظالم والضعيف من القوى ، وكان فيهم الذين يؤوون الغريب ويغيثون الملهوف وينجدون من يحتـاج إلى النجدة ، وكان فيهم الذين يستحون من أنفسهم قبل أن يستحوا من غيرهم ، وكان فيهم الذين كانوا يأنفون أن يعابوا بنقيصة أو يؤخذوا بوهن فى الخلق أو اعوجاج فى السيرة الفردية والاجتماعية . أظهر لهم كل هذا واضحًا جليًا لا يمكن إنكاره أو الجدال فيه . وأظهر لهم ذلك فى حياة العرب الجاهليين

وفى حياة العرب بعد الإسلام وفى حياة العرب أثناء ظهور الإسلام .

وكانوا يرون عن جهل أو عن تجاهل أن العرب أمة غليظة الطبع مجدبة القريحة ليس لها مثل ما لهم من القصص والأساطير ، وليست لها القدرة على تصوير السير التى تضرب للناس روائع الأمثال للحياة النقية الصافية الخالصة للحق والدين. فأظهر لهم فى كتابه «اللؤلؤ المنثور» أن الأمة العربية كانت وما زالت على غير ما يظنون صافية الطبع خصبة القريحة تحسن الابتكار وتصور مكارم الأخلاق والزهد فى الحياة والطموح إلى الارتفاع عن صغائرها والتنزه عن نقائصها وأعطاهم من ذلك نماذج لا تقبل شكًّا ولا جدالاً .

فأنت ترى أنه قد أبلى فى خدمة الحضارة العربية ما لم يبل مصرى أو عربى قبله، وصورها للغرب الأوروبى تصويراً صادقًا يرفعها عما كان يظن بها أو يقال فيها من القصور والخمول والانحطاط .

وهو لم يصنع شيئًا من هذا طمعًا فى أن يمتاز به بين مواطنيه وإنما صنعه إيثاراً للحق وإرسالا لنفسه على سجيتها . فقد كان شديد الحب لوطنه المصرى، عظيم الإيثار لوطنه العربى . لم يتردد فى تعريض نفسه للأخطار فى سبيل مصر ، ولم يفتر فى الذود عن كرامة الأمة العربية والذود عن الإسلام نفسه ، مع أنه لم يكن مسلمًا وإنما كان مسيحيًّا صادقًا فى دينه مخلصًا له أشد الإخلاص .

ولكن شيئًا من ذلك لم يمنعه من أن يذود عن العروبة والإسلام جهل الغرب بهما وغضه منهما . كان مفطوراً على حب الحق فى نفسه مفطوراً

على بغض الظلم وإنكاره مهما تكن الظرووف ومهما تكن النتائج .

وكان على هذا كله أزهد الناس فى الشهرة وأشدهم انصرافاً عن بعد الصوت . ولم يكن يكره شيئاً كما كان يكره الحديث عنه أو الثناء عليه، وإنما كان متواضعاً أشد التواضع ، يفعل ما يفعل صادراً عن طبعه وفطرته ، يود لو يجهل مواطنوه من جهاده كل شىء .

ولست أنسى أن مجمع اللغة العربية رأى ذات يوم أن يضمه إليه حرصاً على الانتفاع بعلمه وأدبه واعترافاً بفضله على اللغة العربية وآدابها فانتخبه أعضاء المجمع متفقين لم يشذ أحد على هذا الاتفاق، ولكنه رحمه الله لم يكد يعرف ذلك حتى أنكره أشد الإنكار وأباه أشد الإباء، وقد جادلته فى ذلك فأكثرت الجدال وجادله فيه رئيس المجمع الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد أطول الجدال فلم نستطع أن نقنعه ولا أن نحمله على أن يعرف لنفسه بعض ما عرفنا له من الفضل . وإنما أصر على أنه ليس من المجمعيين فى شىء ، وأبلغ فى ذلك فزعم لنا أنه لا يحسن اللغة العربية ولا يستطيع أن يشارك فى أعمال المجمع . وأصررنا نحن على رأينا وأصر هو على تواضعه . وقد صدر المرسوم بتعيينه عضواً فى المجمع ولكنه لم يلبث أن يرسل استقالته دون أن يشهد جلسة واحدة من جلساته، لا لشىء إلا لأنه كان يستخفى بأدبه وعلمه من مواطنيه، يرى فى هذا الاستخفاء معرفة لقدر نفسه مع أن قدره كان أرفع جداً مما كان يظن . ولم أعرف أحداً من المصريين غلا فى التواضع غلوه .وما أكثر ما يتمثل الناس قول أبى الطيب :

ومن جهلت نفسه قدرها   رأى غيره فيــه ما لايرى

ولكن هذا البيت إذا أردنا أن نتمثل به فى شأن واصف غالى رحمه الله فليس بد من أن نغير أوله وننشده على غير ما أراد أبو الطيب :

ومن عــرفت نفسه قدرها   رأى غيره فيه ما لا يرى

ومن يدرى لعله كان يجهل قدره بالغض منه والإسراف فى هذا الغض فيعطى نفسه أقل كثــيراً من حقها على عكس ما يصنع المغرورون الذين يعطون أنفسهم أكثر من قدرها . فقد كنا نرى فيه أنه أكبر مما يظن على حين يرى الناس فى المغرورين أنهم أقل مما يظنون .

ولم أكد أعرض بعد للكتاب الذى أقدمه إلى قراء العربية وهو كتاب «الفروسية عند العرب» فقد ترجمه الأستاذ الدكتور أنور لوقا إلى اللغة العربية بآخرة فأحسن ترجمته وأظهره كما أراد المؤلف أن يظهره للفرنسيين. ولو قد أراد أحد أن يترجم هذا الكتاب فى حياة صاحبه لأبى ذلك أشد الإباء ولأعلن أنه لا يراه جديراً أن يترجم إيثــاراً للتواضع وزهداً فى الحديث عنه والثناء عليه .

وسيقرأ العرب هذا الكتاب فى ترجمته الجيدة فيرون أن صاحبه قد أتقنه كل الإتقان . كتبه للفرنسيين وللأوروبيين عامة فأحسن كتابته . لم يهجم على الفروسية العربية منذ بدأ كتابه حتى لا يفجأ قراءه من الغربيين

بما ليس لهم به عهد . وإنما تحدث عن الفروسية الفرنسية والغربية ثم ما زال فى حديثه هذا حتى وصل فى لباقة ورفق إلى الفروسية العربية فأمعن فى وصفها وتصويرها ورواية النصوص القديمة التى تعرض خير ما فيها من الخصال . واستطاع بذلك أن يبين للفرنسيين فى رفق أى رفق أن الغرب لم يستأثر بهذه الفروسية وإنما سبقتهم إليها أمة أخرى يجهلها الغربيون أو يتجاهلونها ويدفعهم ذلك إلى ظلمها والازراء بها . وقد عرف كيف يختار من النصوص العربية الجاهلية والإسلامية ما يعرض حظ العرب من الفروسية أصدق العرض ويصورها أبرع التصوير ، بحيث لا يقرأها قارئ غربى إلا اضطر إلى أن يعترف بالحق ويرى أن من الواجب عليه أن يغير رأيه فى هؤلاء العرب وأن يكبرهم كما يكبر نفسه ويعرف من قديمهم مثل ما يعرف من قديمه .

وقد قرأ المنصفون من الغربيين هذا الكتاب فأصلحوا من آرائهم وترجمه الأستاذ أنور لوقا ترجمته هذه المتقنة وسيقرأها العرب فيعرفون أن صاحب هذا الكتاب لم يكن كما كان يظن هو بعيداً عن اللغة العربية وآدابها ، وإنما كان قريباً منهما أشد القرب الفاً لهما أحسن الإلف وأبقاه ، وأنه قد أبلى فى خدمة الإسلام والعروبة بلاء لا يحسنه إلا أولو العزم والإخلاص فى حب الوطن إخلاصاً لا تشوبه شائبة من إيثار للنفس أو رغبة فى الثناء أو حرص على الاعتراف بالفضل .

سيعرفون هذا كله بعد أن أبى واصف غالى أن يعرفوه فى حياته .

فيذكرونه محبين له مكبرين لجهده مقدرين لحسن بلائه سائلين الله أن يبره كما بر وطنه ، كما أحسن البر به والذود عنه .

وإنى لأحمد للمترجم عنايته بحسن النقل. ولم أكن أخاف عليه شيئاً كما كنت أخاف أن يتورط فى ترجمة النصوص العربية كما ترجمها المؤلف مضطراً إلى ذلك ، ولكن الأستاذ أنور لوقا كان عند حسن الظن به والرأى فيه فأتى بالنصوص فى لفظها العربى القديم .

فشكر الله له صنيعه ، وأحسن جزاءه عن هذا العمل القيم الممتع .

طه حسين

« تحتاج الإنسانية ، لكى تنهض بعبئها ، إلى أن تعتقد أنها لا تنال من الأجر ما يفى بجزائها . وإن أكبر خدمة يستطيع امرؤ أن يبذلها للإنسانية ، هى أن يردد لها مراراً أنها لا تحيا بالخبز فقط » .

إرنست رينان

الفـروسـية

أصول الفروسية

« من الطريف أن يكون الشعر العربى ، أثناء الحروب الصليبية ، قد أدى – ولست أدرى بأى تأثير خفى– إلى تكوين المثل الأخلاقى الأعلى لفرسان فرنسا .»

جول لميتر

هناك بين كلمات اللغة الفرنسية كلمة نبيلة ، عريقة الأصل ، سامية المعنى ، تلك هى كلمة : الفروسية . فما يستطيع أن ينطق بها الناطق دون أن يختلج بالتأثر ، لأنها تسجل تطورا عميقا فى أخلاق البشر وعواطفهم .

ولن نحاول أن نعرّف« الفروسية » . فهى طائفة من الأفكار والعواطف والنظم ، هيهات أن تحتويها صيغة واحدة . إنها تحمل فى أول أمرها طابع منظمة دينية — بل لنكاد نقول كهنوتية — إذ قد أوحى بها الكهنة ، ووجهوها فى سبيل الدفاع عن المسيحية . ولكنها لم تلبث حتى تحررت من وصاية القسيسين والرهبان عليها ، وأصبحت عالمية شهمة إنسانية ؛ فقد وسعت مجال نشاطها النبيل منذ القرن الثانى عشر ، ولم تقتصر على

حماية الكنيسة ، بل جعلت من نفسها ناصر الضعيف على القوى ، ومنصف المظلوم من الظالم. وحينما ولت المنظمة وزالت ، بقيت « الفروسية » ؛ ولم تبق مزية للفرسان وحدهم ، بل غدت تراث الفرنسيين جميعا . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت فرنسا بأسرها — لا بضعة من أبنائها — هى التى تنهض بمهمة الدفاع عن مصالح المسيحيين فى بلاد الإسلام ، وحماية الضعاف طرا ، وعقاب الجور أينما طغى ، وتولى أمر كل قضية عادلة أو كريمة حتى تفوز وتنتصر .

ولذلك فإن كلمة الفروسية لا تثير ذكرى شرلمان وأقرانه الاثنى عشر فحسب ، ولا ذكرى الحروب الصليبية وواقعة « فونتنوا » أو استقلال أمريكا وحروب الثورة الفرنسية كذلك ، ولا إعتاق اليونان وتحرير إيطاليا أو ملاحم « المارن » و « فردان » فقط ، بل إنها تثير — مع كل هذا — ذكريات الاستبسال العفيف ، والتضحية الفردية والجماعية — من أجل مبدأ — وإغاثة الملهوف ، وعقيدة الشرف ، وإجلال السمو الأخلاقى ، كما تثير فى النفس معانى السماحة الباسمة وسط المخاطر ، والرقة التى تلازم القوة ، والتودد والكرم فى معاملة العدو . . .

* * *

والذى يميز « الفروسية » من الحضارة اليونانية والرومانية هو تفتح وازدهار عواطف جديدة ، لم تكن معروفة لدى القدماء ، مثل عاطفة الشرف ، التى تفرض على المرء ألا يراوغ فى أداء الواجب ، أو يحسب

حساب الخطر ، وأن يغسل العار بالدم ، ومثل الوفاء بالوعد الذى يدفع المرء إلى إيثار الموت على إخلاف ما قطع من عهد ، ومثل حماية الضعيف والمظلوم حماية لا يمليها غرض ولا انتفاع ، ومثل مراعاة جانب الإنسانية أثناء القتال وتوخى الكرم بعد الغلبة ، ومثل احترام المرأة ، وأخيراً هذا الطابع الذى اتسم به الحب ، فبعد أن كان الحب يعرض للرجال طارئا بسيطا ، أمسى مرهفا صوفيا ، وأصبح غاية سعيهم وحافزه . على أن هذه الصفات المميزة للفروسية من شأنها أن توجد — فى صورة بدائية أو كاملة التطور — فى أجواء متباينة وفى عدد من البلاد عبر مختلف العصور : لدى العجم والعرب ، ولدى أهل اسكنديناوة والجرمان ، هذا إذا لم نذكر اليابانيين ومحاربى سومطرا وقبائل « الماورى » فى زيلندة الجديدة . . . وهنا يحق التساؤل عما إذا كانت الفروسية نزعة طبيعية من نزعات النفس الإنسانية ، أم قد استعارتها من شعب معين شعوب أخرى . وبعبارة أخرى ، ما هو أصل الفروسية ؟ هل نبتت فطريا فى الروح وفى الأرض الفرنسية ، أم ترى قد استقت شرائعها ومثلها الأعلى من منهل أجنبى ؟

وليكن سؤالنا أولا : فى أى عصر ظهرت « الفروسية » فى فرنسا ؟

ويجيب عن هذا السؤال أصحاب التاريخ وأصحاب الأدب إجابات متباينة متناقضة ؛ فالفروسية تنتمى إلى الشعر بقدر ما تنتمى إلى التاريخ أو أكثر ، ما دامت هى حلما من أجمل ما راود الفكر الإنسانى ، وما هى بعد كل شىء إلا انطلاق مدعم نحو المثل الأعلى . . انطلاق تؤازره شجاعة

المقاتلين وعزيمتهم أقل مما تؤازره روعة الشعراء وعبقريتهم . فمن الكتاب من يصعد بالفروسية إلى عصر « الميروفنجيين » بل وإلى ما قبله ، أى إلى عهود لم تكن هذه المنظمة معروفة فيها بعد ، كما يلاحظ ذلك الأستاذ « دى سانت بالاى »[١] ومنهم من يرجعها إلى زمن الحروب الصليبية[٢] . ويحدد شاتوبريان مولدها خلال حقبة تقع بين سنة ٧٠٠ وسنة ٧٥٣[٢] ، على حين يذكر « س . دى‌سيسموندى » أنه «كلما أمعن المرء فى دراسة التاريخ ، رأى أن الفروسية تجديد يكاد أن يكون برمته شعريا ؛ فالباحث لا يصل قط عن طريق الوثائق الأصلية إلى تحديد البلد الذى كانت سائدة فيه ، فهى دائماً صورة مرسلة من بعيد . وبينما يبسط لنا المؤرخون فكرة جلية مفصلة كاملة عن رذائل حياة البلاط حول الملوك والأمراء ، وعن استعباد الشعب ، فإنه يدهشنا أن نرى الشعراء بعد فترة من الزمن ، يبعثون تلك القرون بعينها متلألئة بخيالات كلها من وشى الفضائل ورقيق الشمائل والولاء »[٣] .

---

(١) لاكورن دى سانت – بالاى (Lacurne de Saintc-Palaye) : مذكرات عن الفروسية القديمة ، الجزء الأول ، تعليق (١) من القسم الثانى .

(٢) انظر جان – جاك أمبير (J.-J. Ampère) : منوعات من تاريخ الأدب ومن الأدب ، الجزء الأول ، ص ٢٤٨ وما يليها .

وبارتيلمى سانتيلير (Barthélemy Saint-Hilaire) : محمد والقرآن .

(٢) شاتوبريان (Chateaubriand) : تحليل وشرح لتاريخ فرنسا ، ص ٣٨٦.

(٣) س . دى سيسموندى (S. de Sismondi) : فى أدب جنوبى فرنسا ، الجزء الأول ص ٩٠ ، ٩١ .

وليست مشكلة التأريخ وحدها هى التى تثير نزاع الكتاب ، فإن الفروسية فى جملتها ، على الرغم من أنها كانت ، فى عصور مختلفة ، موضع دراسات جدية — ولعلها لهذا السبب ذاته — قد فتحت مجالا شاسعا للنقاش والجدل. فقد نظر إليها كل كاتب من وجهة خاصة ودرسها وفقاً لنزعاته أو عواطفه ؛ فقوم يخلطون بينها وبين الإقطاع ، وآخرون يعتبرونها شرفا موقوفا على طبقة النبلاء دون سواهم ؛ فهى تبدو فى أعين هؤلاء منظمة ثابتة ، ومنهجا أحكمت عقائده وشرائعه ودقائقه واتبعت فى كل مكان بطريقة واحدة ، بينما تبدو فى أعين أولئك — على النقيض — منهجا معقدا من السلوك والمبادئ ، ومثلا أعلى من الكمال الأخلاقى والاجتماعى والعسكرى اصطلح الناس عليه بوجه عام وقد أبيح لكل امرئ أن يصبو إليه ، شريفا كان أم صعلوكا . ولم يدع الباحثون حتى كلمة « فروسية » ، فاتخذوا منها مادة دراسات بل وبحوث لغوية لا يتوقعها العقل أحيانا . ألم يتجشم أحد أعضاء مجمع العلوم والآداب والفنون بمرسيليا عناء استنباط كلمة « شفاليرى » — أى الفروسية (Chevalerie) — من « كلمة شروال أو (شلوال) التى يطلقها المسلمون على الإزار الطويل الذى كان من العلامات المميزة للمتبارى أو البطل » ؟[١] .

(١) مذكرات مجمع العلوم والآداب والفنون بمرسيليا. مجلد السنوات ١١٤٨–١٨٥٤ ص ٢٦٧ ، مقالة هـ. جيس (H. Guys) .

ولفظة « شلوال » نقلناها طبق الأصل . وربما كان من المفيد أن نثبت فى هذا المعنى كلمتى « شليل . سربال » . (تحقيق)

لن يدهشنا بعد ذلك إذن أن يقدم لنا الكتاب هذه الفروسية ــ مدعمين ما يذهبون إليه بأسانيد تاريخية أو شعرية، متينة أو دقيقة ــ على أنها ذات أصل رومانى خالص[١] ، أو عربى خالص[٢] ، أو جرمانى[٣]، أو مسيحى[٤] ، بل ويسعى بعض المؤلفين إلى التوفيق بين مختلف العناصر فيكشفون للفروسية أصلا جرمانيا عربيا مسيحيا فى آن واحد[٥] . . .

وتعتمد هذه المناقشات جميعها ــ فى رأينا ــ على خطأ أساسى هو دراسة الفروسية باعتبارها وحدة لا تتجزأ ، كأنما هى منظمة ثابتة لا يعتريها تغير ، أو كأنها قوة غلابة قد احتفظت دائماً ، منذ نشأتها حتى زوالها بأشكال معينة ومميزات معينة . وكان الأجدر بنا أن ننظر إليها كعمل إنسانى قابل للتبدل والتحول والتطور . ولقد أسلفنا أن الفروسية مجموعة

---

(١) الأب أونوريه دى سانت ــ سارى (Père Honoré de Sainte-Marie) : مقالات تاريخية ونقدية فى الفروسية القديمة والحديثة .

(٢) أ. دى بومون (A. de Beaumont) : أبحاث فى أصل الشعار. ج. دلكلوز (J. Delecluse) : رولان والفروسية . ل . فياردو (L. Viardot) تاريخ العرب والأندلسيين.

(٣) أ . دى بارتيلمى (A. de Barthélemy) : فى نعت الفارس

لاكورن دى سانت ــ بالاى (Lacurne de Sainte-Palaye) : مذكرات عن الفروسية القديمة

(٤) جوتييه (Gautier): الفروسية .

(٥) انظر كتابى أمبير وشاتوبريان السابق ذكرها ــ وهردر (Herder) : أفكار فى فلسفة التاريخ، ترجمة كينيه (Quinet)

من الأفكار والأخلاق والعواطف والنظم ، وهذه المجموعة لم تمسك لحظة عن التبدل والتطور عبر القرون . وهكذا تعددت المراحل ، وتعددت التحولات ، بل ويمكننا أن نقول أيضاً وتعددت « الفروسيات » . فينبغى إذن أن نقف لدى كل مرحلة من هذه المراحل لنحدد تاريخها ، وأن ننظر فى كل تحول طرأ لنستقصى أسبابه ، وأن ندرس على حدة كل فروسية من هذه الفروسيات المتتالية ، ثم ندرسهن جميعاً إذا أردنا أن نخرج بفكرة كاملة عن الفروسية .

على أن هذا ليس هو الغرض الذى نرمى إليه ، وإنما يكفينا أن نبحث عن التأثيرات التى تولت خلق الفروسية وتنميتها ، حتى نجتلى أصولها :

فمعجمات اللغة تعرف الفروسية بأنها : « منظمة عسكرية إقطاعية خاصة بطبقة الأشراف ، قد نذر أعضاؤها على أنفسهم نذرا دينيا » وهذا تعريف غير دقيق ، لأن كل فارس كان يستطيع أن يمنح سواه الفروسية ، كما كان لغير الأشراف أن ينصّبوا فرسانا ؛ وهو فوق ذلك تعريف ناقص ، إذ لا يراعى فى الواقع غير هيكل الفروسية الخارجى ، مهملا نفحة الروح التى تبعث فيها الحياة ، على حين أن التمييز بين المنظمة — أى الشكل الظاهرى للفروسية — وبين الفكرة والروح والعواطف التى تنبض بها ، أمر جوهرى لاستبانة أصولها ، « فكثيرا ما خلط القوم بين تنصيب الفرسان وبين الفروسية ذاتها »[١] .

---

(١) لاكورن ، الجزء الأول ، ص ١٢ ، تعليق ١٤ .

ولقد رأى معظم الكتاب ـــ معتمدين على نص من نصوص « تاسيت » ـــ أصل الفروسية فيما اعتاده الجرمان من تقليد الرمح والدرع فى احتفال رسمى للفتى المتقدم الذى قد اعترف له بالقدرة على حمل السلاح[١] . على أن الاحتفال الذى يتحدث عنه « تاسيت » كان مما يقام فى فرنسا منذ عهد شرلمان بل ومنذ عهود الملوك السابقين ـــ وهذا مما يعلل رجوع بعض المؤرخين بالفروسية إلى عصر « الميروفنجيين » ـــ إلا أن صورة هذا الاحتفال قد تغيرت فيما بعد . فالحفل العسكرى البسيط قد أصبح حلقة دينية صوفية . فلقد كان الأمر أولا ، أن المحارب الفتى يسلحه أميره أو أبوه الذى كان يعطيه الـ « كوليه » (La Colée) أى صفعة عظيمة بالكف على قفاه . ولما كانت الكنيسة فى ذلك العصر تتدخل فى كل أفعال الحياة ، فقد تدخلت فى هذا الفعل الذى يصنع الفارس ، وأحلت العناق محل الصفع ، وأضافت إلى الحفلات الهمجية شعائر دينية لم تلبث حتى أبدلتها منها (كالصوم والتهجد ومناسك التوبة والتناول يؤديها الفتى فى ورع ، والاستحمام الذى يمثل تطهير المعمودية ، وارتداء الثياب البيض أسوة بالداخلين فى الدين ، وأخيراً مباركة السيف بصلاة الكاهن وتسليمه بعد تقديسه ، للفتى الشريف . .)

وأما عن منظمة الفروسية ، فينسبها صاحب كتاب « فلسفة تاريخ البشرية » إلى الأصل التالى، وهو ما يبدو لنا أكثر الآراء صحة ووجاهة :

---

(١) تاسيت (Tacite) : أخلاق الجرمان ، الفصل الثالث عشر .

يقول هردر : « كانت جميع القبائل الجرمانية التى ملأت أوربا تتألف من محاربين ، وكان أهم قسط من الحملات هو ذلك الذى يقوم به الفرسان ، فكان من الطبيعى أن يطمحوا إلى جزاء يتناسب وخدماتهم . وسرعان ما تشكلت هيئة من الفرسان أتقنت فنها فى نظام منهجى ؛ فألف رفاق الدوق أو الملك أو قائد الجيش فى المعسكرات شيئا فشيئا ما يشبه مدرسة حربية كان أتباعهم يبدءون فيها التدرب . فإذا برّز هؤلاء ، استطاعوا أن يعلموا بدورهم تلاميذ آخرين ، بوصفهم قدماء لهم حقوق الأساتذة. ومن العسير أن يكون لمنظمة الفروسية غير هذا الأصل »[١].

تلك هى أصول « الفروسية » باعتبارها منظمة عسكرية . وقد يكون الاحتفال بتسليح المحارب الفتى أو انخراط الفرسان فى سلك جماعة مصطفاة ذات امتيازات ، مما يرجع إلى أصول جرمانية ، ولكننا نتورط فى الخطأ ونخلط بين الهيكل الجامد والروح التى تحييه ، وبين السيف واليد التى تنتضيه ، إذا زعمنا أن الفروسية — بوصفها عبادة الجمال الأخلاقى — شيء أبدعه الجرمان . فإن العقل السليم والتاريخ ليأبيان مثل هذا التأكيد .

لقد « كان الجرمانى — وقد استسلم لغرائزه الفطرية قبل أن تشحذها المبادئ وقبل أن تنظمها الواجبات — رجلا أنانيا ، قاسياً ، يحب الانتقام والاغتصاب ، وكان دينه — وهو الخشوع لقوى الطبيعة أو تأليه الشجاعة

(١) هردر : أفكار فى فلسفة التاريخ (ترجمة ادجاركينيه) ، الجزء الثالث ص٤٣٦ .

الحربية — يسبغ على الوحشية معنى القضاء الإلهى . وكان تاريخ آلهته قصص عراك وقتل ، وكان خير ما يقدم إليهم من قربان ، وخير ما يستدر به رضاهم ، ذبائح بشرية ؛ وأما الفردوس الذى وعدت به الآلهة هؤلاء المحاربين فقد كان ميدان قتال لا ينقطع فيه سيل الدماء ، وفيه يشرب المرء فى جمجمة عدوه . ولم يكن مثل هذا الدين مما يرقق النفوس »[١] بل لعله من الممكن القول بأن أى دين لم يكن مستطيعا أن يرقق نفوسهم ؛ فإنه على الرغم من اعتناقهم المسيحية — فيما بعد — ، قد ظلت تغلب عليهم النزعة الدينية الأولى ، ومضوا يعبدون القوة .

ودونكم تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى ، حينما كانت الفروسية الأوربية فى أوجها ، فهل تجدون فيه سوى سلسلة طويلة من المذابح وضروب النهب والإجرام والتخريب ؟ لقد سجل المؤرخ التيوتونى « سيزار دايسترباخ » (César d'Heisterbach) أن « الأمراء والبارونات كانوا لا يرون حرجا فى الحنث بأيمانهم »[٢] . ورسم لنا « بورخارد دورسبرج» (Burkhard d'Ursperg) — بعد أن نبهنا إلى أن معظم البارونات والفرسان كانوا لصوصاً — هذه اللوحة الموجزة لألمانيا فى القرن الثالث عشر بقوله : « فى كل مكان رجال طغاة ، قساة نهاشون ، جشعون مسرفون ،

---

(١) منييه (Mignet) : مذكرات أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ، الجزء الثالث سنة ١٨٤١ : « كيف دخلت جرمانيا القديمة فى المجتمع المتحضر لأوربا الغربية » .

(٢) زيلر (Zeller) : تاريخ ألمانيا ، ص ٥٧٥ .

متجبرون فى طرق الكسب والسلب ، لا يخضعون لغير شهواتهم ، يدوسون العدالة بأقدامهم ، ويتنازعون المنافع والمناصب بالدسيسة والخبث ، وبالاغتيال إذا اقتضى الأمر . . . »[١] .

وهذا هو « هردر » — على الرغم من أنه ألمانى — يلاحظ ملاحظة ضمنية ، هى أن الفرنسيين كانوا أساتذة التيتون فى الفروسية ، إذ يقول : « عندما هرعت جميع الأمم إلى فلسطين وكأنها تهرع إلى مهرجان كبير ، اتصل فرسان ألمانيا بفرسان فرنسا ، فتجردوا شيئا فشيئا من عنفهم التيوتونى »[٢]

وخلاصة القول فإن الفروسية — بوصفها منظمة عسكرية — تنبت جذورها من عادة جرمانية عتيقة هذبتها الكنيسة وأحاطتها بالطقوس المتبعة فى القرون الوسطى .

ولنبحث الآن عن العواطف التى أدت إلى خلق روح الفروسية ونموها .

فى المجتمع الهمجى والمجتمع الإقطاعى « وما هو فى الواقع إلا مجرد تطور للعرف الجرمانى من ناحية معينة »[٣] يقوم الحق على أساس القوة .

---

(١) زيلر : المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

(٢) هردر : المرجع المذكور ، ص ٤٤٩ .

(٣) أوجستان تيير ى (Augustin Thierry) : قصص من عصر الميروفنجيين ، ص ١٩٠ .

فالمثل الأعلى للمحارب ، أن يكون شديد البأس مغوارا كشرلمان الذى يصوره المؤرخون القدماء بأنه يستطيع « بضربة واحدة من سيفه أن يشق المحارب — الراكب المدجج فى سلاحه — من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بما فى ذلك الحصان » ، وأن تكون أولى صفاته الشجاعة ، حتى « لقد كان أى سب يوحى بالانتقاص من شأنها ، يوجب العقاب ويقتضيه ، فنبز الرجل بأنه أرنب مثلا أو طفل قذر ، كان يستتبع تعويضاً قدره ثلاثة دراهم ذهبية أو ستة »[1] .

ولكن عندما اجتمع عدة محاربين تحت إمرة رئيس واحد ، أصبح من الواجب إقامة رادع لحدة طباعهم المتحفزة للقتال وتوجيهها نحو الغرض المنشود فقط ، من غزو أو اغتنام . ولقنوا منذ ذلك الحين أخلاقا إقطاعية ، أو بالأحرى ، ولاء التابع للمتبوع — أى عدم خروج المرءوس على الرئيس ، ورعاية الرجل لما عاهد عليه السيد وأصحابه . ومقابل هذا كان على الرئيس أن يحترم ما التزم به أمام رجاله . وأصبح القانون الأعلى هو « العهد » فالرجل الولى (legalis = loyal) هو الذى يحفظ العهد ، والرجل المخلص (Preux = Probus) هو الوفى المقدام فى آن واحد »[2] . وينبغى أن نلاحظ أن الولاء هنا ليس إلا ولاء نسبيا فهو لا يتعدى

---

(١) شاتوبريان : دراسات تاريخية ، الدراسة السادسة : « أخلاق البرابرة » .

(٢) لافيس ورامبو (Lavisse et Rambaud) : التاريخ العام ، الجزء الثانى ، ص ٦٠ .

علاقات السيد برجله والزميل بزميله ، ولكن ذلك كان على أية حال خطوة إلى الأمام .

ولقد أتاحت شريعة الوفاء هذه للسيد — عندما يبلغ مرحلة الشيخوخة — أن يبيت فى مأمن مما يمكن أن يوجه إليه من ضربات ، زميل له أشد منه قوة وأعظم بأسا . وامتدت فيما بعد آثار هذا الوفاء ، فشمل العهد جميع ما يخص السيد ، من أرض وزوجة وأبناء . وكانت سنة الشرف تقتضى المقاتل الذى قد صار فارساً ، أن يجلّ قرينة سيده وأن يمنع ولد سيده ويحميه ، إذ هو أضعف من أن يدافع عن نفسه . . .

وتدخلت الكنيسة إذ ذاك لتوسع للفارس أفق مثله الأعلى ؛ فحولت الشراسة الهمجية إلى شجاعة واستبسال ، ووضعت الوفاء الدينى فوق وفاء الفتى لمولاه — فأصبح على المرء ألا ينقض وعده قط ، وأن يتجنب الكذب — وأفسحت أفق الحماية الواجبة لزوجة السيد وولده فشملت جميع المستضعفين والمظلومين ولا سيما الكنيسة ، وحضّت على الجود والاعتدال . . .

ولكن التحمس للدين — ولعله قد فتر أو بدا ضيق الأفق — لم يعد ، قرب القرن الثانى عشر ، غاية الفارس الوحيدة . فقد لحق بعمل الكنيسة التحضرى تأثير العرب التحضرى أيضا ، وقامت إذ ذاك فروسية حرة اجتماعية : تنصرف بعض الشيء عن الدين وتضع المروءة والمودة فوق كل اعتبار ، ثم لم تلبث أن أثارت سخط الكهنة ، وخاصمتهم . ولقد كان

الحب وإغاثة الملهوف وتعظيم الشرف الحربى هو روحها وحافزها ومثلها الأعلى .

تلك — فيما نرى — هى العواطف التى أدت إلى نشأة روح الفروسية ونموها فى العالم الغربى ، وهى عواطف يمكن إيجازها فى كلمة واحدة : « الحضارة » . فلو أن النظام الإقطاعى لم يوجد ، لنبتت الفروسية من تلقاء نفسها ونمت فى بعض أقطار أوربا ، ولما فات فرنسا أن تتأدب بآدابها حتى ولو لم تكن قد دانت بالمسيحية . والدليل على ذلك ، أننا نجد الفروسية قائمة بين شعوب مختلفة العقائد ، متباينة النظم السياسية . وهذا يعنى أن الفروسية نزعة كامنة فى طبيعة النفس الإنسانية ، وطموحها للمجد ، وفى عواطف الحب ، تديرها وتنظمها آداب مهذبة مصقولة . « إنها تولد مع الشعور بالقوة الشخصية لدى الأجناس الممتازة ، ولسنا نعنى القوة الغاشمة بل القوة الناتجة عن عنفوان طبيعى يخضعه عقل متسلط »[١] .

إنها نواة النبل الأخلاقى التى أودعها الله أعماق القلوب ، فهى توق النفس إلى الخير، إلى المثل الأعلى، إلى الله. وإذا كان الإنسان — كما قيل — روحاً إلهياً قد هوى وما زال يتذكر السموات ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى الفروسية على أنها تحقيق فاضل لهذه الذكرى السماوية .

فليست الفروسية الفرنسية إذن — كما يقول الكتاب — ذات أصل

---

(١) فيوليه لدوك (Viollet-le-Duc) : معجم الأثاث ، الجزء الخامس ، ص ٦ .

جرمانى أو إقطاعى أو رومانى ولا مسيحى أو إسلامى كذلك . . بل هى فرنسية . . وإن كان لا يعنى هذا أنها لم تتأثر بحضارة العرب . وتوضيح هذا ، أن الشرق والغرب عندما تلاقيا — فى ر ونسفو أو فى أسبانيا ، فى فلسطين أو فى مصر — كانت الفروسية قد نبتت بالفعل فى فرنسا شجرة أو شجيرة أو برعما . غير أنه كان لهذا التلاقى آثار ونتائج لعل أهمها ، ما أضفى على الفروسية من دقائق بارعة ، من ألوان الرقة الرائعة والأناقة النبيلة. فالبذرة قد نبتت — ولا شك — فى أرض فرنسا ؛ أما أنها قد قامت بعد ذلك أكثر سرعة وأصلب عودا . . وأما أنها قد أشرقت بزهر أروع وتضوعت بشذى أرق وأطيب — فإنما الفضل فى ذلك كله لشمس الشرق وصبا نجد . وذلك ما سنحاول الآن تبيانه .

أثر العرب فى آداب الفروسية

سواء جرت الأمور فى طريق العلاقات التجارية أو ظل الروابط السياسية ، وسواء أسفرت تلك العلاقات عن حروب أو محالفات ، فما أكثر ما نشأ بين الشرق والغرب من دواعى الصلة وألوان المبادلة منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر . فمسلمو الأندلس والمسيحيون مثلا ، لم يمسكوا لحظة عن الاتصال فيما بينهم ، فعرف بعضهم بعضا ، وعاشوا على نحو ما نفس الحياة . . حياة البطولة أو حياة البطالة . . حياة السلام أو حياة القتال . ومن خلال فترات ذلك الصراع الطويلة التى كان الاستبسال فيها يتراوح بين الجانبين بصور متكافئة ، ومن تلك المهادنات التى كانت تتيح للفريقين أن يفرغا ردحا من الزمن لأعمال الفكر والصناعة تولد تقدير متبادل ظل ينمو مع الأيام . لقد كان مما يروق للعرب أن يشيدوا بشجاعة من أحاط بهم من المسيحيين الذين كانوا يطلقون عليهم دائماً اسم « الفرنجة » . . أيا كانت بلدهم . . كما لم يلبث « الفرنجة » حتى « فهموا حقيقة الإسلام ، وعرفوا فى المسلمين شعوبا تفوقهم تحضرا »[1] .

ولا عجب إذن أن يشتد إقبال الفرنجة ـــ وهم الذين أخذوا عن

---

(١) لافيس (Lavisse) ، الجزء الثانى ، ص ٣٤٦ .

الشرقيين « كثيراً من مبتكراتهم وعاداتهم »[١] — لا عجب أن يقبلوا على استعارة بعض أساليب الفروسية وآدابها المترفة ، مما يلائم عبقريتهم خير ملاءمة وينسجم معها . أو ليس من الحق أن نتوسع فى تطبيق ملاحظة « فورييل » الجوهرية التالية حتى تشمل على الأقل إقليم « السبتيمانى » (La Septimanie) — أى كل هذه المنطقة الواقعة فى جنوبى « غالة » بين البحر الأبيض المتوسط و « السيفين » ، وبين جبال البرانس ونهر الرون ؟ — فلقد ظل هذا الإقليم كله أو بعضه ، زمنا طويلا تحت سيطرة العرب[٢] ، يقول فورييل : « إن من الوقائع التى بلغت من التأكيد مبلغا يسترعى الانتباه ، ذلك النوع من الود والألفة الاجتماعية الذى نشأ منذ وقت مبكر بين العرب وأهل أسبانيا ، ولم تزده الأيام إلا نموا ، وتلك السماحة التى لان بها الأخيرون لسمو الأولين ، فاعتادوا كريم طباعهم ، وتبنوا لغتهم ، وآداب عيشهم ، بل ونهج خيالهم[٣] » .

وقد يبدو هذا القول زعما جزافا ، ولكنه يستند إلى وقائع مادية ، كظهور صناعات عربية شتى فى جنوبى فرنسا ، ودخول بعض أساليب

---

(١) لافيس ورامبو : التاريخ العام ، الجزء الثانى ، ص ٣٤٦ .

(٢) بعد أن سيطر العرب على أسبانيا ، دخلوا للمرة الأولى إقليم السبتيمانى دخول للغزاة سنة ٧١٥. وفى سنة ١٠١٩ حاولوا بلا جدوى أن يستردوا مدينة « ناربون ». وفى خلال تلك الفترة التى تقع بين هذين التاريخين وتبلغ قرابة ثلاثمائة سنة ، لم يكد ينقطع القتال بين الغزاة من مسلمى أسبانيا وأهل ما دون جبال البرانس .

(فورييل : تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الأول ، ص ٤٢٠) .

(٣) فورييل (Fauriel) : تاريخ غالة الجنوبية ، الجزء الثالث ، ص ٥٩ .

الزراعة وآلاتها ، ووجود طائفة من الكلمات العربية — ولا سيما مصطلحات الفروسية منها — فى اللغة البروفنسية ، هذا إلى شيوع عادات عربية بعينها هنالك ، وما يوجد من تشابه بين الأدبين فى بعض الوجوه، إلى غير ذلك من تلك الحفلات الاجتماعية والمجالس الأدبية والنقائض الشعرية . . إلخ . ونستطيع أن نتبين صور هذا التقارب ومظاهر تلك الألفة الاجتماعية فى كتاب « تاريخ الشعر البروفنسى »[1] للأستاذ « فورييل » حيث أجاد عرضها وتفصيلها فى ذلك المؤلف الواعى حقا ، والذى نحيل عليه من يبتغى المزيد ، ونكتفى بأن نورد هنا خلاصته ، مذكرين بأن جنوبى فرنسا كان مهد نظام الفرسان فى الغرب ، فهو يقول :

« هنالك ما يدعونا إلى الحكم بأن العرب الأندلسيين قد أثروا بما ضربوه من أمثلة حياتهم تأثيرا فعالا فى الحضارة الأخلاقية والاجتماعية التى انتشرت فى جنوبى فرنسا ، ولا سيما ذلك الجانب المسيطر المتميز من تلك الحضارة وهو ما يختص بمبادئ الفرسان وآدابهم ونظمهم »[2] .

ولكى نقف على الأثر العربى فى روح الفروسية ونقدّر مدى تغلغله — لا فى جنوبى فرنسا فحسب ، بل فى فرنسا بأكملها وفى الأمم المسيحية جمعاء — فإنه يكفى أن نلقى نظرة على « قصص الفروسية » . ومن المعروف

---

(١) فورييل : تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الثالث ، ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) فورييل : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٧ .

أن « قصص الفروسية » كانت فى العصور الوسطى هى الغذاء الروحى الوحيد للأشراف بل ولسواد الشعب أيضاً ، وكانت مرجع المقاتلين الذين اتخذوا من أبطالها قدوة لهم ، وراحوا يستمدون منها دروس العزة والفضل والأدب . على أن « تاريخ توربان » (Turpin) — وهو الذى سبق قصص الفروسية جميعا — يؤكد (فى الفصل العشرين) أن « شرلمان » قد تقلد مرتبة الفروسية على يد جالافرون إمير (Galafron Emir) ذلك الأمير الأندلسى الذى كان سيد كوليتو (Coleto) فى البروفانس ؛ بينما تشهد إحدى الأقصوصات الشعبية فى القرن الحادى عشر بأن صلاح الدين — وهو بطل شديد البأس ومسلم عظيم الولاء — قد قلده الأمير « هوج » أمير طبرية ، مرتبة الفروسية . ونرى فى النص الألمانى لقصة برسفال (Perceval) أن أحد الفرسان المسيحيين لم يتردد فى الالتحاق بخدمة « باروك دى بلداك » (Baruc de Baldac) أى « خليفة بغداد »[١] . وكذلك كان شأن « برنارد دى كاربيو » (Bernard de Carpio) أقدم أبطال أسبانيا المسيحية — فإن « بطولته لا تكاد تتجلى إلا فى جيوش الأندلسيين العرب . . . كما تنسب أقدم أغانى الأسبان وأوليات قصائدهم من القرن الثانى عشر — من مثل قصيدة « السيد » — تلك الآداب الفرسانية

---

(١) صحيفة الديبا (Journal des Débats) ٢١ يناير ١٨٣٤ ، مقالة س . و . دى شليجل (S.W. de Sehlegel) .

للعرب »[١] . ثم يقول رينو : « بل وكان الأندلسيون العرب يشتركون فيما يخوضه المسيحيون من قتال ونزال فى كل مكان من الأرض تلوح منه أكاليل الغار »[٢] . وبديهى أن تلك الأشعار لم تنزل العرب تلك المنزلة إلا لما رآه أصحابها من جدارتهم حقاً بمطاولة الصناديد من شخصيات الأساطير . ولكن ، هل كان الشعراء يسعون — عندما رفعوا من قدر الفرسان العرب وعندما جعلوا منهم نماذج للنبل والكرم — إلى رسم صورة صادقة للمقاتل العربى ؟ أم أن ذلك لم يتجاوز من قريحتهم خيالا يهدف إلى إثارة حمية الفرسان المسيحيين وحثهم على الاقتداء ببطولات واقعية أو وهمية قام بها غرماؤهم ؟ ومهما يكن الجواب عن هذا السؤال ، فإن النتيجة واحدة ؛ وهى أن قارئ قصص الفروسية أو سامعها ، والراوية أو رب القصر الذى كانت تروى فيه ، والقوم من شريف إلى صعلوك — كانوا جميعاً مؤمنين ببسالة أعدائهم وسموهم ، وكانوا يروضون أنفسهم على أن يلحقوا بهم أو يفوقوهم فى الكرم وفى الشجاعة .

وأبلغ عبرةً من تلك الأغانى والأقاصيص ، وأوثق دلالةً من معانيها ، أمثلة المروءة التى ضربها العرب فى كل مناسبة وفى كل مكان لمعاصريهم من أهل الغرب . وأى هذه الأمثلة عسانا نذكر ؟ ومن أى عصر نسوقها . أو من أى بلد نتخيرها ؟ أمن أسبانيا (حوالى عام ٧٥٥)

---

(١) سيسموندى : فى أدب جنوبى فرنسا . الجزء الأول ، ص ٢٧٠ وما يليها .

(٢) رينو (Reinaud) : غزوات الأندلسيين فى فرنسا ، ص ٣١٤ .

حيث نشهد الوالى عبد الملك يطعن ابنه الفتى برمحه إذ رآه يتقهقر أمام جيش يفوق عدد جيشه ؟[١] . أم من موقف عبد الرحمن الثالث النبيل إذ يؤمن عدوه « سانش » أمير « ليون » حتى يتمكن من الذهاب إلى قرطبة لاستشارة الأطباء العرب .. فى حين يستضيف الملك «بطرس القاسى» ملك « قشتيلة» عام ١٣٦٠ ، أباسعيد ملك غرناطة فتعجبه جواهره التى كان يتحلى بها فيقتله غدرا وهو فى ضيافته ليستولى عليها ؟ [٢] .

أم من قبل ذلك بقرن من الزمان — عام ١٢٨٠ — ؟ حيث يتخلى عن الملك « ألفونس الحكيم » رعاياه ، ويستغيث بيعقوب ملك مراكش ، فيعبر إليه يعقوب البحر ويلتقى به فى « زارا » ؛ وفى ذلك اللقاء المشهود ، يريد الأمير القشتيلى التعس أن ينزل عن منزلة الصدارة والشرف للملك الذى أقبل لنجدته ، فيقول له يعقوب : « إن لك مجلس الشرف ما دمت مغلوباً على أمرك . . ولقد أتيتك لأعينك على تأديب عاق ، فمتى أديت هذا الواجب ، وأصبحت أنت سعيدا قويا ، نازعتك كل شىء وناصبتك العداء من جديد »[٣] .

أم عسانا نتخير تلك الأمثلة من مصر ؟ . . . فنعيد إلى الذاكرة

---

(١) لويس فياردو (L. Viardot) : تاريخ العرب والأندلسيين ، الجزء الثانى ، ص ١١٨ و ١٩٦ و ٢٧٨ .

(٢) جوستاف لوبون (G. Le Bon) : حضارة العرب ، ص ٣٨٧ وما يليها .

(٣) فلوريان (Florian) موجز تاريخى عن الأندلسيين ، ص ٧٧ انظر فى الكتاب ذاته لمحات أخرى من هذا القبيل ص ٧٦ و ٨٥ الخ .

موقف نور الدين حين امتنع عن انتهاز فرصة موت « بودوان » لاستعادة « عسقلان» قائلا : « إنى لو فعلت ذلك لأهدرت الإنسانية واستهنت بآلام شعب يبكى مولاه ، ولأخللت بشرفى الشخصى إذ أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم »[1] .

ولعلنا حين نقابل ما اقترفه « ريتشارد قلب الأسد » عندما دفعه جبنه إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا (سنة ١١٩١) — رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحريتهم[2] — بما أتاه صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس (سنة ١١٨٧) ، فلم يقنع بمنح أهل المدينة التى استردها حياتهم وحريتهم ، بل أمر بتوزيع الإعانات والهبات على المعوزين من المسيحيين ، لعلنا حين نعقد تلك المقارنة نرى مثلا واضحا لما نحن بصدده . ثم يجرنا هذا إلى الحديث عن معركة يافا وصلاح الدين يخوض غمارها ضد ريشار ، فيبصره صلاح قد فقد حصانه فيبعث إليه جوادين كريمين إذ يرى أنه لا يليق بالمحارب المغوار أن يقاتل راجلا[3] . . على أنه ما الداعى لحشد مثل تلك الأمثلة والمؤرخون جميعاً يقررون أنه « لا حاجة بأولئك الذين درسوا تاريخ الحروب الصليبية إلى أن نعرفهم

---

(١) ماران (G. Marin) : تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا . الجزء الأول ، ص ٧٨ و ٩٥ .

(٢) ماران : المرجع السابق . الجزء الثانى ، ص ٣٠٦ و ٣٠٧ . ستانلى لين بول (Stanley Lane Poole) : صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس ص ٣٠٦ .

(٣) المرجع الأخير ، ص ٣٥٣ .

أن جميع محامد الحضارة — من علو النفس والتسامح والمروءة الحقيقية والأدب — كانت فى أثناء تلك الملاحم إلى جانب العرب »[1] ؟ على أن ذلك لن يمنعنا من أن نورد فيما يلى هذه القصة الطريفة :

كان ألفونس الثامن — الذى اتخذ فيما بعد لنفسه لقب الإمبراطور — يحاصر سنة ١١٣٩ قلعة « العريجة » . وقد جمع والى قرطبة بعض الفرق لنجدة تلك الحامية ، ولكنه بدلا من أن يهاجم جيش قشتيلة الذى كان يفوق جيشه عددا ، رأى أن من الأيسر عليه أن يضطر ذلك الجيش إلى رفع الحصار باستدراجه إلى أمر آخر ؛ فدار فى حذر حول معسكر المسيحيين وأمعن السير حتّى بلغ أسوار طليطلة ، حيث كانت الملكة « بيرانجير » (Berenguea) تقبع فى عقر دارها تعوزها وسائل المقاومة . فخطر لها وهى فى تلك الضائقة أن ترسل إلى القائد العربى من يهيب به أن لو كان يريد مقاتلة المسيحيين فليذهب إليهم تحت أسوار « العريجة » حيث ينتظره زوجها ، وأما أن يشن حربا على امرأة ، فذلك ما لا يجدر بفارس باسل كريم أن يقدم عليه. ونجحت خطّتها ، واستسلم القائد العربى المدقق إزاء هذا الدفاع الغريب ، فاعتذر عن خطئه ، وود لو يحظى بتحية الملكة قبل رحيله . فطلعت عليهم « بيرانجير » وسط حاشيتها فوق الأسوار ، ومر أمامها الفرسان العرب وهم آخذون فى الرحيل وكأنهم فى مباراة . بينما كان — فى هذا الوقت نفسه ، وفى أثناء هذا

---

(١) المرجع الأخير ، ص ٣٠٧ .

الاحتفال الودى — قد استولى ألفونس على قرية العريجة »[1] .

أفليس من الحق إذن — بعد كل هذا — أن نؤكد أن العرب قد أثروا — من حيث حضارتهم وبما ضربوا من أمثلة — تأثيراً موفقا فى الروح والعواطف الفرسانية[2] . . تأثيراً كان كله من نسج دقيق رقيق أنيق ؟ . .

ومن فرط ما لاحظ الفرسان أن أولئك الذين كانوا يلقبونهم « بالكفار » — ممن كانت الكنيسة تأمر بمقاتلتهم دون هوادة — إنما هم أبطال وكرام فى معاملة الخصم ، سرت إليهم الرأفة ، وأصبحوا أشد إنسانية . وهكذا تعلم أولئك الفرسان فى مدرسة العرب أن يكونوا سمحاء كبار النفس فى مخاصمة العدو ، مسيحيا كان أو وثنيا . لقد رأوا كيف يرعى العهد أولئك « الذين لم يتلقوا المعمودية » فتعلموا أن يصونوا جميع عهودهم ، لا تلك العهود التى قطعوها رسميا وأقسموا على الوفاء بها فحسب . ورأى الفرسان لدى أعدائهم ذلك الازدراء العيوف للثروة والغنى ، ولمسوا فيضا من كرم ضيافتهم ، وجودا لم يتخيلوا مثله ، فتعلموا أن يغدقوا فى صدقاتهم وأن يسخوا فى هباتهم . ورأوا رعاية العرب لحرمة النساء[3] بل ولحرمة أقلهن شأنا — أو لم تصبح بعض الجوارى أميرات ؟ — فتعلموا

---

(١) لويس فياردو : المرجع المذكور .

(٢) فورييل : المرجع المذكور . الجزء الثالث ، ص ٤٣٣ .

(٣) سيسموندى : المرجع المذكور ، ص ٩٦ .

جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٢٨ .

الشهامة والرقة لا نحو السيدات النبيلات فحسب ، بل نحو النساء جميعاً على اختلاف طبقاتهن . وهكذا تهذبت أخلاق العصور الوسطى الجافية وتطورت عندما اتصلت بالعبقرية العربية ، فلانت ولطفت ورقت وسمحت[1] . وذلك — فى عبارة موجزة — هو أثر العرب فى الفروسية الغربية .

ويذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا — وهم فى رأينا مسرفون — إذ يؤكدون أن الفروسية برمتها — منظمة وأخلاقا — عربية الأصل . ولو ذهبنا نحن مذهبهم ، لباتت الفروسية الغربية نسخة من منظمة مماثلة كان يعتز بها العرب منذ عصور خالية ندت عن التاريخ المأثور ، وذلك موضوع جدير بالتمحيص .

---

(١) بارتيلمى سانتيلير : محمد والقرآن .

الفروسية العربية

هل كان لدى العرب فروسية على نمط الفروسية الغربية ، وبعبارة أخرى هل كانت لديهم هيئة اجتماعية منظمة ذات قواعد وقوانين وطقوس خاصة تهدف إلى غاية محددة ؟ ومتى كان قيام تلك الهيئة ؟ أكان سابقاً لتأسيس الفروسية الأوربية أم لاحقاً إياها ؟ لقد اعتمد « هامر بورجستال» فى دراسة علمية نشرتها « الصحيفة الأسيوية »[1] له فى هذا الصدد — على ذلك الأثر الذى يحيي استبسال على بن أبى طالب عقب غزوة أحد ونصه : «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » فاستدل به على أن الفروسية كانت معروفة قبل محمد[2] . وقد بنى « هامر» استدلاله هذا على ترجمته لفظة « فتى » بكلمة « فارس » . والحق أن كلمة « فتى » تعنى بطلا كبير القلب شديد البأس ، ولم تصبح مرادفة لكلمة « فارس » إلا بعد انقضاء زمان طويل ، أى نحو القرن الثانى عشر ، حينما عرف الشرق الفروسية ؛ وهكذا أخطأ « هامر » فى الصعود بالفروسية العربية إلى ما قبل القرن السابع .

---

(١) الصحيفة الأسيوية (Journal Asiatique) مجموعة سنوات١٨٤٩ — ١٨٥٥، مقالات Hammer Purgstall عن « فروسية العرب السابقة لفروسيةأوربا وأثر الأولى فى الثانية».

(٢) كانت الفروسية موجودة قبل الإسلام ، لا شك فى ذلك . ولكن هذا الاستدلال خاطىء لأن واقعة أحد كانت فى أيام النبى . (تحقيق)

ويؤرخ « فورييل » أقدم آثار الفروسية الاجتماعية والفروسية الدينية بما نجده لدى عرب الأندلس ، فهو يقول: « يرجع فرسان المعبد (Chevaliers du Temple) وفرسان « ملجأ بيت المقدس » (Hópital de Jérusalem) — وهم الذين يمكن أن يعتبروا أشد أتباع الفروسية الدينية ورعا ونظاما — إلى أوائل القرن الثانى عشر (نحو سنة ١١١٥) . وقد عرف أهل القرن السابق من عرب الأندلس هيئات من الشرطة الدينية نظمت لأداء نفس الغرض وبطريقة مماثلة ، وأطلقوا عليها اسم «الرابطين»[١]

وأما الفروسية الاجتماعية ، فمن المحقق أيضاً أنه قد كان لدى العرب منظمة ما من هذا القبيل وهى التى اتخذت فيما بعد نموذجا ولا شك»[٢].

وتعتمد حجة « فورييل » فيما يتعلق بالفروسية الدينية على ملاحظة صاغها « كوند » (Conde) فى هذه العبارات : «كانت حياة المسلمين « الرابطين » أى خفر الحدود ، حياة شظف ؛ فقد كانوا يقفون أنفسهم طواعية للتدرب المتصل على الأسلحة ، وكانوا يؤدون فرضا تعهدوا بأدائه ، هو الذود عن حدودهم ضد المقاتلين المسيحيين. لقد كانوا صفوة الفرسان ، وذوى جلد كبير وقدرة على احتمال المكاره ، وما كانوا ليركنوا إلى الفرار أبدا ، بل لقد ألزموا أنفسهم القتال والاستبسال حتى الموت دون أن يغادروا مواقعهم . ومن المحتمل أن تكون قد تشكلت على مثال هؤلاء

---

(١) فورييل تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الثالث ، ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) فورييل : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

الرابطين — فى أسبانيا وبين مسيحيي المشرق — تلك المنظمات الحربية التى اشتهرت بشجاعتها وبالخدمات التى قدمتها للمسيحية . فهناك تشابه كبير بين المنظمتين » . وفضلا عما ينبغى من عدم الاعتداد كثيرا بكلام « كوند » ، فإن هذا النص الوحيد الذى اعتمد عليه « فورييل » لا ينبئنا بشيء عن تنصيب فرسان « الرابطين » ولا عن تشكيل جماعتهم ، فلا يمكن إذن أن يقوم دليلا على أن فرسان « المعبد » و « الملجأ » قد تشكلوا على هيئة جماعة الرابطين . بل إن أقصى ما يمكن أن يدلنا عليه حديث كوند هو القول بإمكان قيام منظمات معينة فى عصور معينة لدى شعوب مختلفة كلما تشابهت الظروف .

وأما فيما يختص بالفروسية الاجتماعية فإن فورييل لا يتحدث عن وجودها إلا على أساس من الاحتمالات قائلا « لعلها وجدت ، بل لا بد أن تكون قد وجدت » . أجل ، لقد وجدت لكن فى الأخلاق والعواطف ، لا على شكل منظمة .

على أن هناك — فيما كتبه الأدباء العرب — ذكرا لفروسية منظمة ، تتضمن حفل تنصيب رسمى يقام باسم الأمير أو باسم الزعيم الدينى ، كما تتضمن ولائم وألعابا وأفراحا . وأما لباس الفارس ، أو « الفتى » ، فيتألف من قميص وسروال « هو رمز التفوق » . وتتلخص امتيازات أولئك الفتية على سواهم فى حق « إطلاق الرصاص وصيد الحمام الأصيل[1] » .

---

(١) انظر تاريخ أبى الفدا سنتى ٥٦٨ و ٦٢٣ ، تاريخ الحرب الصليبية . عهد =

أفهذه هي الفروسية العربية التي اقتدت بها الفروسية الغربية ؟ ولكنها لاترجع إلا إلى تاريخ القرن الثانى عشر ، حيث ورد ذكرها للمرة الأولى فى مقام الحديث عن الملك الناصر (١١٨٠ — ١٢٢٥) . هذا إلى أن عادة « شرب نخب الخليفة فى كأس الفروسية[١] » عند تنصيب الفارس الجديد ، تقليد ينم عن أصل أوربى للمنظمة ؛ فقد كانوا فى الشرق لا يشربون إلا الماء ، ويشربونه بطريقة أقل احتفاء و رمزا . . . صحيح أن المؤرخين العرب فى العصور الوسطى يرجعون بأسس فروسيتهم إلى الخليفة على بن أبى طالب ؛ إذ نقرأ فى « عمدة الطالب » أن امتياز منح مرتبة الفروسية قد انتقل رأساً من الخليفة على إلى « سلمان الفارسى » ، ومن بعده ، خلال آخرين ، إلى « أبى مسلم » وهكذا . . . وكانت الرسائل التى يوجهها السلاطين إلى الأمراء الأجانب تشير إلى ذلك الأصل الرفيع ، فى مثل قولهم « من السلطان الذى ورث عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب شرف الفروسية ومجد النسب العريق ... »[٢] ولكن لا ينبغى

= الناصر لدين الله . وراجع عدة مؤلفين ذكرهم « دوزى » ، قاموس أسماء الملابس عند العرب ص ٣٩٩ ولكاترمير (Quatremère) ترجمة المقريزى ، التعليقات الواردة ص ٥٨ ، ٥٩ .

(١) راجع مقالات « بورجستال » المذكورة .

(٢) انظر فى ترجمة كاترمير للمقريزى التعليقات الواردة فى ص ٥٨ . ويذكر « مفضل بن أبى الفضائل » ان امتياز منح الفروسية قد انتقل من على إلى سلمان الفارسى إلى على التورنى إلى الحافظ الكندى إلى « عوف الغسانى إلى أبى الإزان النقيب إلى أبى مسلم الخراسانى إلى هلال النبهانى إلى جشم الفزارى ، إلى الأمير حسن ، إلى أبى الفضل القرشى ، =

أن نفسر هذه الإشارة بأكثر من رغبة المعاصرين ورغبة خلفهم فى أن يحيطوا تلك المنظمة الجديدة بهالة من الجلال والعظمة ، فإن نسبتها إلى أصل قديم إسلامى مجيد إنما يضفى عليها فى أعين الجميع قدراً أسمى ومظهراً أبهى . إلا أننا فى الواقع لا نجد وثيقة واحدة — فيما نعلم — تذكر منظمة للفروسية قبل القرن الثانى عشر . ولسنا نقف فى كتابات الشعراء والناثرين القدامى على أى أثر لمنظمة فرسانية ما ، ولو قد وجدت — ولو زمنا يسيرا — لكانت خليقة بأن تجتذب انتباههم وأن تغذى إنتاجهم الأدبى.

على أننا ينبغى أن نلاحظ أن الصوفيين — لنحو مائة عام[1] قبل تأسيس الفروسية العربية — قد درجوا على استخدام لفظى « الفتى » و « الفتوة » فى كتاباتهم ، لا بمعنى « المقاتل » فقط — وهو المعنى الجارى حتى ذلك الحين — ولا بالمعنى الفرسانى أيضاً — وهو الذى أضافه الملك الناصر إلى لفظ « الفتوة » — بل بمعنى آخر . يقول محيى الدين بن العربى[2]

إلى قائد شبل أبى المكارم ، إلى فضل الرقاشى ، إلى أبى الحسان نجار ، إلى الملك أبى القالنجار ، إلى روزبة الفارسى . . . إلى المعز . . . إلى عبد الجبار ، إلى الخليفة الناصر » .

راجع فى Patrologia Orientalis ، الجزء الثالث ، تاريخ السلاطين المماليك لمفضل ابن أبى الفضائل ، النص العربى الذى نشره وترجمه إلى الفرنسية إ . بلوشيه (E. Blochet) ص ٤٢٦ و ٤٢٧ .

(١) انظر فى كشف الظنون : كتاب الفتوة للشيخ عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٣ وفضل الفتيان الخ .

(٢) محيى الدين بن العربى : الفتوة المكية . مخطوط بدار الكتب بباريس رقم ١٣٣٦ الفصل ٤٢ ، ورقة ٧٨ « فى معرفة الفتوة والفتيان » .

(٥٦٠ — ٦٣٨ هـ .) إن « الفتوة » من عمر الإنسان هى الفترة الواقعة بين الثامنة عشرة والأربعين ، وفيها تكتمل قوة المرء وصفاته الكريمة ، وإن « الفتى » يستخدم قوته فى سبيل الله وفى نصرة الضعيف ، عافياً عن أعدائه ، موفيا بعهوده ، زاهداً فيما قد يكون له من حقوق خاصة ، وإنه لرجل يكثر حساده ولكن لا يعاديه أحد . . ولقد كان « إبراهيم » فتى ، فما تردد فى تحطيم الأصنام ليقوض الباطل ويقيم الحق .

ولسنا نتصدى هنا لشرح مذهب الصوفية ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن المتصوفة المسلمين قد أنشأوا منذ القرن الحادى عشر هيئة ذات قواعد صارمة وزى خاص هو رداء من صوف — ومنه كان تلقيبهم بالصوفية — أسموه « لباس الفتوة » .

ولقد أورد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .) ما قيل عن أصل الفتوة وما يرمز إليه لباس الصوفية ، فيما أثبته من أن الصادقين قالوا إن الفتوة شعاعة من النبوة واستدل على ذلك بحديث أسند للنبى صلى الله عليه وسلم نحيل القارئ عليه فى كتاب الغزالى[1] .

ومن المحتمل أن يكون مستشارو الناصر قد طبقوا هذا المذهب على

---

(١) الغزالى : انظر المخطوطة رقم ١٣٣١ بدار الكتب بباريس ، ظهر الورقة رقم ١٧٧ .والغزالى اسم كاتبين أخوين صوفيين ، أشهرهما الأكبر محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ ، وأما أصغرهما فقد توفى سنة ٥٢٠ ، وقد يكون الكتاب المذكور من مؤلفات أحمد ، ما لم يكن منحولا .

هيئة الفرسان ؛ فقد استعاروا على أى حال من الصوفية لفظى « الفتى » و « الفتوة » وفكرة الكساء الرمزى « لباس الفتوة » ، والقائمة التاريخية لأصحاب « الفتوة » . وتنم هذه الاستعارات عن إرادة معقودة على إحداث خلط بين جماعة دينية قديمة قد ذاع صيتها ، وبين منظمة حربية حديثة كانت نقيصتها الأصلية أنها منقولة عن مثال أجنبي . لذلك يجب أن نحذر من الاعتماد على كتابات الصوفيين — وهى ذات غرض آخر — فى البحث عن أصل للفروسية العربية أقدم من عصر الملك الناصر . وما كان لنظام الفروسية العربية أن يصبح مثالا للفروسية الأوربية ، لأنه لا يرجع على وجه التأكيد إلا إلى أواخر القرن الثانى عشر .

ونعتقد أن العرب لم يستطيعوا وما كانوا ليستطيعوا أن ينشئوا من تلقاء أنفسهم منظمة للفروسية . وفيم إنشاء فروسية دينية والإسلام نفسه يمكن اعتباره حكومة إلهية واسعة ، ومنظمة للفروسية شامخة ، على رأسها سيد كبير هو الخليفة ، وتحت إمرته ألوف من الفرسان يقاتلون فى سبيل الله وإعلاء كلمته[1] ؟ وفيم إنشاء فروسية اجتماعية ؟ ألم يكن العرب فرسانا على السليقة ؟ وكيف يمكن أن نتصور وجود منظمة ذات امتيازات لديهم ونحن نعلم أن العرب كانوا ينكرون الفروق الاجتماعية ولم يعرفوا يوما الامتيازات أو الألقاب ؟ لقد منعهم حرصهم على حريتهم من سن قانون يشكل الحياة ويخضعون له ؛ وكان رجال القبيلة الواحدة « إخوة » ،

(١) انظر فرنسيس شارم (F. Charmes) : الجامعة الإسلامية ص ١٥٤ .

فما حاجتهم بعد ذلك إلى الارتباط بعهود ومراسيم دينية ؟

على أن ذلك لا يعنى أن الأحلاف لم تعرض فى حياة العرب ، بل كانت توجد لسبب خاص ولزمن محدد ، وآية ذلك حلف الفضول وخلاصته « أن هاشما وزهرة وتيما دخلوا على عبد الله بن جدعان فتحالفوا بينهم على دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم فلا يتركون عنا، أحدا فضلا يظلمه أحدا إلا أخذوه له منه » [1] وكان ذلك فى عام ٥٨٠ .

ومهما تكن مروءة الغرض الذى ابتغاه « حلف الفضول » ، فإنه لا سبيل إلى مقارنة جماعته بمنظمات الفروسية ، ولا إلى إطلاق نعت الفرسان — فضلا عن ذلك — على أتباع تلك المذاهب وتلك الجمعيات السرية التى انتشرت منذ أوائل عصر الإسلام ومزجت بين أطماع السياسة وتعاليم الدين.

وعلى ذلك فإنه يصبح من المقرر إذن أن الفروسية العربية لم تتخذ — قبل القرن الثانى عشر — شكل منظمة ، كالفروسية الأوربية ؛ وإن كانت موجودة بالفعل فى أخلاق القوم منذ أقدم العصور . لقد سبقت المنظمة الأخلاق فى أوربا ، على حين لم تظهر المنظمة لدى العرب إلا متأخرة ، وذلك عندما أخذت عواطف المروءة فى الضعف . ويبدو أن تبادلا فى الأفكار والعواطف قد تم فى القرن الثانى عشر بين الشرق والغرب : فقدم الغرب الهيكل أى النظام الذى كان خليقاً بأن يسند

(١) الفيروز أبادى : القاموس المحيط ج ٤ ص ٣١ .

تقاليد العرب النبيلة ، وقدم الشرق مقابل ذلك حضارة مرهفة ، وفهما عميقا رقيقا للفضيلة ، فأزهرت بذلك أبهة الفروسية الأوربية .

* * *

والآن فلنحاول الكشف عن أصل فروسية العرب ومنبع مروءة البدو . وسنجد أن ذلك هو طبيعة البيئة وفطرة القوم . لقد ألحت على العربى حاجات العيش فى بيئة شديدة الجدب فدفعته إلى النشاط والبراعة والجرأة . ولم تسد الروح الحربية مكانا كما سادت بلاد العرب ، لأن الحرب — بما تتيحه من غنيمة — كانت صناعة البدوى الوحيدة . ولم يكن للعربى أن يعتمد إلا على نفسه ، فأحس بقوته واشتد إحساسه بكرامة الإنسان . وإذ كان لا يعيش فى يومه إلا ليومه ، من الصيد ، والسلب ، ونتاج إبله القليلة ، فقد اعتاد أن يستخف بالثروة ، وأن يجود بكل ما يملك — ولا سيما وهو يعرف أيضاً أن كل ما يملكه معرض لأن تسلبه إياه يد ناهبة . ولم يكن ثمة ما يشتت عاطفته ، فركزها بتمامها — كما ركز أطماعه — حول نفسه وحول عائلته وحول حصانه وأسلحته . وهكذا كانت ثروة العربى هى شهرته وعائلته وحصانه وأسلحته .

أما عائلته فقد كان من واجبه أن يسهر عليها ، وأن يغسل بالدم أى عار يلحق بواحد من أبنائها أو أبناء عشيرته ، فإذا قضى وهو يؤدى ذلك الواجب ، انبرت سلالته — ولدا بعد ولد — لا تغمد سيفها حتى

تثأر لدمه ويعلن الموتى رضاءهم[1] .

وأما أسلحته فإنها لم تكن لديه وسيلة عيش وضمان حق فحسب ، بل لقد كانت إلى جانب ذلك أيضاً أداة زينة ومتعة ؛ فهو ينتشى باستخدامها فى ساحة القتال وغمار المعارك ، ويتغنى بحب الرماح الطويلة المرنة والسنان اللامعة الناهلة :

« كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا »

ولقد أحب العربى جواده بوجه خاص ، فدربه وهذبه وعلمه ، واتخذ منه رفيقا وفيا وصديقاً ذكياً .

ولما كان النضال من أجل الحياة يدفع العربى إلى تحسين أدواته وأسلحته وجياده ، فقد دفعه ذلك بطبيعة الحال إلى تحسين نفسه ، فحرص على أن يكون جديرا بما يقتنى من أسلحة كما تكون أسلحته جديرة به ، وأن يكون أهلا للجواد الكريم الذى يمتطيه . ومن هنا ساد الاتساق بين الجواد والأسلحة والفارس ، وغدا الجواد الكامل والأسلحة الكاملة وقفا على « الفارس » ، أى الرجل الكامل ، لأن الكمال يستدعى الكمال .

ولما كان العرب جميعا متساوين ، فقد سعوا كلهم إلى التميز والتفرد بوفرة فضائلهم وتنوع مآثرهم ، وإلى أن يتفوق بعضهم على بعض بما يخلد مناقبهم ومفاخرهم . وانتهوا إلى توجيه جهودهم نحو غرض واحد ، وإلى

---

(١) كان العرب يعتقدون أن الرجل إذا قتل ولم يثأر له ، خرج من رأسه نوع من البوم لا يمسك عن الصياح على قبره « اسقونى » حتى يثأر له أهله (شهاب الدين الأبشيشى) .

استخدام طاقتهم فى سبيل غاية واحدة ، وإلى تركيز مطامعهم فى هدف واحد ألا وهو « حسن الذكر » عن طريق أفعال جليلة — لا تضارع — فى ميدان الخير . يقول المؤرخ الصفدى : « لم يكن للعرب من دواعى الفخر إلا السيف والقرى والفصاحة » ؛ فكان أن جرت فى بلاد العرب شبه مباراة لا آخر لها فى ميدان المروءة ، وعلو الهمة ، والكرم الخيالى . وتحت أنظار « الفتيات » — فارسات البادية الحسناوات — وتحت أنظار الشعراء العارفين بجمال الجرس والصادحين بقصائد الفخر ، انطلق الفرسان العرب طوال عدة قرون إلى ساحات البطولة . ولقد كانوا يهبون فى وقت واحد لصولة السلاح وجولة المروءة ، للتحدى فى السباق وفصاحة اللسان ، والمفاخرة بشرف الحسب والنسب ووقائع الجود والبذل . وكانت تلك المواقف تؤثر فى الحاضر والمستقبل ، فى الأحياء والأموات ؛ لأن فوز المتبارى كان ينعكس على قبيلته بأسرها مجدا خالدا ، كما يلحق هوان الهزيمة كل من ينتمى إليه .

لقد كان العرب جميعاً شعبا من الشعراء والمقاتلين ، وقد قسموا حياتهم إلى شطرين : فشطر للحرب ، وآخر للتجارة والصراع السلمى فكراً وشعراً . ومن تلقاء أنفسهم ، ودون تدخل أى سلطة — فما كانوا ليعترفوا بسلطة قط سوى سلطة ما ينطقون به من كلام — اتفق أفراد تلك القبائل الهائمة على وقف القتال فيما بينهم ، وقيام هدنة تدوم أربعة أشهر

فى السنة[1] . ولم تكن بهم من حاجة – فى سبيل المحافظة على هذا العهد الذى قطعه الجميع من أجل الصالح العام – إلى التهديد بالحرمان من كنيسة ، أو إلى حرس خاص كما حدث عند فرض « هدنة الرب »[2] . وفى أثناء تلك الهدنة – التى يمتنعون فيها عن الاعتداء أو طلب الثأر – كانت تنعقد كل عام ولمدة شهر ، سوق عكاظ المعروفة ، يهرع العرب إليها من كل حدب وصوب ويلتقى فيها السادة والتجار والشعراء كأنهم فى مباراة تتناظر فيها الثروة والفضائل وبعد الصيت وجودة الشعر ، وثمة رجال ما زالت تنزف جراحهم ، ورجال يريدون ثأراً أو يخشون ثأراً ، يفرضون الصمت على بغضائهم[3] . وكانوا يضعون أسلحتهم ، حين

---

(١) اعتمد المؤلف على ما جاء فى كتاب كوسان دى برسفال : مقالات فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، من أن الهدنة كانت لدى عرب الجاهلية أربعة أشهر يقفون فيها الأعمال العدائية مما أدى إلى تأمين التجارة فى تلك الفترة وحال دون تفانى بعض القبائل. والصحيح أن الهدنة كانت فى العصر الجاهلى شهراً واحداً وهو المحرم ، وقد جعلها الإسلام أربعة أشهر وأضاف إلى المحرم رجب وشعبان ورمضان . سورة التوبة ، ٣٥ : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم » . (المترجم)

(٢) وقد ذهب « مجمع تولونج سنة ١٠٤١ » إلى أبعد من ذلك إذ فرض وقف القتال فى أثناء الأعياد وأيام الآحاد والصوم وفى النصف الثانى من كل أسبوع . . . ولتنفيذ قرارات المجامع أنشىء فى القرن الحادى عشر جمعية للسلام فى كل منطقة يرأسها الأسقف ، وكان لها صندوقها ومحكمتها بل وجيش السلام التابع لها (لافيس الجزء الثانى ص ٥٥) .

(٣) فرسنل : رسالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣١ – ٣٣ .

وصولهم لدى الحكم المنوط به حفظ تلك الودائع النفيسة الخطرة ، ويفرغون زمنا لأنس السلام ومباهجه .

وهنالك كانوا يستبدلون بالذهب والمر والمسك والبخور : الجلد المصنوع ، والسروج المحكمة ، والأقمشة الثمينة ، والدروع أو الجياد الكريمة ؛ وهنالك كانت تشيع الطرف المبتكرة وتذيع الأغانى وتصفو اللغة .

ولقد كانت تضرب فى هذا السوق خيمة عظيمة يتصدرها أعظم الشعراء منزلة ويجلس فيها من الشعراء مجلس القاضى المتصرف ؛ ينصت إلى أشعارهم ويصدر حكمه فيها . ومن ثم تنقش أجود القصائد على نسج رقيق من القنب أو البردى وتعلق على أستار الكعبة المقدسة .

وهنالك أيضاً كان يأتى المرء ساعياً وراء ما يخلد ذكره ، فيعلن المبرزون على الملأ مآثرهم أو يستعينون فى ذلك بشعراء يجزلون لهم العطاء ، فمن قائل يردد : « أعلن أن فلانا هو أشجع أو أسخى أو أعظم العرب » فينبرى له آخر قائلا : « بل إن فلانا يفوقه فصاحة وحكمة » . . . وهكذا يتجادلون ، كل يدعم قوله بالأدلة ، والجمهور يصدر حكمه مسترشدا بتلك الأمثلة الكريمة التى تضرب أمامه .

وهكذا ولدت المروءة فى صحارى العرب وعظم فيها السمو الخلقى . .

أوليست تلك هى خلاصة الفروسية ؟ أفليست الفروسية انطلاقا صوب المثل الأعلى وسباقا كريما نحو الكمال ؟ . . .

على أن هذه الفروسية العربية لم تكن مزية مقصورة على طبقة أو طائفة

دون أخرى ، بل كانت هى أسلوب الحياة الذى عم شعباً بأسره . ولم يطلع بها عليهم دين ، ولم يأمر باتباعها سلطان ، أو يوضع لرعايتها قانون ، ولكن ميلا طبيعيا إلى الخير هو الذى يكفل لها أن تتبوأ قلوب القوم .

وإن هدف هذا الكتاب هو تعريف الجمهور بأخلاق العرب . فمن الخسارة إذن ، وقد أخذت الشعوب تسعى إلى أن يتصل بعضها ببعض وأن يفهم بعضها بعضاً ، أن تظل فعال العرب ومروءتهم مجهولة لدى السواد الأعظم . أليست تلك العواطف النبيلة المرهفة التى تفتحت فى الشرق إبان أقدم العصور إنما تنتمي إلى الإنسانية ؟[١] أولا يزال الرجل الفاضل يحس بارتياح حقيقى عندما يلاحظ ــ فى جميع الأزمنة وفى جميع البلاد ــ أن الشر فى صراعه ضد الخير ، لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة دائماً ، وأن الأثرة والخسة فى كل مكان قد نافحهما الإيثار وروح التضحية ؟

---

(١) ليس أبناء آدم إلا أسرة واحدة تسعى إلى نفس الغرض . وإن الأحداث التى عرضت لأمم تناءت عنا فى المكان والزمان ــ هذه الأحداث التى ما كانت فى الماضى لتوقظ فينا غير غريزة حب الاستطلاع ، إنما تهمنا اليوم كأنما هى اشياء تخصنا وقد ألمت بأجدادنا . ولقد كان تعرض شعب للفناء عملا مجيداً من أجل تحقيق حرية لنا ، أو حقيقة أو رأى أو كشف ، وكان تعرض فرد لمعاناة كل الآلام عملا مجيداً أيضاً من أجل إضافة ولو مثقال ذرة من ذهب الخير الإنسانية عامة . (شاتوبريان : دراسات تاريخية) .

الحسب وتعظيم الآباء

يقول شاتوبريان : « يمكننا أن نتمثل الأنفة التى طبع بها نظام الإقطاع النفوس ، فى أن أصغر إقطاعى كان يعتبر نفسه فى مرتبة الملوك . ولقد حدث مثلا أن مرّ الإمبراطور فردريك وهو يجتاز مدينة « تونج » بالبارون « كروكنجن » فلم يقف البارون لتحيته ، بل اكتفى بتحريك قبعته تعبيراً عن ترحيبه ؛ فلقد كانت طبقة الأرستقراطيين تكبت الحريات العامة وتعادى فى الوقت نفسه السلطان الشرعى[1] » . . .

ولم يكن فى بلاد العرب نظام إقطاعى ؛ فلا « دوق » ولا « ماركيز » . وإنما كان كل عربى فى خيمته سيدا كامل السيادة ، يحسب نفسه — مهما كان فقيرا معدما — نداً لأغنى الأغنياء وأقوى الأقوياء. لقد كانوا جميعاً أحراراً ، شجعانا ، فباتوا متساوين لا يعترفون بمولى عليهم سوى رب الكون . حقاً لقد كان لكل قبيلة رئيس تعتز به ، قد فرضته فضائله وحدها وانتخبه أهلها . ولكن هذا الرئيس لم يكن يتمتع إلا بنفوذ نسبى ؛ فقد كان أفراد القبيلة يوقرونه ، ويجتمعون لديه للتشاور ، وكثيراً ما كانوا يأخذون بآرائه السديدة ، ولكنه ما كان ليستطيع أن يصدر أمراً . ولقد كان لقبه فى الواقع لقباً فخرياً ، ورمزاً للتقدير ، وثناء عاما على أعظم

---

(١) شاتوبريان : تحليل وشرح لتاريخ فرنسا (الإقطاع ، الفروسية الخ) ص ٨٢ .

القوم حكمة وشجاعة وأكرمهم ضيافة وأفصحهم لسانا . وينبئنا الجاحظ[١] أن قبيلة « نذار » كانت تنتخب أحكمها وأن « ربيعة » كانت تختار أجودها ، وأن اليمن كانت تصطفى أعرقها ، غير أنه كان لا بد من تحقق ست صفات فى طالب الرئاسة أينما كان ، وهى : الجود والبطولة الحربية والجلد والحلم والتواضع والفصاحة . وقد سئل قيس بن عاصم : كيف وصلت إلى حكم قبيلتك ؟ « فأجاب : بإذاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وفض المنازعات » ثم أضاف قائلا : « ويبلغ الرجل المكان المرموق بالذكاء والعفة والأدب والمعرفة » .

وجملة القول ، فإن رئيس القبيلة إذ ذاك كان بمثابة الملك الدستورى ، ولكن بلا امتيازات أو مخصصات ، وكان عليه — للحصول على السلطان فى قبيلته — أن يظل مفتوح الدار ، رقيق القول ، جم الحسنات ، لا يسأل سواه شيئا ، يحب الصغار كما يحب الكبار ، ويعامل جميع الرجال على حد سواء[٢] . يقول أعرابى قديم : إننا لا نمنح شرف الرئاسة امرءاً ما لم يعطنا جميع ما يقتنى ، ويأذن لنا أن نطأ بأقدامنا كل ما هو عزيز لديه ، وكل ما يود أن يراه مشرّفا ، وما لم يؤد لنا ما يؤدى العبد لسيده[٣] .

---

(١) كتاب شرعة المروءة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب . طبعة وترجمة مينار وكورتى (Barbier de Meynard et Pavet de Courteille) ، باريس ١٨٦١–١٨٧٧ . الجزء الخامس ص ١٠٦ .

(٣) عن د وزى : تاريخ مسلمى أسبانيا من ٧١١ إلى ١١١٠ . ليد ، ١٨٦١ .

وليس الإسلام فى جملته إلا جمهورية استفتائية يتولاها رئيس تنتخبه الجماعة .

وقد حرص خلفاء محمد الأوائل – رغم أن الخليفة كان يجمع فى شخصه السلطتين الدينية والدنيوية – على أن يستشيروا مواطنيهم وأن يتبعوا رأيهم . وهذا هو أبوبكر يقول فى خطبة له يوم بويع بالخلافة : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » . كما يعلن عمر ابن الخطاب من فوق المنبر قوله : « يا قوم ، من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه » ، فيرد عليه أعرابى قائلا : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فيقول عمر : « الحمد لله أن جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر » .

وفيما بعد ، حين صارت الخلافة وراثية ، لم يكن الخليفة يصبح حاكما شرعيا حتى ينادى به الشعب ويعترف بسلطانه . والواقع أنه لما كان العرب جميعا يعيشون حياة الرعاة البسيطة ، ويلبسون نفس الملابس ، ويتناولون نفس الغذاء ، فقد كانوا لا يقرون ، بل لا يتصورون وقوع التفرقة بينهم فى العلاقات الاجتماعية . ولم يكن ثمة ما يميز عربيا من عربى آخر ؛ فالثروة لم تكن تمثل فى أعينهم امتيازا ، بل كانت تلزم صاحبها أن يسمو ويهب . ولقد كان المثل الأعلى للفارس أن يستهين بالمال ، وأن يعيش فى يومه ليومه من الغنائم التى جمعها بشجاعته بعد

أن قد أتلف تراثه جودا وإحسانا[١] . ثم لقد كان كل شيء فى حياة البدوى معرضا لأن يروح ضحية هجوم خاطف ، ولذا كان ينبغى أن نعى حرفية هذه الحكمة التى كثيراً ما ترد فى مدائح الشعراء المعوزين :
« المال يقبل صباحا ويولى مساء »[٢] .

ولم يكن النسب وحده شرفا ، فما كان ليخلع على صاحبه أى امتياز. وما قيمة النسب العريق وما جدواه فى ساعة الخطر ساعة :

... ... إذا طرقت إحدى الليالى بداهية
بداهية يصغى الكلاب حسيسها وتخرج من سر النجى علانية[٣]

أجل ، لقد كان البأس والإقدام هما عدة أولئك المقاتلين المتربصين دائما . على أننا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن قط لدى المسلمين المستقرين ــ كما لم يكن لدى البدو ــ أرستقراطية بمعناها المعروف ، أى طبقة ثابتة خاصة ، فمبادئ المساواة من ناحية وتعدد الزوجات من ناحية أخرى قد حالا دون قيام « أرستقراطية » كالتى قامت لدى معظم الشعوب

---

(١) كوسان دى برسفال : بحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام . باريس ١٨٤٦ ، الجزء الثانى ، ص ٥٥٥ و ٦١١ .
(٢) حاتم الطائى .
(٣) الخنساء (ص ٨١ عائشة عبد الرحمن) .

المسيحية[١] . وهكذا كان شرف المولد اعتبارا قليل السطوة فى الشرق . ولا يعنى ذلك أن القوم لم يكونوا يجلون ذكرى عظماء الرجال أو أن هذا الإجلال لم يكن يعود على خلفهم بالتقدير والود ، بل إنه كان إلى جانب ذلك ، يعتبر هذا التقدير وهذا الود قرضا وعلى من يقترضه أن يرده أعمالا حميدة مجيدة . يقول شاعرهم :

لسنا وإن كرمت أوائلنـــا يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنـــا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا[٢]

وأبسط منه قول المثل الفرنسى فى نفس المعنى : « دم كريم لايستطيع أن يكذب » . وكانت تلك هى الفكرة الأولى للأرستقراطية الحقيقية فى أوربا ، وفى فرنسا بوجه خاص . ولقد بين ذلك الأستاذان « دوفرنوا وهارمان » فأحسنا البيان ، فى كتابهما « مباراة شوفنسى سنة ١٢٥٨ » إذ قالا : « إن نبل الأصل ينبغى أن ينم عنه مجرد روح السيد واستعداده النفسى ، لأن سمو عواطف القلب يعطى الود ، والأصل يمنح النبل ، ورفعة المشاعر (أو فلنقل : النزوع إلى المثل الأعلى) يورثها الوالد الولد . وكل هذه فضائل يكمل بعضها بعضا ، وتتصل وشائج بعضها

---

(١) انظر جارسان دى تاسى (Garcin de Tassy) : « أعلام وألقاب إسلامية » مقالة فى « الصحيفة الأسيوية » عدد مايو — يونية ١٨٥٤ ص ٤٢٢ .

(٢) المسعودى ، الجزء الثالث ، ص ١١٢ .

ببعض[٦]، وتؤلف وحدة جامعة لا تنفصم عراها [١]»

وإليكم ما قاله فى هذا المقام شعراؤنا :

يقول المتنبي :

لا بقومى شرفت بل شرفـوا بى   وبنفسى فخرت لا بجـدودى
وبهم فخـر كل من نطق الضا   د وعوذ الجانى وغوث الطريد

ويقول الفرزدق :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   إذا جمعتنا ياجرير المحافل

ويقول النابغة الجعدى :

بلغنـا السماء مجدنا وجـدودنا   وإنا لنرجـو فوق ذلك مظهرا

ويقول عامر بن الطفيل :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر   وفى السرّ منها والصريح المهذب
فما سودتنى عامر عن وراثـة   أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى   أذاها وأرمى من رماها بمقنب

(١) H. Duvernoy et Harmand : Tournoi de Chauvency en 1285. Paris, 1905. p. 42.

وإذا عمد الشعراء إلى المديح ، فهم إنما يمدحون فضل الأعمال أكثر مما يمدحون شرف المحتد مهما كان عريقا . وهكذا حينما أشاد الشاعر بابن عبد مناف ، فإنه لم يمدحه بنسبه — وهو الشريف الرفيع — بل مدحه بعمله قائلا :

عمرو الذى هشم الثر يـــد لقومه   ورجـــال مكة مسنتون ، عجاف

فلم يكن لدى العرب إذن أرستقراطية ثروة ، ولا أرستقراطية نسب ، بل كان لديهم أرستقراطية فردية شخصية مؤقتة تخلعها على المرء بطولته وفصاحته ومآثره . وذلك شرف مكمل لتلك الأرستقراطية العامة المجيدة التى تخلعها على المرء صفة العروبة وحدها .

ولقد شاع فى فرنسا الاعتقاد بأن الأمة الفرنسية تنحدر بجملتها من « الفرنك » ولكن إلى من ينسب هؤلاء « الفرنك » ؟ لقد تردد أنهم رفاق « إينيه » أو سواهم ممن نجوا من واقعة « طروادة » . وذلك رأى غريب يستمد شكله من ملحمة « فرجيل » وموضوعه من مصدر آخر ، ويتصل بذكريات مختلطة ترجع إلى الزمن الذى هاجرت فيه قبائل الجنس الجرمانى البدائية من آسيا إلى أوروبا عن طريق ضفاف « البونتوكسان » . ومع ذلك ، فقد أجمعت الآراء على هذا القول ، وشاطر الكهنة وأكثر الرهبان ثقافة — ممن كانوا يستطيعون قراءة « جريجوار دى تور » وكتب القدماء — شاطروا الشعب اعتقاده ، وحيوا « فرانسيون بن هكتور » مؤسسا للأمة الفرنسية

وأول ملك عليها[١] .

وأما العرب فما كانوا ليقنعوا بنسب خرافى فضلا عن أنه حديث العهد . . فقد انتسبوا إلى إسماعيل ابن العاهل إبراهيم خليل الله ، وأرسوا هذا الأصل البعيد على أدلة لا تدحض بل لميكن القول عنها : إنها أدلة علمية ؛ إذ أن المشتغلين باستقصاء النسب عندهم كانوا من العلماء ، وظلت الأنساب علم العلوم لديهم زمنا طويلا . ولما كان العرب جميعا أبناء إسماعيل ، فقد اعتبروا أنفسهم بحق أشرف شعوب الأرض طراً وأعلنوا ذلك على الورى وألفوا ديمقراطية شريفة . فالجميع فى بلاد العرب شرفاء، ولكل قبيلة نسبها ، وأمثالها ، وأيامها المجيدة ، وشعراؤها ، وأبطالها ؛ فإذا اعتبرت قبيلة أشرف من الأخرى فما ذلك إلا لأنها ترجع فى درجات النسب إلى طبقة أقرب إلى الأصل ، وتنحدر انحدارا مباشرا من الجد الأعلى ، إسماعيل أو قحطان . فكان ذلك هو فخر الجنس . . فخراً جماعيا لا يقتصر على أسرة واحدة ، بل يشمل قبيلة بأسرها . ولقد كان المرء يفتخر بقبيلته قبل أن يفتخر بعائلته ، وكانت أمجاد كل أسرة على حدة تؤلف تراثاً يعود على المجموع ، ويزيد ويقوى من جيل إلى جيل ذخر المآثر والمحامد . وهكذا كانت القبيلة هى المركز الرئيسى الذى ينتمى إليه كل أبنائها ومنه يستمدون المجد سواء فى ذلك أهونهم شأنا وأعظمهم قدرا .

---

(١) أوجوستان تييرى : قصص عن عهود الميروفنجيين ، ص ١٧ .

ولن يستطيع تعبير أن يصف ما كان يربط العربى بقبيلته من ولاء وعاطفة ووفاء وتعظيم : ولاء مطلق ، وعاطفة لا تتزعزع ، ووفاء لم تصنعه الإرادة ولا يقف عند حد ، وتعظيم كالتقديس . . شعور أعمق من الوطنية ، وحمية أقوى من العقيدة ، تحفز إلى المخاطر ، إلى الحروب ، إلى جميع بطولات العرب ؛ فالعربى ، من أجل قبيلته ، على أهبة لكل تضحية ، لا يتردد ولا يفكر ، بل هو يعرض فى كل لحظة حياته للهلاك من أجلها ويقدم على المغامرات الجنونية متى كان لقومه فيها منفعة وسعادة ومجد وشرف .

قال أحد الخلفاء : « أكرم قبيلتك، فإنها الجناح الذى يرفعك ، وبها تستطيع أن تكبر وتسود . وأهلك درع لك ضد الخصوم ، فأكرم شرفاء الرجال ، وعد المرضى ، وأسعف المنكوبين ، وشاطر الجميع أفراحك وآلامك » .

وكان الجميع متحابين إذ يحبون وطنهم الصغير ، وكانوا يتعاونون ويشعرون فيما بينهم بسعادة كل منهم أو شقائه ، فهم يشيدون بمناقب هذا ويهرعون إلى إغاثة ذاك ، ويتأثرون جميعاً لإهانة لحقت بأهونهم . ولقد كانوا يؤلفون فيما بينهم ما يشبه جماعة عاملة طهرت من كل خسة ، وغرست فيها وتفتحت أجمل أزهار التضامن والحب .

لقد كانوا فى الواقع يؤلفون أسرة واحدة متآلفة يتنادى فيها الأتراب من الرجال والفتيات متعاطفين بقولهم : يا ابن العم أو يا ابنة عمى ،

أو يا أختاه . . . أما الشيوخ فقد كان الجميع يجلونهم ، ويخاطبونهم بيا « عمي » أو « أبي » . وفى تلك الجماعة التى كانت تطبق — فى دائرة محدودة تطبيقا مطلقا — قول المسيح : « أحبوا بعضكم بعضا » ، كان الكل يعملون من أجل خير المجموع ومن أجل خير كل فرد . وكانت القبيلة تشبه خلية النحل لكل امرئ فيها مهمته المعينة: فالشاعر يتغنى بمآثر أهله وبطولاتهم ، وعلماء الأنساب يحفظون فى ذاكرتهم موكب الجدود ، والصناع ينسجون أقمشة يتفننون فى تزيينها لتكون خير كساء ، ويصوغون أسلحة يجيدون شحذها لتصبح خير سلاح ، والنساء يصنعن الرجال ، والرجال يفوقون الأسود قوة وشجاعة .

وفى داخل هذه الأرستقراطية الجماعية — أرستقراطية القبيلة — نهضت أرستقراطية أخرى هى أرستقراطية الأسرات .

ففى الإسلام أصبح الشرف يقدر من وجهة نظر دينية خالصة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[١] .

ومنذ ذلك الحين اقتصر الشرف على سلالة النبى وسلالة الصحابة أى أوائل من اعتنقوا الإسلام ، فالشريعة الإلهية هى التى تخلع على الإنسان أعظم الشرف .

وأخيراً وفى نطاق شرف الأسرة ، كانت تسطع أرستقراطية الأفضل

(١) سورة الحجرات الآية (١٢) .

أو سيادته ، أى الجدارة الشخصية الفردية . أجل ، لقد كان الجنس شريفا نقيا ، وكان العربى صحيح العروبة ومن قبيلة مجيدة ، وكان ينتمى إلى أسرة شهيرة بالفضل من عهد بعيد ، ولكن ذلك كله ما كان يغنيه ، بل كان على كل رجل بدوره — معتمدا على فضائله وحدها — أن يكتسب ويغتصب تقدير أهله واحترامهم ومحبتهم وإعجابهم . . . كان عليه أن يمتاز بالحكمة والسخاء ، وبالشجاعة والفصاحة ، وبحماية النساء والضعفاء ، وباحترام أتباعه ، وكرم ضيافته ، وكان عليه فى حلبة الفضائل العربية أن يفوز بالسبق وأن يستحق أجمل صفة . . صفة « الكمال » المجيدة . ويالها من نظرية مليئة بالعظمة والفلسفة الاجتماعية التى تنقى ، وتجمل ، وتشرف الإنسان جسدا وروحا : فلقد كان أنبل الرجال وأجدرهم بالتشريف ، ذلك الذى يؤدى أعظم الفعال وأكرمها وأشدها بطولة ونفعا . وكان ذلك هو الرجل الكامل ، والأرستقراطى بكل معانى هذه الكلمة ، فهو خلاصة الخير ، وأفضل الناس ؛ وإذ ذاك تصبح الأشياء المحيطة به أفضل الأشياء : فخيمته أفسح الخيام وأرحبها وأثمنها نسيجا ومقتنيات ، وجياده أكرم الجياد وأشدها جلدا وأسرعها فى السباق ، وأسلحته أبهى الأسلحة التى تضيف إليها شجاعته رونقا جديدا دائما . وهكذا كان العرب يتصورون الشرف .

وإلى جانب ذلك ، فقد كان الحال إذا تحالفت عدة قبائل لتشن حربا ، أن تعين لرئاستها جميعا قائدا واحدا لا يكون له بعد أن تضع

الحرب أوزارها حق التصدر على أقرانه من الرؤساء الآخرين . ولقد جرى العرف فى ذلك على إسناد هذه القيادة العليا إلى من تسفر عنه القرعة ، شابا كان أم شيخا ، وإن كان يحدث أحيانا أن يعهد الحلفاء بقيادة الحرب إلى أعظمهم نسبا وشجاعة بإجماع الآراء . وعلى هذا النحو انتخب « حرب بن أمية » قائداً عاما لقبائل قريش فى حرب « الفجار » .

ومن هنا نفهم مبلغ اهتمامهم بذكريات جدودهم إلى حد اتخاذهم من الأنساب علما من العلوم ، بل لقد كان يروق لهم فى كل زمان ومكان ، فى ميادين القتال وفى الأسمار ، أن يذكروا أنسابهم وبطولات أجدادهم ومآثرهم . وكان ذلك هو موضوع مناقشاتهم المعتاد ، وأحب ما ينفقون فيه أوقاتهم ، ومدار كبريائهم ومباهاتهم ؛ فما من قصيدة فى العصر الجاهلى إلا تضمنت أبياتا طنانة فى الفخر تشيد بمجد السلف . وهذه هى المعلقات وأشعار السموءل والشنفرى تتجاوب بأسماء عريقة ، وتذيع على الملأ مآثر القبيلة ، وكثيرا ما تطنب فى تفصيلها . وإليكم عمرو ابن كلثوم يقول :

ورثنا مجد علقمة بن سيف — أباح لنا حصون المجد حينا

ورثت مهلهلا والخير منه — زهيرا نعم ذخر الذاخرينا

وعتابا وكلثوما جميعا — بهم نلنا تراث الأكرمينا

وذا البر الذى حدثت عنه — به نُحمى ونحمى المحجرينا

ومنا قبله الساعى كليب — فأى المجد إلا قد ولينا

ولقد كانت الأسماء العريقة والفعال الهامة تتعهدها الذاكرة . ففى عصور البساطة تلك ، كانت الرواية بمثابة العلم الوحيد الصحيح . ولم تكن هناك دور للمحفوظات ، بل حتى لو كانت الكتابة معروفة إذ ذاك لاستغنى عنها البدوى ، فهو حاد الذاكرة ويضيق بالتدوين والترقيم . ومن أراد أن يقف على مدى ما احتلته الأنساب من مكانة فى الشرق زمنا طويلا ، فليفتح أى كتاب من كتب التاريخ ، أو الفلسفة ، أو الغزل أو التوحيد، ولسوف يجد فى تقديم كل واقعة وكل قول قائمة مملة من الأسماء على هذا النحو : « حدثنا فلان بن فلان بن فلان. . . إلخ» . فقد بلغ من تعظيم العرب للأنساب أنهم كانوا بصدد أى حادث أو شخصية يظلون يصعدون فى عصور التاريخ من أب إلى جد حتى يصلوا إلى آدم أبى الجنس البشرى .

ولقد أعلن النبى أن علماء الأنساب دجالون ، ونهى أن يتجاوزوا البحث فى النسب معد بن عدنان ، وعدنان هو ثامن أو تاسع أحفاد إسماعيل بن إبراهيم . على أن من أتقياء المسلمين من واصلوا الانتساب إلى جد أقدم من عدنان ، لأنهم ظلوا مقتنعين بأن مزاعمهم قائمة على أدلة لا سبيل إلى ردها . وهكذا يبدأ « أبو الفتح الإسكندرانى » — وهو كاتب ذائع الصيت من أدباء النصف الأول من القرن التاسع الهجرى — موسوعة كبيرة عن الحيوان (فى ٦١ مجلدا) ، بقائمة مسهبة فى سرد أسماء أجداده ، تنتهى بآدم .

وإن هذه الأفواج المتلاحقة من الأعلام التى تشغل حيزاً كبيراً من المصنفات العربية ، وهذا الترف فى ذكر الأسماء — مما لا نجد له مثيلا فى أى مكان — لأمر يبدو لنا الآن مملا غير ذى جدوى ، ولكن علم الأنساب — إلى جانب الشعر وفن الخطابة — كان الغذاء العقلى الرئيسى للعرب . فلقد كان يمدهم بمادة من الألغاز والطرائف وروايات الغزل ؛ إذ كانوا بالاستناد إلى بعض الإشارات يصلون إلى استعادة سلالات الأسرات والمصاهرات التى ربطت كل أسرة بطبقة من طبقات قبيلة ما. وحسبنا مثل واحد ، هو قصة اقتران أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد بفتاة فلاحة . ولقد عرض للملوك فى كل مكان أن يتزوجوا راعيات حسناوات ، بيد أن بطلة قصتنا هذه لم تكن مجرد راعية حسناء . أجل ، فإنها لم تسب قلب الخليفة بعينيها النجلاوين فحسب ، ولكنها أسرته فوق ذلك بعلمها المحيط بالأنساب :

حدث فى ذات يوم أن خرج الخليفة المأمون للصيد ، فسبق حاشيته ، ووصل وحده قرب مجرى صغير من روافد الفرات . وهنالك لمح فتاة مقبلة على الضفة ، تحمل سقاء من الماء على كتفها . فأوقف الأمير جواده يتأمل مليا قامتها الهيفاء ، وصدرها الناهد ، وحركاتها الرشيقة ، وحسنها الوضىء . ويسقط سقاؤها فى اللحظة ذاتها وينسكب الماء ، فيتقدم الخليفة منها قائلا :

— يا صبية ، من أى قبيلة أنت ؟

ــ إنى من قبيلة بنى كلاب[1] .

فقال الخليفة وهو يعبث بالألفاظ :

ــ ماذا ؟ أتنتسبين يا صبية لقبيلة الكلاب ؟

فأجابته الفتاة فى حدة :

ــ لست من قبيلة الكلاب ، وإنما أنتمى لقبيلة كرم أهلها ، ولم يلمهم لائم ، وعرفوا كيف يبذلون القرى وكيف يسددون ضربات الرماح والسيوف . . . ومن أين أنت أيها المتعجرف ؟ وما نسبك ؟

فأجاب الخليفة :

ــ إنى من مضر .

ــ من أى قبائل مضر ؟

ــ من أعرقهم أصلا ، وأعظمهم جدوداً ، وأفضلهم أبوة وأمومة ، من أولئك الذين يعظمهم جميع مضر .

ــ إذن فأنت من بنى كنانة ، ولكن من أى فروع بنى كنانة أنت ؟

ــ من أشرفهم دما وأمجدهم أصلا ، وأجودهم يداً ، من أولئك الذين يجلهم جميع بنى كنانة ويخشونهم .

---

(١) سئل أبو دانس الكلبى لماذا تطلقون على عبيدكم أسماء جميلة مثل سرور وجوهر ومرجان وعلى أبنائكم أبغض الأسماء مثل كلب وكليب ومرارة ، فأجاب : إن عبيدنا قد أعدوا لنا أما أبناؤنا فقد أعددناهم للأعداء .

– أفأنت من بنى قريش ؟

– نعم إنى قرشى .

– فمن أى فرع من بنى قريش ؟

– من ألمعهم صيتا ، وأرفعهم مجدا ، من أولئك الذين يحترمهم جميع بنى قريش ويرهبون جانبهم .

– والله إنك لمن بنى هاشم جد النبي ، فمن أى أسرة من بنى هاشم أنت ؟

– من أعلاهم مكانا ، من باتوا زينة القبيلة وشرفها ، من أولئك الذين يخافهم ويعظمهم ويبجلهم جميع بنى هاشم .

فخرت الفتاة ساجدة تقبل الأرض وهى تقول :

– السلام عليك يا أمير المؤمنين ! السلام عليك يا إمام الله سيد العالمين .

فطاب الخليفة نفسا وطرب ، وأنهض الفتاة وقد بدت له غنية بالجمال غنية بالمعرفة وقال فى نفسه : « والله إنى لمقترن بهذه الصبية اللطيفة ، فهى أثمن خير عسانى أن ألقاه » . وإذ لحقت به حاشيته ، أرسل فى طلب أبى الحسناء ، وسأله فى الحال يد ابنته . . . فأصبحت أم العباس بن المأمون . . .

على أن ذكر الأنساب لم يكن يؤدى إلى الزيجات السعيدة بقدر ما كان يؤدى إلى التنازع والتحدى والنقائض البلاغية بين القبائل وبين

الأفراد كذلك . وقد اشتهرت المشاجرات على الشرف بين اليمن ومضر ، وبين الأوس والخزرج ، وبين فزارة وبنى هلال ؛ كل قبيلة تدعى أنها أمجد من غريمتها ، إذ هى أعرق أصلا وأروع ذخيرة بالأعلام الذين تجلوا عبر تاريخها .

وكذلك حفظ لنا الرواة قصص المجادلات المعروفة « بالمنافرات » أى المشاجرات حول الأنساب ، مما نشب إبان الجاهلية بين شخصيات عظيمة الشرف ، كالمنافرة بين عامر بن طفيل بن مالك وعلقمة بن علاثة بن عوف ، والمنافرة بين جرير البجلى وخالد الكلبى ، والمنافرة بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس . . . وكانت المنافرات تجرى بطريقة من أبسط الطرق ؛ إذ يتحدى أحد المتنازعين الآخر ، ويتفقان على الرهان وعلى اختيار الحكم بينهما . وكان الحكم فى العادة شيخاً من المشهورين بالنزاهة ومعرفة الأنساب . وكان الرهان فى أكثر الأحيان قطيعا من مائة ناقة يوزعها الفائز فى سخاء على أهل قبيلته . فإذا مثل المتنافران أمام الحكم ، أشاد كل منهما بمجد أجداده ومآثرهم ، وانطلق يفتخر بمناقبه الشخصية مثل قوله « إن أبى هو معبد الشهير بزرارة وأمى معزة ، وإن عشرة من عمومتى ومثلها من خئولتى تولوا رئاسة القبيلة ، ولقد أجار جدى ثلاثة ملوك متحاربين وأفلح فى حمايتهم جميعا ، وهذه القوس قوس عمى التى وضعها بين يديه ملك العجم شهادة على العهد الذى

قطعته العرب قاطبة »[١] .

« وأما أنا فلى عشرة أبناء شجعان أسخياء ، ويشاطرنى مالى أدنى البائسين ، وإنى لأحمى اليتيم والنساء والمظلومين ، وفى يوم الوغى لا يعادل بأسى سوى حلمى . . . » .

وبعد أن يصغى الحكم ويفكر ، ينطق باسم الفائز ، أى باسم ذلك الذى ارتأى أنه أشرف بأجداده وفضائله .

ويجدر بنا — فى ختام ما أسلفناه عن اهتمام العرب بالأنساب اهتماما بالغا — أن نتساءل : هل عرف العرب هذا العلم الحديث الذى اختص بدراسة فنون الشعار لدى الأشراف ؟ وهل اقتبست منهم أوربا فكرة الشعار واستخدامه كما يرى بعض الكتاب ؟ والجواب أنه قد أدت « أبحاث فى أصول الشعار » نشرها الأستاذ أداليبردى بومون (Adalbert de Beaumont) إلى النتائج التالية :

أولا — لم يتخذ الأشراف شعارا فى فرنسا إلا عقب الحرب الصليبية الأولى — فى عهدى لويس السابع وفيليب أوجست .

ثانيا — كان اقتباس الفروسية والمباريات والشارات فى أوربا تقليدا للعرب وللفرس[٢] .

---

(١) منافرة ابن زارة وخالد بن مالك .

(٢) ص ١٢٧ .

ويذكر « لافيس ورامبو » في كتابهما « التاريخ العام »[1] — عند استعراض النتائج الواقعية للحروب الصليبية — أن الفرسان قد عمدوا إلى اتخاذ علامات مميزة لهم، لكى يعرف بعضهم بعضا وسط حشود المحاربين، ولقد كانوا اعتادوا فيما قبل، أن يزينوا دروعهم برسم زخرفى . . . فأصبح هذا الرسم الزخرفى أثناء الحروب الصليبية علامة دالة على الأسرة لم تتغير بعد ذلك . وهكذا تكون منهج الشارات — الذى أطلق عليه فيما بعد اسم « الشعار » — وولد فى الشرق كما تدل على ذلك الأسماء الشرقية التى تستخدم فيه مثل : gueules (جول) للون الأحمر من كلمة «غول» و rose أى « وردى »، و azur (أزور) أى « لازوردى » وهو اللون الأزرق ، وكلمة فارسية « سينوبل » sinople أى اللون الأخضر ، وكلمة يونانية بمعنى العملات الذهبية « بيزان » bezants ، أما الصليب الذى يرسم فى الشعار فهو المعروف « بالصليب اليونانى » . . . إلخ .

ولسنا نزعم أننا نناقش هنا تاريخ « الشعار » أو نبحث عن مهده ، ولكننا نرى أنه كما عمد الفرسان — لكى يتعارفوا وسط حشود المحاربين — إلى اتخاذ علامات مميزة ، فقد عمد العرب كذلك إلى الاستعانة برموز وشارات معينة لتمييز كل قبيلة من الأخرى ؛ فكان لكل قبيلة رايتها التى تصونها وتحرص على رفعها حتى بعد أن وحد الإسلام جميع العرب ،

(١) الجزء الثانى ، ص ٣٤٦ و ٤٧ .

بل لقد كان لهم حتى فى أوقات السلم أعلام خاصة يرفعونها على أبواب مساكنهم حتى يعرفها الناظر من بعيد .

ولما كانوا يتباهون باللون الأصفر — رمز ملوك اليمن — ثم باللون الأحمر — رمز أهل الحجاز — فلا شك فى أنهم تخيلوا شارات خاصة للتمييز وسط تلك المجموعات من الأعلام الصفراء والحمراء التى تهافتوا عليها . ومهما يكن من أمر ، فإن لدينا من الفروض القوية ما يقوم مقام البراهين فى الاستدلال على أن أوربا قد استعارت من العرب فكرة الشعار وفن الشارات .

فهل خطر ببال فرسان فرنسا وإنجلترا — حين مضوا يرفعون أردانا من النسيج الهفهاف بمثابة الرايات ، وقد جهدوا فى مبارياتهم حتى ينتصر لواء سيداتهم المحبوبة — هل خطر ببالهم أنهم ما كانوا فى ذلك سوى مقلدين ما فعله النبى ؟ ؛ فإن التاريخ ينقل إلينا أن النبى كان قد أعطى جنوده المحاربين قطعة من الحرير — بمثابة العلم — كانت لزوجته عائشة ، وقد دعى ذلك العلم الأسود[1] باسم « العقاب » وعهد بحراسته إلى على بن أبى طالب .

---

(١) كانت أعلام العباسيين كذلك سوداء ، وكانت أعلام الأمويين بيضاء ، وأعلام الفاطميين خضراء . وقد جمع علم مملكة الحجاز الجديدة هذه الألوان الثلاثة (الأسود والأبيض والأخضر) فى صفوف أفقية على عصابة عمودية حمراء قانية (فالأحمر القانى هو لون علم شرفاء مكة الهاشميين) .

تعظيم المرأة

١

فى الحب

لا يستطيع امرؤ أن يحتفل بالربيع دون أن يتغنى بالأزهار ، ولا يستطيع أن يتحدث عن المرأة الحديث اللائق بها دون أن يتناول حديثه موضوع الحب . إن المرأة هى « الرافعة » الرشيقة التى تدعم التقدم ، والحب هو نقطة ارتكازها . فالحب يوحى عواطف البطولة ويعين على تحقيقها ، وهو الحافز إلى المجد ، والخالق الطروب الخصب الذى يوحى نبيل الخواطر ويبدع أكرم الفعال . وكلما خلص الحب وحلق فى سماء المثل العليا ، تحول إلى عبادة حقيقية ، إلى دين قدسى ، تتبوأ فيه المرأة مكان الألوهية التى ترتجى الخير . وعلى قدر ما يرفع شعب من منزلة المرأة ، تكون منزلة الشعب نفسه ؛ فإذا سما بها ارتقى . وإن الوضع الاجتماعى الذى يحدد للمرأة فى مختلف بيئات المجتمع البشرى لميزان تقدّر به درجة الحضارة التى بلغها الأفراد و بلغتها الدول .

وفى عصر الفروسية ، يتميز الحب تميزاً عميقا وجوهريا عما كان عليه فى ظل الرومان واليونان ، وذلك أنه بعد أن كان ساذجا فطريا أصبح

مهذبا خاليا من شوائب الحس . فقد حل محل بساطة العواطف القديمة لون من الابتهال الصوفى أنجب التورع ومغالبة النفس وألوانا من العذاب لم يكن من داع لها . وصار الحب تقوى . ولم يكن من المهم أن تصبو التقوى إلى كائن حقيقى أو خيالى ، فالعقيدة هى أن تحب . ذلك أن الحب فضيلة : بل ومنبع الفضائل كلها ، ومن هذه الناحية كان جميع الفرسان من الصالحين، لأنهم أحبوا أو كانوا على الأقل مقتنعين بأنهم يحبون . وهكذا غدا الحب منهجا من مناهج التربية ، واعترف له القوم بأنه مبدأ كل نشاط ، وأساس كل فضيلة أخلاقية وكل مجد . يقول « ريمبودى فاكييراس » (Raimbaud de Vaquieras) : « إن الحب يحسن ويهب قيمة للأهون . يستطيع أن يصنع من الجبان شجاعاً ، ومن الجلف رقيقاً ، وكم من الفقراء علت بفضله مراتبهم ؛ وما دام الحب زاخراً بمثل هذه السجايا ، فإنى لأود — أنا الطامح إلى الجدارة والشرف — أن لو كنت محبوباً ». ونحن نجد هذه الفكرة ذاتها لدى أديب عربى قال بصدد الحب : « إن أقل حسناته أنه ينبت وينمى فينا الكرم والشجاعة والعادات الطيبة وسمو النفس ، بحيث يصبح كل مطمع المحب أن يرضى حبيبه ، إذ يتحلى بكريم العواطف والمحامد »[١] .

ولقد أصبحت حسنات الحب فى القرون الوسطى موضع إيمان

---

(١) ديوان الصبابة .

لا جدل فيه . وقام الحب فى الواقع مقام منظمة اجتماعية شبه دينية ؛ فكانت له رموزه ، وقوانينه ، ومحاكمه وكهنته وشهداؤه . ولقد كانت السيدة ترسل لفارسها الأثير أردانا طويلة عريضة يستخدمها راية له فى المباريات ، وضفائر شقراء ، وقفازات ، وأقمشة هفهافة وحبالا مطرزة بشعار باديع . وقد جمع « المعلم أندريه » كاهن ملك فرنسا — نحو سنة ١١٧٠ — قوانين هذا الحب الشاردة ، وتشكلت — منذ القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر — « محاكم الغرام » من أعرق السيدات نسبا وأشهرهن معرفة ، وأصدرت أحكاما تشهد لهؤلاء القاضيات بالدراية والرقة فى مسائل الأدب ومنازعات الحب . وكان المسبحون باللغة من شعراء ذلك العهد يتغنون بجمال « كوبيدون » فى صباه ، ويرددون قصص الغرام المتواترة ، فى حين يمضى العشاق لملاقاة حتفهم أو يستسلمون للسقم حتى يداركهم الموت ، من أجل أميرة القلب وسيدة الأحلام .

فما أصل هذا الحب الجميل ؟ وما الذى أثر فى اتجاه الحب القديم حتى أحاله من مبدأ للشر وعقبة فى سبيل الخير إلى منبع للشرف وخصيصى يمتاز بها الأصفياء وحافز إلى جليل الأمور ؟ إن أصواتا عالية عديدة تجيب إجابة واحدة عن هذا التساؤل بأنه « من المسيحية ومن الأخلاق الجرمانية قد تولد ذلك الحب الفرسانى » .

والحق أن المسيحية قد نادت العالم ووجهته إلى التوحيد بين الحب

والنقاء ، مما لم يكن معروفاً لدى القدماء [١] ؛ ومن الحق أيضاً أن المسيحية قد أوحت إلى قساة المقاتلين فى القرون الوسطى عواطف إنسانية نبيلة رقيقة ، وأن تعظيم العذراء مريم قد أدى بصورة قوية إلى تحسين حال المرأة ؛ ولكن الدين والكنيسة ما كانا ليستطيعا أن يؤثرا فى آداب الرقة الجديدة وهى التى تخالف – بما تعرض له الرجال والنساء من أخطار محببة – جوهر النقاء المسيحى . ولسنا فى حاجة إلى أن نستشهد بصاحب سفر الجامعة ، ونواهى الآباء الروحيين الصارمة العابسة[٢] ، أو بكتابات القرن الثانى عشر التى تشبه المرأة بالشيطان وتذهب إلى اعتبارها ناقصة العقل والخلق ، لكى نثبت أنها لم تكن قط موضع تقديس العهد القديم أو العهد الجديد ؛ ولسنا فى حاجة أيضاً إلى أن نذكر بأن سادة الحقبة الأولى من القرون الوسطى – على الرغم من اعتناقهم المسيحية – كانوا لا يبدون أى احترام للمرأة ولا للحب المثالى . وإن واقعة واحدة لتكفى دليلا على ذلك ، فإنه إلى جانب الفروسية الدينية – التى نظمها الكهنة لصون الإيمان – قامت فروسية حرة عالمية ، نظمت كالسابقة تحقيقا لغرض دينى واجتماعى ، ولكن الكهنة لم يشرفوا عليها ، بل نشأت مستقلة عنهم ،

---

(١) انظر جان – جاك أمبير (J. -J. Ampère) : منوعات من الادب وتاريخ الأدب. الجزء الأول . ص ٢٢٧ .

(٢) أقوال القديس أمبرواز (Saint Ambroise) وترتوليان (Tertullien) ومداولات مجمع ماكون (Concile de Mâcon) .

فقتوها وناصبتهم هى العداء . هذه الفروسية التلقائية الحرة العالمية ، هى التى أصبح الحب والتودد والكلف بالمغامرات وتمجيد الشرف الحربى ، روحها وحافزها[١] .

أفتكون الأخلاق الجرمانية إذن هى التى ولدت عواطف الحب الرفيع فى قلوب الفرسان ؟ يا لطالما أشاد الكتاب بنقاء الأخلاق الجرمانية وهم لا يعرفون بعد حقيقتها ؛ فيحدثنا « تاسيت » تارة عن « فاليدا » (Valléda) وكيف أكرمت إكرام الآلهة ؛ ثم يجرى المؤرخون من بعده على نهجه فيطنبون فى امتداح الورع الشامل الذى عامل به الجرمان نساءهم . فى حين أنه يكفينا ــ دون أن نستغل فى ذلك الأحداث الأخيرة التى جلت أخلاق الجرمان ــ أن نلحظ أنهم ما كانوا يكرمون من النساء سوى بعضهن ممن كان الجرمان يعتقدون أنهن ينطق بلسان الآلهة (أى النبيات)[٢] ومن ناحية أخرى ، فإنه ما أن يلقى الإنسان نظرة فى المجتمع الجرمانى حتى يتبين أن هذا المجتمع الذى اعتمد على مبدأ القوة ، لا يفسح للضعفاء إلا مكانا ضيقا محدوداً . يقول مينيه (Mignet) : « كانت المرأة لا تملك نفسها ، ولا تتصرف فى شىء ، بل كتب عليها أن تعيش عزلاء من تلك القوة التى كانت وحدها تكفل الحرية والملكية فى مجتمع عنيف . وما كان للطفل ولا للشيخ قيمة ، لأن الأول لم يكتسب بعد تلك القوة ،

---

(١) فورييل : تاريخ الشعر البروفنسى . الجزء الثالث . ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) انظر سيسموندى : فى أدب جنوبى فرنسا . الجزء الأول . ص ٨٩ .

وأما الثانى فقد انقضى عهده بها ، ولذلك كانا يشتغلان بالخدمة وبشئون البيت (تاسيت : الفصل السادس عشر) ، وكانا يعيشان تحت وصاية ذلك القوى الشجاع المتعطل ، المحترف القتال والذى يتشرف بأن يخدمه سواه . وكانت المرأة تظل مقصورة دائما ، فإذا لحقت بها إهانة ، استولى الوصى على التعويض الواجب فى مثل ذلك . ولما كانت هذه الوصاية مربحة ، فقد كانت المرأة أو الفتاة أو الأرملة التى تخطب تبتاع من الوصى عليها . ولا شك فى أن هذه الوصاية المتصلة ، ومثل هذا الابتياع ، لمن الدلائل القاطعة على انحطاط مستوى المرأة . وتلك حال يعللها — فى آن واحد — ضعف المرأة وعنف المجتمع الذى تنتمى إليه »[1].

حقاً إن الألمان قد عرفوا فيما بعد لونا من الرقة ، « واحترموا السيدات — أى نساء السادة — إلا أنه كان احتراماً أشبه باحترام الخادم لمولاتهم ، فلم يكن تعظيما لنساء الشعب ، بل كان موجها للطبقة لا للجنس »[2] .

وليس هذا اللون من احترام الخادم للسادة هو الذى يشرح لنا تحول الحب القديم إلى الحب الفرسانى . ولن يجدينا البحث فى أخلاق الجرمان وفى أساطيرهم عن أصل الحب الفرسانى . فقد « كان الرجال فى تلك الشعوب — على الرغم من احترامهم النساء وإشراكهم إياهن فى المجالس

---

(١) ميشيليه : « كيف دخلت جرمانيا القديمة فى المجتمع المتحضر بأوربا الغربية » فى « مذكرات أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية » سنة ١٨٤١ ، الجزء الثالث ، ص ٧٩٢

(٢) لافيس : التاريخ العام . الجزء الثانى . ص ٤٧ .

والمعابد – يظهرون لهن التشريف أكثر مما يضمرون لهن الحب ؛ فقد كانوا لا يعرفون التودد ، وكانت صفاتهم من الشجاعة والولاء تسيطر عليها الخشونة ، فلا تكاد تنبئ بتطور البطولة فيهم وتساميها ؛ وكان خيالهم قاتما ، وكانت القوى المهيمنة التي دفعتهم خرافاتهم إلى الإيمان بها ، قوى شريرة ، وإن أقدم قصيدة من الشعر الألماني – كما انتهت إلينا اليوم – نعني قصيدة « النيبلونجن » ، هي أثر أدبي ألماني سبقته قصص « الفرنك » الأولى ولعلها أثرت فيه . ونحن بدراسة هذا الأثر الأدبي ، لا نجد أن الأخلاق التي تشيع فيه هي أخلاق الفروسية . فكان الحب من الحوادث ضئيل ، والأبطال يهتمون بأغراض وعواطف غير التي تقتضيها الشهامة ، وقليلا ما تظهر النساء، ولسن على أي حال موضع تعظيم ، بينما يبدو الرجال ولم يلن اقترانهم بالنساء من شدتهم أو يهذبهم »[1] .

وهكذا لا تشرح لنا المسيحية وحدها ولا الأخلاق الجرمانية وحدها ، ولا هذان العاملان مجتمعين ، كيف خلص الحب من الشوائب في القرون الوسطى . وإلا فما بال المسيحية لم تؤثر نفس التأثير في جميع الأقطار التي سادتها وهذبتها ، وما بال الحب العفيف يزدهر في بلاد غير مسيحية ؟ وما بالنا لا نرى – في الفترة التي تنقضي بين غزو الجرمانيين لبلاد « غالة » في بداية القرن الخامس وبين فجر الفروسية في العصور الوسطى – أي إشارة إلى عواطف الرقة والتودد ؟

---

(١) سيسموندى : المرجع السابق ذكره . الجزء الأول ، ص ٢٦٥ وما يليها .

على أنه من الثابت — فضلا عن ذلك — أن الحب الفرسانى ، كمنظمة الفروسية ذاتها ، قد ظهر أول الأمر لا فى جرمانيا ولا فى شمالى آوربا ، بل فى الجنوب ، فى « البروڤانس » . ومن جهة أخرى لا يمكن إنكار ما للحضارة العربية من فضل على العواطف فى جنوبى فرنسا وإسبانيا ، أو إنكار القربى — ولعلها التطابق — بين الحب الفرسانى والحب العربى .

وقد يكون من الممل أن نجمع بالتفصيل أوجه الشبه بين بعض أبطال قصص العصور الوسطى وبعض الشخصيات العربية — الحقيقية أو الخرافية — ، وأن نوازن مثلا بين حب عنترة وعبلة وحب « أماديس وآوريان » ، حين نلاحظ بصورة عامة ، أن رقة المشاعر ، ونشوة الحب ، وتعظيم المرأة ، مما عبر عنه أدب الجنوب بأجمعه تعبيراً لطيفا — تبدو كلها كما لو كانت مترجمة عن العربية ، وذات صبغة شرقية دائما[1] . إن هذا اللون ليبدو جليا فى بعض أغانى « الطروبادور » ، ولعله قد بلغ «دانتى » و « بترارك » ومدرستهما[2] .

على أن هناك أوجه شبه أروع إن لم تكن أدل ؛ فهذا فورييل يقول: « قد لا يكون فى تاريخ حضارة جنوبى فرنسا شىء أخص وأروع

(١) دليكلوز (Delécluse) : دانتى وشعر الغزل ، ص ٦٣ . — جانجنيه (Ginguéné) : تاريخ الأدب الإيطالى ، الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٢) بويميجر (Puymaigre) : أدباء قشتيلة القدماء ، الجزء الأول ، ص ٣٩ .

من اختلاط روح الفروسية وروح الشعر واتحادهما اتحاداً وثيقا ؛ فمنذ اللحظة التي أصبح فيها الحب عبادة وأصبحت أغانيه ضربا من الترانيم ، أصبحت القدرة الشعرية هي المكمل الذي يكاد يكون لازما لغزل الفرسان وبالتالي للفروسية ذاتها ؛ فلقد غدا كل سيد — كبيراً كان أو صغيراً — في حاجة إلى قرض الشعر ، فاجتهد في نظمه ، وكان المعهود فيمن لا يقول شعراً أن يتذوق شعر سواه »[١] .

وتلك خصوصية عربية في جوهرها ، لأنه يمكن القول دون مبالغة : إن جميع العرب كانوا شعراء على السليقة كما كان « مسيو جوردان » ناثراً على السليقة[٢] . وعبثا نبحث عن فارس أو بطل عربي على حظ من الشهرة لم يكن شاعراً أو لم يتغن بشجونه وحبه . على أن جميع الشعراء كانوا متيمين ، وقد حرصوا جميعاً على الترنم بهواهم — حقيقيا كان أم خياليا — في شعر عذب رقيق .

وهكذا نرى جميع شعراء جنوبي فرنسا المعروفين باسم « الطروبادور » يحبون أو يتكلفون الحب ؛ كما كان جميع شعراء العرب ، يحبون أو يتكلفون الحب كذلك .

وكان « الطروبادور » يقصدون القصور ومجالس الأمراء ، كما كان الشعراء العرب يقصدون بمدائحهم ويتحفون بجديد إبداعهم الخليفة

(١) فورييل : المرجع السابق ذكره . الجزء الأول ، ص ٥٢٩ .

(٢) بطل مسرحية موليير الفكاهية : المثري النبيل .

أو رؤساء القبائل ، أو الوالى أو العظماء .

وكان « الطروبادور » يصطحبون المنشدين ينشدون أبياتهم ، وكذلك كان « الرواة » لدى العرب — وهم تلامذة الشعراء — يرافقون أساتذتهم وينشدون قصائدهم .

وكان المنشدون فى جنوبى فرنسا يعزفون بقيثارة ذات ثلاثة أوتار ، تشبه تمام الشبه عود الرواة الأندلسيين ، ورباب الشعراء الشعبيين المصريين الذين ما زالوا يروون مغامرات عنترة وأبى زيد .

وكان « الطروبادور » كشعراء العرب ، والرواة كالمنشدين ، مولعين جميعاً بالمناظرات والمعارضات .

وأخيراً « كان حفظ السر والتكتم من شروط الحب الفرسانى وقيوده ؛ فعلى قدر افتخار الطروبادور بإذاعة أن سيدة كريمة المحتد تعشقه ، فإنه كان يحرص فى الوقت ذاته على إخفاء اسم تلك السيدة . وما كان ليصرح باسمها فى شعره أبدا . وإنما يكنى عنها بما تفهم هى معناه وتدرك مرماه ، ويذهب فى تأويله كل مستطلع بما يعن له »[1] ، وعلى هذا النحو تغنى « ريمبودى فاكييراس » بـ « بياتريس » أخت « بونيفاس دى مونفيرا » (Boniface de Montferrat) مكنيا عنها بـ « الفارس الوسيم ».

وكذلك كان الأمر عند العرب ؛ « فلم يكن الشاعر يمتنع عن تسمية

---

(١) فورييل ، الجزء الثانى ، ص ٢٣ .

من يحبها فحسب ، بل كان يشير إليها بالمذكر ، فيقول مثلا : « من يحبه قلبي » ؛ كما كان يطلق عليها أحيانا اسما غير اسمها ، فيدعوها « ليلى ، أو هند » مستخدما هذه الأسماء التقليدية التي أصبحت مرادفة لصفة العشق ، تخليداً لأولئك العاشقات الشهيرات . وهكذا لا يجرى اسم الحبيبة الحقيقي العذب على غير لسان عاشقها ولا يداعب سوى شفتيه»[١]

والآن وبعد أن لاحظنا ألوان هذا التشابه ، فلنتحدث في إيجاز عن الحب العربي .

والحب في كل البيئات سواء ، مقدس لا يدرك بالعين ولا سبيل إلى تعريفه أو كشف حقيقته ، وعلى الرغم من ذلك قد عنى العرب منذ أقدم عصورهم بتحليله وتعريفه وبحثه من مختلف وجوهه ، ودراسة بوادره وطبيعته ، وعلله وآثاره . وهذه واحدة من أقدم نظرياتهم — وإن كانت في الواقع مستعارة من أفلاطون — تقول :

« إن الله عز وجل بلطيف حكمته ، خلق كل روح مدوّرة على هيئة الكرة ، ثم جزأها أنصافا ، فجعل في كل جسد نصفا ، فكلّ جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق ضرورة للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك من القوة والضعف على قدر طبائعهم . . . وإن النفوس نورية جوهر

(١) كتاب « جنة الأزهار » للمؤلف ، ص ٩١ .

بسيط نزل من علو إلى هذه الأجساد فسكنها ، وإن النفوس يألف بعضها بعضا على حسب مجاورتها فى عالم النفس فى القرب والبعد »[١] .

أفيوجد أعمق صوفية وأسمى روحانية من هذا السباق الذى انطلقت فيه الأرواح تلتمس كل منها شقيقتها ؟ أولا يذكرنا ذلك بأغرودة « الفريد دى موسيه » الجميلة التالية :

أحب . . تلك هى الكلمة التى تحدو بها الطبيعة جمعاء
الريح التى تحملها والطير الذى يتبعها . .
آه ! إنك لتهمسين بها فى أجوازك المقدسة
يا نجوم الصباح ، تلك الكلمة المشجية الساحرة !
إن أوهن نجم بينك حين خلقه الله
قد رام أن يعبر السهول الأثيرية
طلبا للشمس معشوقته الخالدة ؛
فانطلق فى قلب الليالى العميقة .
ولكن نجما آخر كان يحبها . .
فمضت الكواكب فى رحلة حول السديم

(رولا : النشيد الخامس)

ولنذكر الآن بعض تعريفات الحب ، فهى تبين لنا صفات الحب

---

(٢) المسعودى : المرجع السابق ذكره . الجزء السادس : ص ٣٧٩ و ٣٨٠

العربى خيراً مما تبينها البحوث المستفيضة . فقد قالوا : « إن الحب قوة خارقة تغمر القلب فى تأمل محاسن الحبيب » . وقالوا : « إنه عاطفة طاغية مسيطرة يخلقها الخيال والشهوة » . كما قالوا أيضاً : « إنه ضرب من السحر ، وجنون عبقرى يصيب أهل الفطنة وذوى القلوب الرقيقة » . وقد لاتقنع بهذا القدر ، ولا يروى هذا القول ظمأك إلى العلم بالحب ، فتعال بنا إلى مجلس وزير هارون الرشيد ، يحيى بن خالد بن برمك ، ذلك الرجل الكريم ، حيث يتناول الفقهاء المدققون موضوع الحب بحديث شهى ممتع :

يقول أبو مالك الحضرمى : « أيها الوزير ، العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين ، وله تغوّل فى القلب كتغول صبب المزن فى خلل الرمل ، وهو ملك على الخصال ، تنقاد له العقول وتسكن له الآراء »[١] .

ويقول هشام بن الحكم الكوفى :

« أيها الوزير . العشق حبالة ينصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص فى النوائب ؛ فإذا علق المحب فى شبكتها ونشب فى أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا . ولا يكون إلا من اعتدال الصورة وتكافؤ فى الطريقة وملاءمة فى الهمة . له مقتل فى صميم الكبد ومهجة

(١) المسعودى الجزء السادس ص ٢٦٨ وما يليها .

القلب ، يعقد اللسان الفصيح ويترك المالك مملوكا والسيد خولا حتى يخضع لعبد عبده » .

ويقول إبراهيم بن يسار النظام : « العشق أرق من السراب وأدب من الشراب وهو من طينة عطرة عجنت فى إناء الجلالة ، حلو للمجتنى ما اقتصد ، فإذا فرط عاد خبلا قاتلا ، وفساداً معطلا ، لا يطمع العلاج فى صلاحه ، له سحابة غزيرة تهمى على القلب فتعشب شغفا وتثمر كلفا ، وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس يشارف للزمن طويل الفكر ، إذا أجنه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صومه البلوى وإفطاره الشكوى » .

ويقول على بن منصور : « العشق أيها الوزير داء لطيف المربى يمتزج بالنفس ويخامرها ويمشى فى الآراء فيقبض فيها ، لا يصحو شاربه ولا يفيق نزيفه[١] » .

وكانوا ثلاثة عشر يتناقشون على هذا النحو .

وإذ لا نستطيع إيراد جميع أقوالهم ، فحسبنا أن ننقل شيئا من أفكارهم :

— إن المحب تضىء نفسه شعلة الهوى ويتألق كيانه كله ويسمو بصفاته على الآخرين .

---

(١) المسعودى الجزء السادس ٣٦٨ وما يليها : المرجع السابق

ـ مما يميز الطبائع الرقيقة قدرتها على أن تحب .

ـ العشق سوانح تسنح للمرء ، تعجزه تارة وتيئسه أخرى ، وهى التى تضرم أحشاءه بوجد قلبه .

ـ إنه زهرة الشباب وجنة الكرم وسحر النفس ومسرحها . وإنه ليمتزج فيها بأنبل العناصر وأنقاها . وإنه ليخلع على أهله روح المودة والبقاء .

وشتان بين هذا وبين تعريف « مارك أوريل » للحب بأنه « رجفة صغيرة » أو أنه « الصلة بين جلدين وتبادل نزوتين » !

ونحن لم نستشهد بعد بشعرائنا وهم وحدهم الذين يستطيعون الإفصاح عما يمتاز به الحب العربى من جمال بالغ ورقة سامية ووجدان حنون خاشع ، ولم نرو بعد قصة واحد من « شهداء الغرام » ، ولم نقتطف من أخبار العشاق أسطورة أو أحدوثة . . . [1] ولسوف نقتصر فيما يلى على إيجاز قصتين غراميتين إيجازاً شديداً يجعل منهما زهرتين أو ثمرتين اقتلعتا فى عنف من شجرة الحب ، فذهب عنهما ما كان لهما بين الأغصان من شذى ونضرة ، ولكنهما لا تزالان من أزهار الحب وثمراته . ولعلكم مستطيعون ــ رغم ما ألم بهما ــ أن تتذوقوا حلاوتهما ، ولعل سحرهما يسرى بنشوته فى نفوسكم .

---

(١) يحيل المؤلف قارىء اللغة الفرنسية إلى كتابه « جنة الأزهار » ، الذى ترجم فيه نخبه من شعر الغزل .

قيس وليلى

كان قيس فتى وسيم الطلعة جواداً مقداما ، مقاتلا ، وشاعراً فى الوقت ذاته . ويقال إنه ارتجل أبياته الأولى ولما يتجاوز السابعة من عمره . وكانت ليلى سمراء قصيرة القامة فصيحة اللسان يزين خدها الأيمن شامة . وقد نشأ بينهما الحب فيما يروى على النحو التالى :

خرج قيس فى ذات يوم على ظهر ناقة رشيقة إلى الخلاء مرتاضا . وسرعان ما وصل إلى ينبوع قد اجتمعت حوله من نساء الحى شابات يتحادثن . فحياهن فى أدب حلو ، وخاطبهن فى فصاحة نادرة . فدعونه إلى الجلوس فى حلقتهن . وكانت بينهن ليلى ، فمنذ وقع بصره عليها ، احمر وجهه وامتقع ، وارتعد ولم يستطع أن يتمالك نفسه . ولكى يستعيد شيئا من رباطة جأشه ، تساءل قائلا : « هل من طعام ؟ » فأجابته ليلى فى دلال : « يا ابن الكرام ، ما لدينا من طعام » . فنهض قيس إلى ناقته ونحرها لساعته . وريثما ينضج اللحم ويطيب ، راح يقطع الوقت مع ليلى بحديث طلى حبيب ، تناولا فيه الشعر والشعراء . . حتى قالت له ليلى فى رقة حانية : ألا تنظر هل نضج الشواء ؟ فدنا من النار قيس وقد أعماه الهوى ، واضعا يديه فى لهبها وما درى ، حتى غشى عليه وهوى ..

فبادرت ليلى إلى إسعافه ، فشمرت عن ذراع بضة حسناء ، واختطفت من خمارها شريطا تعصب الداء . . فأنعشه ريحها وراح يتأمل فى نشوة ذراعها ويتغزل فى شعرها وقد جن غراما بها . .

ومما قاله هذا المجنون فى حبه وجنونه :

وإنى لينسينى لقاؤك كلما لقيتك يوما أن أبثك ما بيا

وقالوا به داء عيــاء أصابه وقد علمت نفسى مكان دوائيا

ولكن هذا الدواء قد حرم على ذلك العاشق المسكين . . . فقد زفت ليلى إلى غيره وغادر هو قبيلته ، هائما فى الصحراء يبث الطير أشجانه ، ويفضى إلى الينابيع بسره . . حتى جرح فى ذات يوم مهاة ، وهو يرى فى عينها نظرة ليلى وسحرها . . فخيل إليه أنه قد جرح من يحب ، فلفظ روحه العانية ، ومات صريع يأسه وهواه !

عروة بن حزام وعفراء[1]

فقد عروة أباه وهو فى ميعة الصبا ، فكفله عمه « حصر » وعنى بتربيته . ولما رشد الفتى طلب يد ابنة عمه « عفراء » فوافق أبوها ولم توافق أمها ، إلا بمهر غال يسوق شطره إليها ، فعزم على الرحلة وصحبه فى طريقه

(١) رأينا إتماماً للفائدة ، إثبات خبر عروة بشىء من التفصيل ، من الأغانى حـ ٢٠ ص ١٥٢ . (تحقيق)

فتيان من بنى هلال بن عامر كانا يألفانه . . . حتى قدم على ابن عم له موسر بالرى ، فلقيه وعرفه حاله وما قدم من أجله ، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجل من أهل الشام من أنساب بنى أمية نزل فى حى عفراء، فرأى عفراء — وكان منزله قريباً من منزلهم — فأعجبته فخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى ابن أخ لى يعدلها عندى ، وما إليها لغيره سبيل . فقال له : إنى أرغبك فى المهر . قال : لا حاجة لى بذلك . فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولا لبذله ، ورغبت فى ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى زوجها وقالت : أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه ، وقد جاءها الفتى يطرق عليها بابها ؟ وظلت به حتى نزل على رأيها . . وفى الغد تمت خطبة عفراء إليه بعد حفل كبير .. وقد قالت عفراء قبل أن يدخل بها :

يا عرو إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

ثم ارتحل بها زوجها بعد ثلاثة أيام إلى الشام ، وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجدده وسواه ، وسأل الحى كتمان أمرها . وقدم عروة بعد أيام فنعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أياماً وهو مضنى هالك ؛ حتى جاءته جارية من الحى ، فأخبرته الخبر ، فتركهم وارتحل إلى الشام حتى بلغ دار عفراء ، فسأل جارية لها أن تدفع خاتماً له إلى مولاتها ، فأنكرت منه ذلك ، فما زال بها حتى رقت له . . ومن ثم دفع

بالخاتم فى صحن اللبن ، فلما شربت رأته فعرفته وشهقت ، ثم قالت : أصدقيني عن الخبر ، فصدقتها . فلما جاء زوجها أخبرته خبره ، فأكرمه وتركه مع عفراء يتحدثان ، وأوصى خادماً له بالاستماع عليهما وإعادة ما تسمعه منهما عليه . فلما خلوا تشاكيا ، فطالت الشكوى وهو يبكى أمر بكاء . ثم أتته بشراب وسألته أن يشرب فقال : والله ما دخل جوفى حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللت حراماً ، لكنت قد استحللته منك ، فأنت حظى من الدنيا ، وقد ذهبت مني وذهبت بعدك فما أعيش ، وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن وأنا مستح منه ، ووالله لا أقيم بعد عمله مكانى . . وإنى عالم أنى أرحل إلى منيتى . فبكت وبكى وانصرف . فلما جاء زوجها أخبرته الخادم بما دار بينهما ، فقال : يا عفراء ، امنعى ابن عمك من الخروج . فقالت : لا يمتنع ، هو والله أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما . فدعاه وقال له : يا أخى ، اتق الله فى نفسك ، فقد عرفت خبرك ، وإنك إن رحلت تلفت ، ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً ، ولئن شئت لأفارقنها ولأنزلن عنها لك . فجزاه خيراً وأثنى عليه .

فلما رحل عنهم نكس بعد صلاحه ، وأصابه غشى وخفقان . فكان كلما أغمى عليه ، ألقى على وجهه خمار لعفراء زودته إياه فيفيق . ولقيه فى الطريق عراف اليمامة « ابن مكحول » فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم . فأنشأ يقول :

ما بى من خبل ولا بى جنة ولكن عمى يا أخى كذوب
أقول لعراف اليمامة داونى فإنك إن داويتـنى لطبيب
فواكبدا أمست رفاتا كأنما يلذعها بالموقـدات طبيب
عشية لاعفـراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا وما عقبتها فى الرياح جنوب
وإنى لتغشانى لذكراك هـزة لها بين جلدى والعظام دبيب

قيل ولم يزل فى طريقه حتى مات قبل أن يصل إلى حيه بثلاث ليال ، وبلغ عفراء خبر وفاته فجزعت جزعاً شديداً وقالت ترثيه :

ألا أيها الركب المخبون ويحـكم بحق نعيتم عروة بن حـزام
فلا تهنئ الفتيان بعدك لذة ولا رجعوا من غيبة بسـلام

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتندبه بها حتى ماتت بعد أيام قلائل من موته.

والآن هل يريد القارىء أن يلم ببعض الحوادث ، ويقف على بعض اخبار المجتمع فى الصحراء ؟ فلنفتح معاً إذن كتاب « مسارح العشاق » لأبى محمد جعفر السراج — وإنه لعنوان ينطوى على كل معانى الفروسية .

بعد أن سمع عروة بن زهير ما رواه رجل من بنى عذرة من قصص الحب فى قبيلته ، قال : « الحق أنكم يا بنى عذرة أشد الناس إحساساً بالحب » . فأجابه الآخر : «أجل ، والله إن هذا لصحيح ، فقد عرفت فى قبيلتى ثلاثين فتى قضوا نحبهم وما مرضوا بغير الحب » .

وعن سهل بن سعد قال : حينما كنت فى الشام ، عرض علىّ صديق

أن أذهب معه لزيارة الشاعر جميل وكانت قد استفحلت علته ، فوجدته يفرط فى روحه مستسلماً للموت . . . فسألنى وهو ينظر إلىّ : «ما تظن يا ابن سعد برجل عاش خمسين سنة لم يقترف إثماً ولم يشرب خمراً ولم يسفك دماً من غير حق ، وشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله؟ فأجبته : أظن أن هذا الرجل يستطيع أن يعتمد على رحمة الله وإنه لمن الناجين ، ولكن من هذا الرجل ؟ فأجابنى : إنه أنا .. فقلت : هذا هو أغرب ما سمعت ، أو لست أنت جميل الذى يتغنى من عشرين سنة بجمال بثينة وحبها؟ فأجابنى : هأنذا فى آخر أيام الدنيا وأول أيام الآخرة :

لا والذى تسجد الجباه له ... مالى بما دون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ... ما كان إلا الحديث والنظر

وقالت سكينة بنت الحسين بن على لعزة يوماً : أريد أن أسألك عن معنى بيت كثير :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه ... وعزة ممطول معنى غريمها

فعرا عزة الخجل وقالت : « كنت قد وعدته بقبلة » فبادرتها سكينة قائلة : أسرعى بربك إلى الوفاء بها ولينزل علىّ وزرها .

وجملة القول أن الحب العربى الحق[1] — أى الخالص من كل أثر

(١) هذا النوع من الحب هو « الحب العذرى » ولم يكن معروفاً عند العرب فى العصر الجاهلى . راجع الدكتور طه حسين : « الغزلون والغزل نشأته وأسبابها » فى « حديث الأربعاء » جـ١ ص ٢٢٩ — ٢٤٠ طبعة الحلبى سنة ١٩٣٧ . (تحقيق)

أجنبي — حب شاعرى عفيف ، ساذج وعميق ، بسيط وجليل ، قوى الأثر عظيم الخفاء ، كل ذلك فى وقت واحد . ولقد أجاد الأستاذ ه. شانتافوان (H. Chantavoine) إذ يقول : « إنه تعبد حالم رقيق ، تنشط فيه العاطفة أكثر مما ينشط الحس ، ويختلط فيه احترام المرأة المحبوبة احتراماً يقرب من الحياء — دون جرأة أو عنف — بحمية الشهوة ، ويلمس الناظر فيه العينين قد خلبتا ، والجسد متألماً يحترق ، والقلب فوق هذا كله هو الذى يخفق ومع كل خفقة تتردد زفرة » .[1]

ولنبادر الآن إلى إكمال ما تقدم، منبهين إلى أن الحب لم يدم على هذا الحال ، وأن الأمور قد فسدت فيما بعد بل واشتد فسادها . فقد درس العرب الحب ، بل ومارسوه فى البداية وقدسوه كما مارسوا الدين وقدسوه ، ثم اتخذوه فيما بعد مادة للظرف والدعابة ، وأخيراً أسرفوا فى المجون . وتلك أطوار توازى ما طرأ من تغيرات متلاحقة على الأخلاق والتقاليد ، كما توازى تطور حال المرأة فى المجتمع العربى .

ولما كان الحب صورة تجلو روح الحبيب ، وتكون حتماً فى مستوى المرأة التى أوحت به — أصبح لزاماً علينا أن نتناول بالبحث حال المرأة الاجتماعية قبل الإسلام وبعده .

---

(١) صحيفة « الديبا » ٢١ أكتوبر ١٩١٣ .

٢

المرأة الأوروبية فى العصور الوسطى والمرأة العربية فى الجاهلية

من المفيد — فيما يبدو لنا — أن نوازن بين المرأة العربية والمرأة الأوروبية فى القرون الوسطى ، وأن نرسم الصورة المادية والمعنوية لكلتيهما ، وأن ندرس حالة كل منهما فى الزواج كذلك . ولسوف تعيننا هذه المقارنة على تفهم حال المرأة العربية ، تلك الحال التى لم تكد تتحسن منذ القرن السابع . ولعل المرأة الأوروبية — إذ تتذكر فى أى درك كانت تتخبط حوالى القرن الثانى عشر — تحس بمزيد من العطف على أخواتها فى الشرق ، وتساعدهن فى اجتياز تلك المراحل الصعبة ، التى ما زال عليهن أن يقطعنها حتى يبلغن الدرجة التى بلغتها هى فى المجتمع الحديث ؛ وإنها لكريمة القلب ، خليقة بأن تمد يد العون لرفيقاتها التعسات ، وتقودهن قيادة سمحة يقظة فى طريق التحرر . ولئن لاحظت الشرقية بدورها أن الأوروبية لم تكن دائماً كما آلت إليه الآن ، فإنها لن تقنط من أن تفلح يوماً فى أن تضيف إلى فتنتها الطبيعية ألوان الزينة العقلية ، وأن تبارى بنات الغرب فى المعرفة والفضيلة ، كما نافستهن على مر الزمن فى التلطف والجمال والتحالى .

وإن قصص الفروسية وأشعارها لعامرة بصور النساء والفتيات ،

ونستطيع إذا استوحيناها أن نتبين نموذج المرأة الذى كان رائجاً خلال العصور الوسطى وخاصة فى فرنسا ، وذلك مثلا كما توحى به اللوحة التالية:

سواء كانت تدعى « الايس » أو « ايجلانتين » أو « بلانشفلور » فهى بيضاء وردية ، كزهرة اللوتس ووردة الربيع ، شعرها من ذهب مجدول ، وجيدها كالعاج مصقول ، يعلوه وجه منتظم القسمات مستدير ، يشرق بجبهة بيضاء ملساء كالبلور . وعيناها كلون البحر مرحتان باسمتان ، يزينهما حاجبان منفرجان ، فلا تقلان عن عينى الصقر جمالا . وهى كأنها الطفل ، شفتاها كنور الخوخ ، دقيقة الفم ، منظومة الأسنان ، عطرة الأنفاس كمبخرة تتوهج أمام المذبح . وذراعاها أقرب إلى الطول ملفوفتان ، ويداها بديعتان بيضاوان ، وقدماها رشيقتان . نحيلة الخصر ، ناهدة الصدر ، منخفضة الأوراك ، ممشوقة القوام[1] . .

ويقابل هذه ، لوحة عربية من القرن السابع ، أسوقها إليكم دون أن ألمسها . . . ولعلنا نلاحظ بالمقارنة بينهما — إذا استثنينا سمرة العربية وشقرة الفرنسية — قوة التشابه بينهما إلى حد أوقع الفرنسيين والعرب فى لبس ، وإن كانوا به سعداء . وتروى لنا قصص الفروسية وأخبار الحروب الصليبية أكثر من مغامرة عاطفية نرى فيها فرساناً مسيحيين يتيمون بسيدة عربية ، كما نرى « بلانشفلور » و « إيجلانتين » بل والملكة « اليونور » ذاتها يؤثرن بحظوتهن بطلا عربياً عريق النسب ، كريماً . . . ولكن لنعد إلى لوحتنا :

---

(١) انظر جوتييه ، ص ٣٧٥ وما يليها .

عند ما أراد الحارث بن عمرو بن حجر ملك الكنديين ، أن يطلب يد الخنساء بنت عوف — وقد سمع آيات الثناء على جمالها — أرسل إليها امرأة محنكة داهية ، وهو يقول لها : « اذهبي وجدى فى أن تصفى لى بنت عوف هذه التى يتحدث الناس بها » . فكان ما قالته تلك المرأة الخبيرة بالمفاتن لمليكها ، عن الخنساء بعد إذ عادت من لدنها[1] : « رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل . ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم أوسوّدا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين الظبية العبهرة[2] التى لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصد ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان فى بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم فيه ثنايا غر ذوات أشر ، وأسنان تبدو كالدر وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يبين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقاً كالشهد . تحت ذاك عنق كابريق الفضة ، ركب فى صدر تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم

---

(١) العقد الفريد ج ٦ .
انظر بيرون : النساء العربيات ص ٥٢٥ .
(٢) الجامعة للحسن .

يحس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، وتركب الفصوص فى حفر المفاصل . وقد تربع فى صدرها حقان كأنهما رمانتان ، من تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى [١] المدمجة [٢] ، كسى عكنا [٣] كالقراطيس المدرجة . تحيط تلك العكن بسرة كمدهن العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ، ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانخزل [٤] تحته كفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص [٥] رمل لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان ، كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان خدلجتان [٦] كالبردى وشيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، ويحمل ذلك قدمان كحذوة [٧] اللسان تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما . . . »

وحسبنا هذا « الجرد القانونى » الشاعرى الدقيق ، الذى قامت به عربية من العصر الجاهلى ، لتبيان العناصر التى كانت — وما زالت — تؤلف جمال امرأة ؛ فإن الذوق لم تتغير قواعده كثيراً فيما يختص بهذا الموضوع ..

---

(١) نوع من الثياب المنسوبة إلى قبط مصر .
(٢) الملفوفة .
(٣) عكن : مفرده : عكنة بالضم ، ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .
(٤) المراد : أنه خصر دقيق رقيق .
(٥) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة ، أو الكثيب منه .
(٦) ممتلئتان .
(٧) الحذوة : قطعة اللحم .

وهذا هو عربى من غطفان يصف للخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥– ٧٠٥) ما ينبغى الكلف به من محاسن النساء ، فلا نكاد نرى فيما وصف أدنى اختلاف عما سبق ، يقول العربى [١] :

« خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، درماء [٢] الكعبين ، مملوءة الساقين ، جماء [٣] الركبتين ، لفاء الفخذين ، ناعمة الأليتين ، منيفة المأكمتين [٤] ، بدّاء الوركين ، مهضومة الخصرين ، ملساء المتنين [٥] ، مشرفة ، مفعمة [٦] العضدين ، فخمة الذراعين ، رخصة [٧] الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء [٨] الحاجبين لمياء [٩] الشفتين ، بلجاء [١٠] الجبين ، شماء العرنين [١١] ، شنباء [١٢] الثغر ، حالكة الشعر ، غيداء [١٣] العنق ، عيناء العينين ، مكسوة البطن

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٠٨ .
(٢) داراهما اللحم .
(٣) كثير لحمها .
(٤) المأكة لحمة على رأس الورك .
(٥) المراد ناعمة الظهر .
(٦) ممتلئتهما .
(٧) ناعمتهما .
(٨) حاجباها دقيقان طويلان .
(٩) فيهما سمرة .
(١٠) مشرقة مضيئة .
(١١) العرنين : الأنف .
(١٢) عذبة الأسنان .
(١٣) يميل وينثنى ليناً .

ناتئة الرَّكَب (١) . »

والآن وقد قدمت لكم المرأة العربية ، والمرأة الفرنسية فى القرن الثانى عشر ، وكلتاهما حسناء مرحة رشيقة لطيفة ، فلعلكم ترغبون فى أن تتوثق معرفتكم بهما ، فتقفون على ذوق كل منهما ومزاجها ومشاغلها ، وتنفذون إلى أعماق قلبها ونفسها ، حتى تتحققوا من أن ذلك الغمد الثمين إنما يضم سيفاً نفيساً وأن ذلك الحسن الطبيعى البادى يوازنه حسن أخلاق كريم .

وإنه لمن العسير دائماً أن ترسم صورة أخلاقية ، ولا سيما إذا كانت صورة امرأه ، ومع ذلك فسنحاول هذا الأمر مبتدئين بالمرأة الفرنسية :

تلك التى تفتن العيون من أول نظرة وتحظى بجم الثناء ، يود الناظر إليها أن يعترف لها جملة بجميع المكارم والفضائل . ولكننا إنصافاً للحق نقول : ليس الكمال من شيمة البشر ، ولقد كان للفتاة الفرنسية — فى العصور الوسطى — مثالب ، حولتها طبيعتها الصريحة الجميلة إلى محاسن جزلة محببة. يقول جوتيه : « إذا رجعنا إلى شهادة الشعراء القدامى ، نجد أن الفتيات وقحات مستهترات لا يطعن إلا عنف الغريزة ، ويبدو أن المثل الأعلى الذى اتخذنه أسوة لهن هو ابنة شرلمان » (٢) .

وينظر « مازوى » فى الأمر عن كثب فيقول : « كثيراً ما تذكر

---

(١) الركب : الفرج أو ظاهره .

(٢) جوتييه (Gautier) الفروسية . تعليق ص ٣٧٨ .

قصص الفروسية أن العرف كان يقضى بأن تعدم المرأة أو الفتاة التى تتهم بسوء السيرة. ولقد كان من النافع فى أثناء القرن الثانى عشر وإلى الرابع عشر — وهى عصور اضطراب وانحلال فى العائلة — أن يوضح الآباء للأبناء عبرة ذلك العقاب الذى خص به الأجداد الحب الآثم . . . ويبدى المؤرخون والشعراء أساهم وحسرتهم على حياة ربات القصور المنحلة ؛ فهنا فتيات يتبعن عشاقهن إلى خيامهم ، وهناك سيدات عريقات يستضفن فرساناً ويصلنهم كلما أغفى أزواجهن . . . ولقد كانت تتردد فى كل مكان أغنية تقول : « تباً للزوج الذى يدوم شهراً أو شهرين طويلين »[1] .

ويا لها من أخلاق فاسدة ، وإن كنا نرى أن النساء لا يحملن من وزرها إلا قدراً هيناً ؛ إذ هن إنما ينسجن سلوكهن على منوال سلوك الرجال أو هواهم . وقد اعتدنا أن نقول كلما ارتكب جرم : « فتش عن المرأة » ، فما بالنا لانقول حينما تخطىء المرأة : « فتش عن الرجل » ؟ فإن ذلك ليكون أكثر عدلا وإنصافاً .

وكيف يقال إن « الفتيات وقحات مستهترات » ؟ ومن المذنب الحقيقى وقد كان من الواجبات المفروضة عليهن أن يدلكن ضيوف آبائهن حتى يناموا ؟ يقول « ب . ماير » : « كان التدليك أثناء الرقاد عنصراً من كرم

(١) مازوى (Mazuy) : ترجمة « رولان الثائر » لأريوست ، ص ٢٢ .

الضيافة قديماً . وكانت شئون الضيافة من نوم أو استحمام متروكة للنساء. ولكننا نستطيع أن ندرك كيف أدت تلك الحفاوة — التى كانت فى الأصل عناية صحية خالصة — إلى العبث فى مجتمع كان أقل من مجتمعنا تحرجاً إزاء بعض الأمور ، لا بالأقوال فحسب ، بل وبالأفعال كذلك . . » [١]

ولعل المؤرخين والشعراء لو درسوا نظام الزواج فى عهد الإقطاع ، لكفكفوا أساهم وحسرتهم على حياة ربات القصور المنحلة — كما يعبرون — ولالتمسوا لهن العذر . . .

فلقد كان من شأن النظام الإقطاعى فى الواقع ، أن يؤثر فى الزواج تأثيراً سيئاً . إذ لم يكن الإقطاع — وهو « قطعة من الأرض تنهض بمسئولياتها خدمة عسكرية » — مما يتولى أمره النساء وهن لا يصلحن بطبيعة الحال للقيام بالحرب . ولما كان الدفاع عن الإقطاع أمراً هاماً ، فقد كان على الوارثة — فتاة كانت أو امرأة ناضجة — أن تتخذ لها زوجاً يصبح بالوكالة قائماً بأداء واجباتها . ولقد كان الزواج الشرعى فرضاً على الفتاة ، منذ تبلغ الثانية عشرة من عمرها (وذلك من ناحية المبدأ ، إذ أنهم كانوا يزوجون الأطفال فى الخامسة أو السادسة) وعلى الأرملة كذلك ، منذ أن ينقضى على وفاة زوجها النبيل ثلاثة أشهر أو ثلاثين يوماً فقط فى بعض الحالات . يقول شاتوبريان : « لم يكن بد لوارثة عريقة النسب من أن

(١) ب . ماير (P. Meyer) : رومانيا ، الجزء الرابع ، ص ٣٩٤ .

تتزوج لضمان تصريف الأمور فى الإقطاع ، كما نرى اليوم النساء المشتغلات بالتجارة يتزوجن كبير عمال المتجر إذا مات الزوج ليتصل نشاط المؤسسة » (١) .

على أن المرأة المشتغلة بالتجارة تتمتع اليوم بحرية الاختيار ، بينما كانت الإقطاعية التابعة ملزمة أن تتزوج كما يريد لها الأمير ؛ فكان يحدث أن تخير بين ثلاثة فرسان ، هم مجرد ثلاثة أسماء ، غير أنها كانت فى أكثر الأحيان تسلم هى وما ملكت يداها لأحد المقاتلين الذين يرغب الأمير فى أن يكافئهم على حسن بلائهم . فكيف كان يمكنها إذن أن تحب هذا الرجل الذى قد فرض عليها فرضاً ؟

ولقد كان الطلاق يتم بتلك السهولة نفسها . فلقد «كان من المحرم عقد الزواج بين من تجمعهم القربى حتى الدرجة السابعة — وذلك قبل انعقاد مجتمع لاتران سنة ١٢١٣ — وقد أباح هذا المجمع الزواج حتى الدرجة الرابعة . غير أن هناك روابط القربى الروحية التى كان حكمها كحكم القربى الصحيحة . فكان يحدث أن يكتشف الزوجان فجأة بعد انقضاء بضع سنين على زواجهما ، أنهما قريبان ، مما يوجب الطلاق حرصاً على الأخلاق الفاضلة والدين » (٢) .

ورب قائل يقول عن تلك العصور : إنها كانت إذن عصور اضطراب

---

(١) تحليل وشرح لتاريخ فرنسا . ص ٨٩ .

(٢) جوتييه : المرجع السابق ذكره .

واختلال فى العائلة ! وهو على حق فى تساؤله ؛ إذ كيف يتوفر لها أن تكون حينئذ على غير ذلك وقد كان الزواج ينعقد ثم ينحل على النحو الذى رأيناه ، والرجال لا يضمرون للنساء احتراماً بل يزدرونهن أعمق الازدراء ؟ لقد كانوا يفضلون عليهن جواداً كريماً [١] ، أو طعنة نجلاء تسددها حرابهم . وكانوا يرددون دائماً أن « من الجنون أن تثق بامرأة » ، « وأن الندم عاقبة من يمعن فى تصديق امرأته » وأن « المرأة وثمرة الشمام لا يمكنك معرفتهما جيداً » ! إلى غير ذلك من الكلمات اللاذعة . بل لقد كانوا يمنعون المرأة من أن تتقدم أمام القضاء أو أن تعقد عقداً دون موافقة زوجها . وفوق ذلك ، حمل الذكاء الشارع على أن يخصص حالتين يجوز فيهما للزوج أن يضرب زوجته : وهما « حالة الزنا وحالة عصيانها لإرادة البارون » . وكان العرف أرحب صدراً . . إذ نرى الإمبراطور بيبان (Pépin) — فى قصة (موت جاران) ص ١٠٢ — يضرب زوجته حتى ينزف الدم من أنفها ، لأنها طلبت منه أن يغيث أهل « اللورين » ، وهى راضية بهذا العقاب الجائر ، بل ونسمعها تسأل زوجها فى ذلة أن يضربها ما طاب له الضرب ! . . ولا شك فى أن رعايا الإمبراطور كانوا يقتدون به فى هذا الشأن ، ويتخذون من مسلكه مثلا أعلى يحتذونه . وتشهد بذلك

---

(١) دميه (Demay) ص ٤٢ : « كان الاعتقاد المأثور بنقص الأنثى سائداً فى الفروسية . فكان الفرسان لا يعتدون إلا بالحصان ، وينبذون الفرس ويتركونها للأعمال العادية . وكان من العار على الفارس أن يمتطى صهوة فرس » .

تلك الحكمة التى صاغها « لرو دى لانسى »(Leroux de Lincy) فى العبارة التالية :

« إذا ضربت زوجتك مرة نهقت ، وإذا ضربتها مرتين صمتت » .

وبالرغم من تلك الحطة التى لا سبيل إلى إنكارها ، فإن المرأة قد استطاعت – بفضل دهائها ومثابرتها – أن تصبح شريكة الرجل ، وقسيمه ورفيقته ونظيرته ، ثم أفلحت بالسعى رويداً رويداً فى أن تسم العصور الوسطى بطابعها ، وأن تخفف بلطفها عنت تلك القرون، قرون السنان والطعان . فاستأنست المقاتل الجلف وروضته ، وسحرته وهذبته ، وجعلته فى آخر الأمر يسجد عند موطئ قدميها مؤمناً ورعاً يبتهل للحب والجمال .

فخذن العظة يا نساء الشرق وتعامن ، يا من تقررن مصير الأرض !

* * *

ولسنا فى حاجة إلى الإغراق فى أبحاث علمية كى نحدد الدائرة التى تنحصر فيها معارف المرأة العربية . فقد كانت الخيمة مدرستها ، والطبيعة أستاذها ، وهى تخيط وتنسج ، وتعنى بشئون بيتها ، وتربى أطفالها ، وتغنى لهم حتى يناموا . وهى تعرف الأنساب كما سمعتها على لسان أبيها ، فتذكر تاريخ القبيلة المجيد ، وسلسلة الأجداد، ومواقف الأبطال ، وجيد الأشعار. وهى بتطلعها إلى السماء ومراقبة السائمة ، استطاعت أن تلم بسير الكواكب وطبائع الحيوانات الأليفة وتكوين أجسامها ، وأن تميز النبات الطيب من الخبيث . وهى تشترك فى أعياد القبيلة ومآتمها ، فتعرف كيف ترثى فى

نبرات رخيمة مؤثرة بطلا من أهلها كان أباً لها أو زوجاً أو ولداً أو أخاً .
وهى فصيحة بفطرتها تضيف كلماتها إلى روعة ما تتحدث عنه روعة
وسحراً ، فيصغى إليها الرجال خاشعين مفتونين .

والعربية عفيفة حرة أبية ، نافرة . وهى ابنة مطيعة ، وأخت
ودود ، وزوجة حانية ، وأم متباهية ، تحب أمجاد البطولة فى الحرب ،
وتحب التضمخ بالمساحيق والعطور . وهى ذات دل تستخدم مفاتنها
لإثارة الحماسة وإلهاب الحمية ، وإلهام الشعراء ، وإحداث البطولات
وصنع الأبطال. وفى سبيل استرضائها، والفوز بإعجابها وحبها، وحمايتها[1]
يصبح المرء فارساً كاملاً ومقاتلاً لا يعتريه خوف ، وشاعراً مفلقاً ، وجواداً
متلافاً ، وعاشقاً متيماً . وهكذا كان لكل بطل من أبطال العرب الأقدمين
امرأة يدين بحبها ، وكانت قصائدهم التى تتغنى بمعمعة الوغى ونشوة النزال
تبدأ بتحية أو بابتسامة يرسلها الشاعر لحسنائه . وقد بلغ من تمكن عادة
التودد هذه أن أصبحت — قبل الإسلام بزمن طويل — قاعدة تكاد تكون
ثابتة فى قرض الشعر . فقد كان من اللازم حينئذ أن تضم كل قصيدة

---

(١) فقد وقف ربيعة فى مدخل شعب قديد رغم جراحه لحماية قافلة النساء التى كادت تقع فى أسر العدو حتى تحققت لها النجاة وقضى هو نحبه على صهوة جواده والرمح فى يده .

وفى يوم ذى قار (عام ٦١٤) بين البكريين والعجم وقد كانت النساء فى مؤخرة الجيش العربى لإثارة حمية الرجال ، قطع حنظلة أربطة الهوادج حتى يستميت كل بكرى فى قتال عدوه وحماية امرأته التى لم يعد من منجى لها .

(قديمة أو حديثة) أبياتاً خاصة فى الإشادة بمحاسن الحبيبة وعهد وصالها أو الشكوى من تدللها وصدودها . وقد جرى الشعراء على الاستهلال بهذا النسيب . وفيما يلى بعض الأمثلة لذلك ، وقد اخترناها من المعلقات السبع ، وهى أروع القصائد العربية فى العصر الجاهلى ، وقد اتخذت نماذج للشعر التقليدى .

يقول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

... ...

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قدأزمعت صرمى فأجملى

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

... ...

وإن تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال طرفة :

وفى الحى أحوى[1] ينفض المرد[2] شادن[3]   مظاهر سمطى[4] لؤلؤ وزبرجد

---

(١) فى شفتيه سمرة .
(٢) الغصن من ثمر الأراك .
(٣) الغزال .
(٤) خيط العقد .

خذول تراعى ربربا بخميلة [١] تناول أطراف البرير [٢] وترتدى
وتبسم عن ألمى كأن منــورا تخلل حر الرمل دعص [٣] لهندى
سقته أياة [٤] الشمس إلا لثاته أسف ولم تكدم عليه بإثمد [٥]
ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقى اللون لم يتخــدد

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تــكلم بحومانة الــدراج فالمتثــلم
... ...
فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم

وقال عنترة :

يا دار عبلة بالجــواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى
... ...
إن كنت أزمعت الفراق فإنمــا زمت ركابكم بليل مــظلم
... ...

---

(١) تركت أولادها وذهبت ترعى مع صواحبها فى هذه الخميلة .
(٢) ثمر الأراك البالغ (أى تتناول أطراف الأراك وترتدى بأغصانه)
(٣) كثيب الرمل .
(٤) شعاعها .
(٥) الكحل . والكدم : العض .

إذ تستبيك بذى غروب واضح　　عذب مقبله لذيذ المطعم
وكأن فارة[١] تاجر بقسيمة　　سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها　　غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وقال لبيد :

شاقتك ظعن[٢] الحى حين تحملوا　　فتكنسوا[٣] قطناً تصر خيامها
بل ما تذكر من نوار وقد نأت　　وتقطعت أسبابهـا ورمامها[٤]
مرية حلت بفيد[٥] وجاورت　　أهل الحجاز فأين منك مرامها
فاقطع لبانة[٦] من تعرض وصله　　ولشر واصل خلة[٧] صرامها[٨]

وقال عمرو بن كلثوم :

تريك إذا دخلت على خـلاء　　وقد أمنت عيون الكاشحينا

---

(١) المقصود رائحة المسك .
(٢) المقصود نساء القبيلة .
(٣) المقصود دخلن الهودج .
(٤) جمع الرمة وهى قطعة من الحبل خلقة ضعيفة .
(٥) اسم بلدة .
(٦) الحاجة .
(٧) المودة والخليل .
(٨) قطاعها .

ذراعى عيطل[١] أدماء بكر ... هجان[٢] اللون لم تقرأ جنينا[٣]

ومثنى لدنة سمقت وطالت ... وكشحا قد جننت به جنونا

وساريتى[٤] بلنط[٥] أو رخام ... يرن خشاش حليهما رنينا

... ...

فما وجدت كوجدى أم سقب[٦] ... أضلته فرجعت الحنينا

تذكرت الصبا واشتقت لما ... رأيت حمولها أصلا حدينا

وقال الحارث :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

بعد عهد لنا ببرقة[٧] شما ... ء فأدنى ديارها الخلصاء[٨]

فالمحياة فالصفاح فأعنا ... ق فتاق فعاذب فالوفاء[٩]

فرياض القطا فأودية الشر ... ب فالشعبتان فالأبلاء[١٠]

لا أرى من عهدت فيها فأبكى ... اليوم دلها[١١] وما يحير البكاء[١٢]

---

(١) الناقة الطويلة العنق البيضاء .

(٢) الأبيض الخالص البياض .

(٣) لم تحمل .

(٤) الاسطوانة .

(٥) العاج .

(٦) السقب : ولد الناقة .

(٧، ٨، ٩، ١٠) هذه كلها مواضع عهد بها .

(١١) الدله : ذهاب العقل .

(١٢) المراد : أن البكاء لا يفيد ولا يرد شيئاً .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت المرأة الجاهلية فى منزلة تُحسب أدنى من منزلة الرجل . فلقد كانت فى حماه وكأنها متاع يمتلكه . وكانت تخضع لسلطة أبيها ، وفيما بعد لسلطة أبنائها ولا سيما ابنها الأكبر. غير أن هذه السلطة التى تكبحها العاطفة ، كانت حملا هين الوطأة على المرأة .

ولم تكن تبعية المرأة فى أكثر الأحيان إلا عنواناً ضخماً يرضى به الرجل غروره . فلقد كانت للعربية فى الواقع شخصيتها ؛ فهى باسلة شجاعة ، وما كانت لتبكى موتاها حتى يثأر بهم ، وكانت تتبع زوجها إلى ميدان القتال [١] تحمل الماء لتسقى المحاربين ، وتقرع الدف ليستر الضجيج حشرجة المحتضر ويحث الرجال على التناحر ، وتعنى بالجرحى ، بل وكثيراً ما كانت تشترك فى المعركة وفى النصر اشتراكاً إيجابياً حاسماً .

والأمثلة لذلك عديدة ، أسوق منها موكباً من البطلات إن شئتم :

فهاتان هما ابنتا الشاعر البكرى ، عذراوان حسناوان نافرتان ، تريان

---

(١) من معلقة عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بعض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً	إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أفراساً وبيضاً	وأسرى فى الحديد مقرنينا
... ...	... ...
إذا ما رحن يمشين الهوينى	كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم	بعولتنا إذا لم تمنعونا
ظعائن من بنى جشم بن بكر	خلطن بميسم حسبا ودينا

فى « يوم النواصى » كتائب قبيلتهما متخاذلة ، فترتميان فى معمعة الوغى ، عاريتين تقريباً ، وترتجلان صيحات رائعة ... وبالسطوة الجمال وصنعه، فإن النصر يذعن لسحر الفارستين الحسناوين وينتظم منصاعاً فى صف البكريين .

وهذه عمرة بنت علقمة التى تلقفت الراية حين سقطت فى وطيس موقعة أحد ، ونشرتها ، وهى تسخر من المقاتلين المترددين حتى تقودهم إلى الظفر .

وفى موقعة أحد ذاتها تنشد هند :

نحن بنـــات طـــارق إن تقبلـــوا نعـــانق
ونفـــرش النمـــارق أو تـــدبروا نفارق
فـــراق غير وامـــق

وكان النساء فى مؤخرة الجيش يرددن ترديد الجوقة ، وهن يقرعن دفوفهن :

ويها بنى عبـــد الدار ويهـــا حمـــاةالأدبار
ضرباً بكل بتـــار

وهذه أيضاً أسماء بنت أبى بكر ، حوصر ولدها فى مكة (نحو سنة ٦٩٢م) وخطر له أن يستسلم إذ نضبت موارده وخشى أن يمثل به

الأعداء بعد أن يقتلوه . . فجاء إلى أمه يطلب الرأى لديها ، فأبت عليه التسليم قائلة : « يا بنى ، عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ، ولا يهمنك ما يفعلون بك بعد موتك ، فإن الشاة لا يضيرها بعد ذبحها أن تسلخ . . »

وحين جرح ربيعة فى معمعة الوغى (فيما بين سنة ٥٨٠ وسنة ٦٠٠م) اضطر إلى أن يلحق بركب النساء وهو يقول لأمه « أم سيار » : « ضمدى جرحى . فلقد أصابوا منك مقتلا فى ولدك » فأجابته الأم : « لهفى عليك ، ولكنا هكذا نفقد أشجع حماتنا . ونحن وإن كنا لا نرى كارثة أشد منها ، إلا أنا قد اعتدناها » . وكانت وهى تضمد جرح ولدها الذى سألها أن يشرب تقول له : « إذا شربت يا ولدى مت فى الحال ، فخير لك أن تمضى سريعاً لمهاجمة العدو » [1] .

ونحن نخشى إذا أكثرنا من إيراد الأمثلة لذلك ، أن يصبح حديث الشجاعة حديثاً معاداً ممجوجاً . ولقد صدق « لامارتين » إذ قال : « إن النساء بطبيعتهن يتحمسن تحمس الشعراء ، ويستبسلن استبسال الأبطال » .

ولقد نشبت مئات الحروب وكان أول أسبابها امرأة . ولكن ذكرى هؤلاء النساء — وبينهن « هيلين » الحسناء — لم تكن بالذكرى الملعونة ، بل إنها لذكرى عطرة ، تنشر فى جو القتال المقدس شذى الشهامة الكريمة . فما كان المحاربون يشنون الحرب لرد امرأة إلى زوجها ، بل لحماية

---

(١) كوسان دى برسفال ، الجزء الأول ، ص ٥٤٥ .

ضعفها ، والذود عن فضيلتها ، ووقاية شرفها وعرضها من كل دنس .

لقد شن البكريون على التغلبيين حرباً ضروساً دامت على أقل تقدير أربعين عاماً ، وكانت تلك هى حرب البسوس التى كان من سببها أن « البسوس » خالة جساس بن مرة ، أطلقت ناقتها ، فوردت ماء كليب بن وائل وسط إبله . فصرعها ، فاستنجدت ، فهب جساس إلى نجدتها ، فصرع كليبا . . وثارت تلك الحرب التى اشتهرت « بحرب البسوس » واستمر أوارها كما ذكرنا أربعين عاماً (سنة ٤٩٤ — ٥٣١م) .

كما كان سبب قيام حرب الفجار الثانى ، أن فتية قعدوا إلى امرأة من بنى عامر بن صعصعة وضيئة ، بسوق عكاظ ، وكان عليها برقع وهى فى درع فضل ، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر ثوبها بشوكة إلى ظهرها وهى لا تدرى . فلما قامت تقلص الثوب عن دبرها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها . . فنادت المرأة : يا لعامر ! فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة ، فحقنها حرب بن أمية وأصلح بينهم (٥٨٠م) [١] .

ولحرب « البراق » كذلك أصل روائى رائع : فقد بلغ أسماع كسرى ملك الفرس ثناء جم على جمال ليلى العفيفة ، فقرر أن يضيف إلى كنوز « حريمه » درة بنى ربيعة هذه ، وأرسل وفداً تحف به فرق غفيرة من الجند

---

(١) العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٥٢ . (تحقيق)

يطلب إلى « لكيز » يد ابنته ليلى ــ وكان العرب يعتبرون مصاهرة الأجنبي عاراً أى عار ، حتى ولو كان أميراً أو ملكاً ــ فرفض لكيز مطلب كسرى ، فاختطف جنوده ليلى واقتادوها إلى بلاد فارس . وهناك منحت قصراً تستريح فيه من وعثاء السفر واضطراب النفس . وسعى أهل القصر بكل وسيلة ليحملوها على معاشرة الملك . . . يتوسلون باللين تارة ، وبالوعيد أخرى ، ثم بألوان الإرغام والحرمان أخيراً . ولكنهم لم يفلحوا فى التأثير على الحسناء الثائرة العنيدة ، التى انبعثت أناتها فى أبيات بسيطة رقيقة تخاطب فيها ابن عمها وحبيبها البراق وقبيلتها بنى ربيعة قائلة :

ليت للبراق عينا فترى	ما ألاقى من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلا إخوتى	يا جنيداً أسعدونى بالبكا
عذبت أختكمو يا ويلكمو	بعذاب النكر صبحا ومسا
قيدونى غللونى ضربوا	ملمس العفة منى بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربنى	ومعى بعض حشاشات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا	كل ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيكمو	ويقينى الموت شيء يرتجى
أحذروا العار على أعقابكم	وعليكم ما بقيتم فى الدنا

ولقد هزت هذه الأبيات مشاعر العرب وحركت عواطفهم ، فانضموا جميعاً إلى قبيلة بنى ربيعة وهبوا يحاربون الفرس . وبعد أحداث شتى ،

تم خلاص ليلى العفيفة ، وتزوجت الفتى الذى كان يحبها وكانت هى تحبه ، وهو ابن عمها البراق !

ولم تكن النساء لتقل عن الرجال شجاعة وأريحية ونبلا .

فهذه فاطمة أم الكاملين — حينما أسرت فى غارة شنتها جماعة معاوية — تلقى بنفسها من فوق ناقتها ، دافعة برأسها أولا ، وتنتحر ، إذ أبت على سوء حظها أن يلوث اسمها وأسماء أبنائها ، وآثرت الموت على أن تحوم ريبة حول عرضها ، فكانت أشد اعتزازاً بنفسها من « لوكريس».

وهذه ريثة — أرملة ربيعة — ترغم قبيلتها على أن تفرج عن دريد ، وتمنحه بنفسها ملابس وسلاحاً . ذلك أن دريداً فى لقاء سابق ، كان قد أبدى مروءة نحو ربيعة ، فحرصت ريثة على أن تثبت له عرفانها بالجميل.

وهذه الحسناء « بحيصة بنت عوف » ، فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، ترفض أن يتم زواجها ما اتصلت الحرب بين العبسيين والذبيانيين، ونسمعها ترد زوجها المتودد المتلهف قائلة : « إنك لا تفكر إلا فى لذة الزواج والاستمتاع به ، بينما العرب يتقاتلون ؛ ولقد كان أولى بك أن تسعى بين تلك القبائل المتعادية ، لترسى السلام بينها ، حتى إذا أديت عمل الرجل النبيل الكريم الأصيل ، عدت فوجدت زوجتك وذقت أحلى متع الزواج » . فيسرع الحارث نحو القبائل المتعادية ، متحمساً لهذه الفكرة السامية ، مضطرم الوجدان ، تذكى جذوته أكرم العواطف ، ويفلح بحكمته فى حمل القوم على إقرار السلام .

وإن من الظواهر ما يجلو لنا ملامح الشعوب : فلقد كان لليونان حكماء من الرجال ، وكان للعرب حكماء من النساء أيضاً ، ومنهن سكر بنت لقمة وجمعة بنت حابس ، وخصيلة بنت عامر ، وهند بنت القس ، وخزام بنت الريان . . .

ولقد روت لنا روما ذكرى أم « الجراك » التي كانت تفتخر بأن تشير إلى أبنائها وتقول : « ها هي ذى دررى» . وإذا كانت « كورنيلى»[٢] أيضاً قد باتت مضرب المثل فى روما ، فقد عرضت بلاد العرب أكثر من أم تضرب بها الأمثلة . لقد كان لدى العرب « الأمهات السعيدات » أى اللواتى أنجبن أبطالا . وقد حفظ لنا التاريخ ثناءه على ثلاث منهن : حبية بنت رياح من قبيلة بنى رانى ، وماوية بنت مناة من قبيلة بنى دارم ، وفاطمة امرأة زياد التى لقب أبناؤها السبعة بنعوت الحمد ؛ فكان الأول يلقب بالكامل والثانى الوهاب والثالث أنس الفوارس والرابع البرد والخامس الحرون والسادس اللاحق والسابع الدارك [١] .

وقبل أن تظهر ندوات دار « رامبوبيه » (Rambouillet) بنحو عشرة قرون ، كانت لبلاد العرب خيماتها الأدبية والفنية حيث كان يحتكم أدباء العصر إلى امرأة من أهل الذوق والمعرفة . ولما كنا قد أسلفنا الحديث

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٩ .

عن الأحكام التى كانت تصدرها سيدات الغرب فى محاكم الغرام ، فمن الإنصاف هنا أن نذكر مثلاً الحكم الذى أصدرته « أم جندب » فى المفاضلة بين شاعرين كان أحدهما زوجها :

فقد كان علقمة بن عبدة من تميم معاصراً لامرئ القيس ، وينازعه الشعر ، فتحا كما مرة إلى أم جندب زوجة امرئ القيس ، فاقترحت عليهما أن ينظما قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة فى وصف الخيل .. فنظم امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب   لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وكأنما أراد بهذا المطلع ، التأثير على زوجه بتحريك عواطفها .. بيد أن تأثير الحق على أم جندب ، كان أكبر ، فلم تحفل بإثارة العواطف ولا بالصلة الزوجية ؛ فلما سمعت قصيدة علقمة التى مطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب   ولم يك حقاً كل هذا التجنب

حكمت له وأيدت حكمها بالبرهان ؛ ومن ذلك أن امرأ القيس لما وصف سرعة فرسه علق هذه السرعة على إجهاد الفرس بالسوط إذ قال :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع أخرَج مُهزب

وأما علقمة فإن فرسه أدرك طريدته وهو ثان عنانه حيث يقول :

فأدركهن ثانياً من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

ولقد أثر هذا الحكم على امرئ القيس حتى طلق أم جندب ، كما أثر على علقمة فاستحسن أن يعوضها بنفسه زوجاً ، اعترافاً بحريتها وتقديراً لإدراكها وعدالتها . .

ويقول الأستاذ « كامبو » (Campeax) ، فى كتابه « مسألة النساء فى القرن الخامس عشر » : « اعترفت معاهدة بيجور » (Bigorre) . المعقودة سنة ١٠٩٧ للسيدات بنفس الامتياز الذى كان للكنائس ؛ ألا وهو حق حماية اللاجىء ، فكان المستظل بثوب سيدة كالمستظل بحصن منيع ، وكان من يلوذ بأقدام سيدة يضمن سلامته ، ولا بأس عليه إلا أن يعوض ما أفسده » [١] .

أما فى بلاد العرب فإنه لم تعقد معاهدة من هذا القبيل ، وإنما جرى العرف من قديم على الاحتفاظ للنساء بحق حماية اللاجىء حماية فعلية وفعالة ، تعود على المذنب بالعفو ، وتبقى للأسير فى ميدان الوغى حياته وحريته .

لقد مضى مسعود ، أحد زعماء قيس ، قبل أن يشن معركة عكاظ (حوالى سنة ٥٨٠ م) يقول لزوجته : « سوف أمنح الأمان لكل قريشى

---

(١) ص ٦ ، ٧ .

يلوذ بخيمتك » . فراحت تجمع رقعاً من القماش توسع بها خيمتها لتفسح المجال لأكبر عدد من اللاجئين . ولكن زوجها أعلن لها بأنه لن يبقى إلا على عدد من الرجال لا يتجاوز ما تحتويه خيمتها بحجمها الأصلى؛ فأجابته قائلة : « قد يأتى وقت تتمنى فيه لو كانت خيمتى أفسح رحاباً ».

ولقد تحقق ذلك ، فقد كان مسعود — رغم شجاعته — مغروراً فاندحر ، وهرع هو والذين فروا معه فلاذ بخيمة زوجته . فلما أقبل « حرب » قائد القريشيين ، قال : « يا أخت أبى ، إنى أمنح الأمان كل من يدخل خيمتك ، أو يلمس حبلا من حبالها ، أو يطوف حولها » .

وإذ ذاك رددت زوجة مسعود بصوت مرتفع تصريح القائد الظافر ، وأرسلت أبناءها الأربعة ليبحثوا عن الذين لم يجدوا ملجأ يدرأ عنهم شر المطاردة . وسرعان ما التأمت حول الخيمة الحرام حلقة واسعة من الهاربين تولت هى خدمتهم ، وأمنهم « حرب » جميعاً على سلامتهم وحريتهم [١].

وكان أبو العاص — وهو الذى تزوج زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم فرق الإسلام بينهما — قد وقع أسيراً مع قافلته ، وسيق معهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجار أبو العاص بزينب ، فوعدته خيراً ، وانتظرت حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر بالمسلمين ، ثم وقفت على بابها — فى المسجد — فنادت بأعلى صوتها : «إنى قد أجرت أبا العاص ابن الربيع » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) راجع كوسان دى برسفال : بحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام .

أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ » قالوا: « نعم ».قال: « فوالذى نفسى بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذى سمعتم . المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت » [١] .

وما زال أثر المرأة هذا قائماً حتى اليوم لدى البدو على أقل تقدير . ويكفى أن أستشهد بمثل واحد أستقيه من كتاب القائد « دوما » — الذى نشر بعد وفاته — وهو من القلائل الذين عرفوا أخلاق عرب الجزائر وعاداتهم . يقول :

« خرج أولاد يعقوب يلتمسون غنيمة ، فكشفوا مخيماً لأولاد نائل الذين كانوا يناصبونهم العداء ، فقرروا أن يهاجموهم فى الحال . وكان القوم حشداً غفيراً ، فلم يتعسر عليهم أن يحدقوا من كل جانب « بالنزلة » التى جمع أولاد نائل فى وسطها كل قطعانهم . ولما رأى أولاد نائل أن عدواً يفوقهم عدداً وبأساً قد حاصرهم ، لم يفكروا فى المقاومة ، بل مضوا ينشدون السلامة فى حمى النساء ، أى فى ذلك الاحترام الذى لا شك يكنه لهن الفرسان .

وأسرعت أربع حسناوات من نساء النزلة ، مهدلات الشعور ، محلولات الأحزمة نحو جهات المخيم الأربع ، وتصدين للعدو صائحات :

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧ .

والمرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ج ٢ ص ٥٢ . وقد عاد أبو العاص بعد ذلك إلى مكة فأدى الحقوق إلى أهلها، ثم آب إلى المدينة مسلماً ، فرد عليه النبى زوجه (تحقيق)

« هذا الجانب فى حماى ، والفارس الباسل من يرعى حرمة النساء . »

فلما رجع المهاجرون إلى قبيلتهم ، انهالت عليهم الأسئلة ، إذ عادوا صفر الأيدى ، مما أثار سخرية المستطلعين. ولكنهم أجابوا دون انفعال :

« لقد أصبنا أعداءنا ، وظهرنا عليهم ، إلا أن أربع نسوة استرددنهم بقدرة ما لهن علينا من حرمة » .

وأضافوا : « إن عرض المرأة كوهج الشمس فى السماء ، يستحيل على البصر أن يحدق فيه » .

وقالوا أيضاً : « إنما ينبغي للمرأة من الاحترام والإجلال ما ينبغي لذوى السلطان ، ولو قد سألننا جيادنا لأعطيناهن إياها » .

ولقد نظر العرب فوق ذلك إلى دور النساء دائماً نظرتهم إلى البيت الحرام . وما لفظة « الحريم » — وهى التى انتقلت إلى اللغات الأوربية وفى نبراتها وحى من أسرار الشرق وملذاته — إلا كلمة تعنى « الممنوع » أو « المقدس » ، وأما « الحرمة » فتعنى فى وقت واحد المرأة والزوجة والشىء المقدس » الذى لا يحل انتهاكه .

على أن محيط الحماية التى اختصت بها المرأة لم يكن محدوداً بظل ثوبها أو بمضرب خيمتها أو نطاق دراها ، بل كان أبعد مجالاً وأشمل . فلقد كانت خصلة من شعر امرأة كالتميمة الواقية من المكاره ، أينما علقت أفشت السلام وكفلته . يقول الأستاذ كاترمير : « ولا ينبغى أن أنسى ذكر أنجع وسيلة استخدمها العرب إذا أحدق بهم الخطر وأرادوا الحصول

على حماية مقاتل أو أمير اشتهر بالشجاعة . فقد كان المرء منهم يجتز شعر امرأته أو قريبة له ويرسله إلى من استنجد به . ويقدم لنا التاريخ الشرقى عدة أمثلة لذلك : فبعد اغتيال الخليفة الفاطمى الظافر ، كتبت أخته تستغيث بالأمير طلائع بن رزيك، وطوت رسالتها على شعور من رءووس نساء القصر ؛ فلما دخل طلائع القاهرة ، أمر جنده بأن يرفعوا على رماحهم تلك الشعور التى أرسلت إليه ، مظهراً بذلك للشعب ما حازه من تقدير ومن ثقة فى صورة رائعة . وكذلك فعل عضد الدولة إذ حاصره الفرنجة فاستنجد بنور الدين وأرسل إليه قصة من شعور نسائه . وفى أثناء فتح الأتراك لليمن ، أراد « مظاهر » أن يستنجد بالعرب ، فأرسل إليهم شعور زوجاته وبناته وغيرهن من نساء المدينة التى كان والياً عليها . وكان الرجال الكرام إذا تلقوا مثل هذا الدليل على كربة قوم ، لا يتوانون فى إغاثة أولئك المستنجدين الذين وضعوا — على هذا النحو — فى كنفهم أعز ما لديهم فى الدنيا »[١] .

وإن فيما أسلفنا من استشهادات وأمثلة ، ما يكفى ليبين أن مجتمعاً منظما قد ازدهر فى بلاد العرب منذ القرن السادس ، وهو مجتمع تسوده فى آن واحد رقة الود والمجاملة وصرامة الحرب والفروسية ، وتنال فيه البنات والأخوات والزوجات والأمهات دلائل الحب والإعجاب والاحترام ، ويتم فيه كل

---

(١) كاترمير : مزاج من التاريخ وفقه اللغات الشرقية ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ : « مقالة فى الملاجىء عند العرب » .

شيء من أجلهن بل وبأيديهن، من حرب أو سلام ، ومن تاريخ أو أساطير ! ولا حاجة بنا إلى استعراض جميع فروع النشاط الإنسانى لنسمى من نساء العرب من شاركن فيها بنصيب ، فإنهن لعديدات أولئك اللواتى امتزن واشتهرن فى الشعر والسياسة وفى التجارة والصناعة وفى الطب وفنون الحرب وفن الخطابة ، فضلا عن الكهانة التى يبدو أنها كانت فى جميع بلاد الدنيا أو كادت تكون وقفاً على أفضل نصفى الرجل . ولسوف نقتصر هنا — بدلا من سرد قائمة من الأسماء قد تكون مملة رغم ما تعبق به أسماء النساء من عطر حلو — على تقديم مختارات قصيرة من المراثى النسائية. وبعد أن نتطهر فى هذا النبع الصافى من دموع شاعراتنا ، نستطيع أن نعالج موضوع الزواج فى الجاهلية ، وموضوع المرأة فى الإسلام ، والمرأة طبقاً لما ورد فى القرآن .

فهذه أميمة بنت عبد شمس ترثى ابن أختها أبا سفيان بن أمية ومن قتل من قومها فى حرب الفجار ، فى أبيات منها [1] :

أبى ليلك لا يذهب ونيط الطرف بالكوكب

ونجم دونه الأهوا ل بين الدلو والعقرب

وهذا الصبح لا يأتى ولا يدنو ولا يقرب

بعقر عشيرة منا كرام الخيم والمنصب

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٨٢ .

أحـــال عليهم دهـــر ... حـــديد النـــاب والمخلب
فحل بهم وقـــد أمنـــوا ... ولم يقصر ولم يشطب
وما عنه إذا ما حلـ ... ـل من منجى ولا مهرب
ألا يا عين فابـــكيهم ... بدمـــع منك مستغرب
فإن أبلك فهم عـــزى ... وهم ركنى وهم منـــكب
وهم أهلى وهم فـــرعى ... وهم نسبى إذا أنسب
وهم مجدى وهم شرفى ... وهم حصنى إذا أرهب
وهم رمحى وهم تـــرسى ... وهم ســـيفى إذا أغضب
فـــكم من قائل منهم ... إذا ما قال لم يكذب
وكم من ناطق فيهم ... خطيب مصـــنقع معرب

وهذه أيضاً لبانة ترثى زوجها محمد بن هرون الرشيد [١] :

أبكيك لا للنعيم والأنس ... بل للمعالى والرمح والفرس
يا فارسا بالعراء مطرحا ... خانته قواده مع الحرس
أبكى على سيد فجعت به ... أرْمَلَنى قبل ليلة العرس
من للحروب التى تكون لها ... إن أضرمت نارها بلا قبس
أم من لبر أم من لفائدة ... أم من لذكر الإله فى الغلس

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٦ .

ولصفية بنت عمر البهلية ترثى زوجها (١) :

كنا كغصنين فى جرثومة (٢) بسقا (٣) حيناً على خير ما ينمى به الشجر
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما وطاب قنواهما واستنظر الثمر
أخنى على واحد ريب الزمان وما يبقى الزمان على شىء ولا يذر
كنا كأنجم ليل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

وللخنساء فى رثاء أخيها صخر (٤) :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجرىء الجواد ألا تبكيان الفتى السيدا
رفيع العماد طويل النجا د ، ساد عشيرته أمردا
إذا بسط القوم عند النضال أكفهم تبتغى المحمدا
وكان ابتدارهم للعلا سار فمد إليها يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم انتمى مصعدا
ويحمل للقوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
جموع الضيوف إلى بيته يرى أفضل الكسب أن يحمدا
غياث العشيرة إن أمحلوا (٥) يهين التلاد (٦) ويحى الجدا (٧)

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٧ .
(٢) جرثومة الشىء : أصله .
(٣) والبسوق : الطول .
(٤) أنيس الجلساء فى ديوان الخنساء .
(٥) المحل : الجدب وانقطاع المطر . (٦) المال . (٧) المطر .

الزواج

من العسير أن نحدد القواعد التى كان يتبعها العرب القدماء بشأن الزواج . فلم يوجد فى واقع الأمر قبل الإسلام أى تشريع أو منظمة قضائية واضحة المعالم ، اللهم سوى طائفة من التقاليد أدت إلى العرف الذى اكتسب على مر الزمن قوة القانون . ولقد أغفل المؤرخون أو رواة التقاليد الشعراء — وكان الشعراء أول المؤرخين وأشدهم سحراً ودقة — أن ينبئونا عن القوانين المدنية التى كانت تنظم شئون الناس وشئون المال فى عصر الجاهلية. فلقد وقف الجميع جهدهم على أن يرسموا لنا بالتفصيل خطوط أنساب الرؤساء والقبائل والجياد ، وراق لهم أن يفيضوا فى الحديث عن أصغر حوادث الحروب أو « الأيام » الشهيرة ، ولم يخطر لواحد منهم — شاعراً كان أم مؤرخاً — أن يخبرنا عن النظام التشريعى والقضائى للعرب القدماء ، وأن يتحفنا بمجموعة من قرارات وأحكام القضاة الذين كانت القبائل تعهد لهم بمهمة الفصل فيما ينشب من نزاع يومى بين القبائل أو الأفراد . لقد كانت تستأثر بنشاطهم الحركة والمغامرة فلا تدع لهم روية التشريع وسن القوانين والتفكير الفلسفى ، بقدر ما كانت تتيح لهم فرصة التبارى فى فصاحة الكلام إذا انتهت بينهم حرب الرمح والحسام ، فيتغنون بمآثرهم ويشيدون بأسلحتهم وجيادهم وأجدادهم ؛ وأما ما عدا ذلك فهيهات أن يعيروه اهتماماً .

على أن شراح الأمثلة القديمة ومفسرى القرآن قد أمدونا فى موضوع بحثنا هذا بمعلومات مفيدة ، ولعلها هى المعلومات الوحيدة التى يستطيع الخلف أن يحيطوا بها فى هذا المضمار . فقد حرص بعض الفقهاء — وهم بصدد بعض الآيات القرآنية المتصلة بالزواج — على ذكر ما كانت تجرى عليه الأمور فى الجاهلية . ومن تلك الروايات نستدل على أن الزواج لم يكن مباحاً بين كل امرأة وكل رجل على الإطلاق ، بل كانت هناك محارم. فما كان يجوز لأم أن تقترن بابنها ولا لأب أن يقترن بابنته، ولا للاخ غير الشقيق بأخته، ولا للخالة بابن أختها . وفيما عدا هذه المحارم ، كان لكل امرئ أن يتزوج من النساء ما تتيح له قدراته أن يتزوج .

وقد عرف العرب فى الجاهلية عدة أنواع من النكاح ، نبدأ بذكر أخصها :

(١) زواج « الصفا » أى زواج التجربة ؛ وكان للمرأة كما كان للرجل الحق فى فصم عراه إذا لم تكن التجربة مرضية .

(٢) « نكاح المتعة » ، وهو زواج كان يعقد لأمد معلوم كسنة أو سنتين أو مجهول كقدوم (فلان) ، وكان من المستطاع أن يمد أمده إذا استدعى الحال ، أو أن يتحول إلى زواج دائم حتى آخر العمر .

(٣) نكاح « الرهط » ، وهو بين امرأة وعدد من الرجال ، لا يتجاوز العشرة على كل حال ، تختارهم هى أو ترضى بهم أزواجاً . وكانت تلك المرأة إذا ولدت ذكراً أرسلت فجمعت أزواجها كلهم وأعلنت أمامهم :

« أنه ابنك يا فلان » . وهكذا كانت تصل برباط البنوة ما بين وليدها وبين الرجل الذى تؤثره على الآخرين ، أو الرجل الذى تقنعها أسباب خاصة بأنه هو أبو الطفل حقاً . وكان على الرجل الذى تعينه المرأة بهذه الصورة أن يعترف بأبوة طفل هو ثمرة التعاون الودى قبل كل شيء (أما إذا كان المولود بنتاً فإنها لا تنسبها إلى أحد) .

وأما النسوة المتبذلات اللواتى كن يرفعن على أبواب خيامهن أعلاماً ، ويتصلن بأى طارق ، فكان أطفالهم ينسبون إلى من يشبهونهم من أولئك الرجال .

(٤) « نكاح الشغار » ، وهو زواج بلا مهر ، فقد كان الرجل يزوج ابنته أو أخته ، على أن يتزوج هو ابنة ذلك الزوج أو أخته أو ابنة أخته دون صداق . وتلك مقايضة لا ينبغى أن نخلط بينها وبين :

(٥) « نكاح البدل » ، وهو تبادل حقيقى يتنازل فيه الرجل عن زوجته إلى رجل آخر مقابل تنازله هو الآخر عن زوجته له .

(٦) « نكاح الاستبضاع » : فكان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من حيضها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه أى اطلبى منه الاجتماع لتحملى منه ؛ ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل . وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الولد . يطلبون ذلك من أكابرهم ورؤسائهم فى الشجاعة أو الكرم أو غير ذلك .

(٧) وآخر أنواع الزواج « المقت » . وكان يحدث عقب موت

الزوج إذا ألقى ابنه الأكبر رداءه على أرملة أبيه التى ليست أماً له — وهو يعنى بذلك أنه ورث الاستمتاع بها [١] . وكان له أيضاً أن ينزل عنها لواحد من إخوته نظير مهر معلوم . ولكن ذلك الزواج كان بغيضاً فسمى « بالمقت » ، وسمى من يعمد إليه « الضيزن » أى الغريم ، لأنه كان ينافس أباه .

تلك كانت أنواع الزواج الغريبة التى انتشرت بين العرب قبل الإسلام. وتنقصنا الوثائق التى يمكن على ضوئها أن نحدد فى أى الحقب وأى القبائل وأى الطبقات الاجتماعية ساد هذا اللون أو ذاك من ألوان الزواج . وأما ما نستطيع أن نؤكده ، فهو أن هذه الزيجات كانت زيجات استثنائية . فإنها تناقض تناقضاً بيناً ما نعلمه من الاحترام الذى أظهره العرب للمرأة فى جميع العهود، هذا الاحترام الذى تشهد به وقائع التاريخ ، كما تشهد به مواقف القصص المأثورة وقصائد الشعر . وإنها لتناقض أيضاً ما نعرفه من سجايا العربى ؛ فلا جدال فى أن العرب قد حرصوا فى كل شىء على النبل والنقاء ، ولا سيما فى أنسابهم . وهذه أنسابهم تقرن اسم الأب باسم الأم ، وأسماء الأبناء بأسماء البنات ، ولا يكتمل النسب العريق إلا إذا انتمى المرء من « كلا الجانبين » إلى أسرة تليدة . ولقد كان المرء يفخر دائماً بعمومته وخئولته ، ويفخر فوق كل شىء بصفاء أصله . يقول

---

(١) ولكن الأرملة إذا استدركت حركة الوارث وعادت إلى عائلتها الأصلية استطاعت فى هذه الحال أن تستقل بنفسها وأن تتصرف كما تشاء (الطبرى : تفسير القرآن) .

السموءل بن عادياء :

صفونا فلم نكدر وأخلص سرّنا[١] إناثٌ أطابت حملنا وفحــول
علونا إلى خير الظهور وحطنــا لوقت إلى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن [٢] ما فى نصابنا[٣] كهام [٤] ولا فينا يعد بخيــيل

غير أنه من اليسير فيما يبدو لنا أن نفسر هذا التناقض البين الذى أبرزناه ، بالاعتبارات التالية :

(١) لا تزال المرأة بعد الزواج تربطها بعائلتها الأولى أواصر أقوى مما يربطها بعائلة زوجها . وهذا ما يعبر عنه المثل القديم القائل : « الزوج يوجد ، والولد يولد ، ولا عوض عن الأخ » . وهكذا لا تحتمى الزوجة بزوجها فحسب ، بل تحميها من شر معاملته تلك الكتيبة التى تتألف من إخوتها وأعمامها وبنى عمومتها .

(٢) كان الدور الذى تؤديه المرأة فيما قبل الإسلام دوراً اجتماعياً أقل مما هو دور عائلى ، فلم تكن تصبح بالزواج قرينة لزوجها فحسب ، بل معيناً نفيساً يساهم فى إسعاد القبيلة بوجه عام . فرسالتها هى تغذية المحاربين برجال أشداء شجعان ، وإنجاب أبطال عديدين . . . وأما فى نطاق

(١) السر : الأصل الجيد .
(٢) المزن : السحاب الأبيض وماؤه أطهر المياه لسلامته من الاستعمال .
(٣) النصاب : الأصل .
(٤) الكهام : الكليل الحد . ديوان الحماسة ج ١ ص ١١٥ .

العائلة، فيبدو أنها لم تكن ذات كيان خاص وشخصية مستقلة ، بل كانت خاملة الذكر . فهي زوج وهي أم ، ومن هاتين الوظيفتين كانت تتوالى عليها الواجبات أكثر مما تنشأ لها الحقوق والامتيازات . وأما في الخارج ، وحيث تتجاوز سجن الزوجية ، فهي امرأة — أي « مواطنة » كما نقول اليوم — تتساوى بالرجل ؛ وعلى هذا الأساس يحق لها أن تطلق العنان لملكاتها ، مما يتيح لها أن تتفوق وأن يسطع نجمها ، وأن تقرر أمر الحرب والسلم .

بل ولعلنا نستطيع أن نجد قيمة أخلاقية ما ، في هذه الزيجات التي تبدو لأول وهلة منافية للأخلاق الشريفة . فإن لها الفضل في إلغاء طائفة « البنات الأمهات » و « أولاد السفاح » ، من حيث أن البغي كانت تعتبر زوجة للرجل الذي أنجب الطفل ، ومن حيث أن هذا الطفل كان يحمل اسم أبيه التقديري ناجياً بذلك من وصمة العار التي تتعقب مثله من نعته « بالابن غير الشرعي » أو « الابن الطبيعي » .

على أنه كان يوجد خارج هذه المجموعة من أنواع الزواج وعداها ، صورة للزواج أكثر انتظاماً ورقياً ، وهي أغلب حالات التزاوج : وتلك هي صورة الأب ينبئ ابنته بأن فلاناً يطلب يدها ، فإذا قُبل العرض ، مد الأب يده فصافح الخطيب أو الوصي عليه أو مندوبه وتم الاتفاق ، وإذا رفض العرض أرغم الأب ابنته على الزواج .

وإليكم قصة خطبة القائد الباسل دريد بن الصمة للخنساء :

« مر دريد بن الصمة بالخنساء بنت عمرو بن الشريد وهي تهنأ

بعيراً لها وقد تبذلت حتى فرغت منه ، ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد يراها وهى لا تشعر به ، فأعجبته ، فانصرف إلى رحلة وأنشأ فى ذلك شعراً .. فلما أصبح غدا إلى أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها : مرحباً بك أبا قرة إنك للكريم لا يطعن فى خسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحل لا يقرع أنفه . ولكن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهى فاعلة ، ثم دخل إليها وقال لها : يا خنساء ، أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين — ودريد يسمع قولها — . فقالت : ياأبت ، أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد ! فخرج إليه أبوها وقال : يا أباقرة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد. فقال : قد سمعت قولكما وانصرف [١] .

---

(١) وقيل قالت لأبيها : أنظرنى حتى أشاور نفسى ، ثم بعثت خلف دريد وليدة فقالت لها : انظرى دريدا إذا بال ، فإن وجدت بوله قد خرق الأرض ففيه بقية ، وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا فضل فيه. فأتبعته وليدتها ثم عادت إليها فقالت : وجدت بوله قد ساح على وجه الأرض ، فأمسكت . وعاود دريد أباها ، فعاودها فقالت له هذه المقالة المذكورة ثم أنشأت تقول :

أتخطبنى هبلت على دريد	وقد أطردت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحنى حبركى	يقال أبوه من جشم بن بكر
ولو أمسيت فى جشم هدياً	لقد أمسيت فى دنس وفقر

فغضب دريد من قولها وقال من قصيدة طويلة فى هجائها :

وتقدم لنا أخبار العرب كذلك أمثلة عديدة من فتيات مطلقات التصرف يتزوجن من يخترنه بأنفسهن . ودون أن نتحدث عن « صدوق » التى تزوجت « حوران الحديد » ، وعن الحسناء « خود » التى شاءت أن تكون عروس أبى نواس الأسود، وعن « ماوية » التى بعد أن امتحنت خطابها الثلاثة فى قرض الشعر وفيض الكرم تخيرت أشعرهم وأكرمهم « حاتما الطائى » ، حسبنا أن نورد عن كتاب «الأغانى» ، تلك الملابسات التى أدت بـ « ريطة » إلى أن تعرض يدها على الفارس ربيعة :

فقد أورد عمرو[1] بن معد يكرب فى حديث له طويل مع سيدنا عمر ابن الخطاب عن شجاعة ربيعة بن مكدم قوله « خرجت ريطة من خيمتها فجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها فقالت لها : ادعى فلاناً . فدعت لها رجلا من الحى . فقالت له : إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى ، فكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ فقال : أفعل وأصنع . . فجعل يصف نفسه فيفرط . فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى . وأقبلت على صواحباتها فقالت : ما عنده خير . ادعى لى فلاناً . فدعت آخر فخاطبته ، فأجابها بمثل جوابه ، فقالت له : انصرف حتى

وقاك الله يا ابنة آل عمر	من الفتيان أمثالى ونفسى
فلا تلدى ولا ينكحك مثلى	إذا ما ليلة طرقت بنحس
وتزعم أننى شيخ كبير	وهل خبرتها أنى ابن امس
تريد شرنبث القدمين شثناً	يبادر بالجدائر كل كرس

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ١٣٢ . (تحقيق)

أرى رأيي ، وقالت لصواحباتها: وما عند هذا خير أيضاً . ثم قالت للوليدة : ادعى لى ربيعة بن مكدم ، فدعته فقالت له مثل قولها للرجلين ، فقال لها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه . ولكنى إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يعذر . فقالت له : قد زوجتك نفسى ، فاحضر غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك . »

ولقد أقر التاريخ اختيار « رويطة » ، فقد أصبح « ربيعة » أروع فرسان بلاد العرب القديمة .

المهر

لا زواج دون مهر ، إلا « نكاح الشغار »، حيث يقدم المرء عروساً ويتزوج نظيرها ، فيتكافأ بذلك المهر الذى يجب عليه أن يدفعه والمهر الذى ينبغى له أن يناله . وكان الخاطب أو وكيله يدفع المهر لأبى الفتاة ، أو لمندوبه الذى قد يكون أخاه أو ابن عمه ، وهو على كل حال أكبر أفراد الأسرة سناً . وكانت قيمة المهر يحددها الأب أو يقدمها الخاطب من تلقاء نفسه عند ما يطلب الزواج .

ونقرأ فى كتاب « الأغانى » أنه لما ذاع حب ليلى والمجنون، وتناشد الناس شعره فيها ، طلب قيس يدها من أبيها وبذل لها خمسين ناقة حمراء . وكذلك طلبها ورد بن محمد العقيلى وبذل لها عشراً من الإبل وراعيها . فقال أهلها : نحن مخيروها بينكما فمن اختارت تزوجته . ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختارى ورداً لنمثلن بك .

ولقد قال المجنون آنئذ أبياتاً نثبتها هنا إتماماً للفائدة [(١)] :

ألا ياليل إن ملكت فينا ... خيارك فانظرى لمن الخيار
ولا تستبدلى منى دنيـا ... ولا برما إذا حب القتار [(٢)]

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٤ . (تحقيق)

(٢) ريح اللحم المشوى .

يهرول فى الصغير إذا رآه   وتعجزه ملمات كبــار
فمثل تأيم منه نــكاح   ومثل تمول منه افتقــار

فاختارت ليلى ورداً فتزوجته على كره منها .

وفيما عدا النوق والرعيان ، ربما كان المهر من سلع مختلفة ، كقطعان الضأن أو العطور أو الأقمشة ، أو قطع النقد من الفضة أو الذهب . . . وكان المهر بمثابة ثمن للفتاة أى قيمتها التجارية ، باعتبار سنها وأوصافها البدنية والخلقية ونسب أسرتها ومركز أبيها بين أفراد القبيلة . ولا ينبغى أن ننسى أن الزيجات كانت تنشئ بين بعض القبائل وبعض ، أواصر وعهوداً تدفع الأصهار إلى أن يتضامنوا ويذود بعضهم عن بعض إذا ألمّ الخطر .

وقد أسلفنا القول بأن المهر كان يدفع ويسلم لأبى الفتاة ، وينبغى أن نضيف إلى ذلك أنه كان يصبح ملكه الخاص . وهكذا كانت الفتيات مصدر ثروة ما دامت مهورهن مزيداً لتراث الأسرة . ولذا كان القوم يبادرون إلى تهنئة الأب الذى تولد له بنت قائلين : « هنيئاً لك النافجة » أى السحابة الكثيرة المطر . فلقد كانت الفتاة ، كماء السحاب تخصب أرضه وتنمى ماله .

وما دامت البنات — فضلا عما تكنه لهن عواطف الأبوة من حب — مصدر ثراء ، فما بال بعض القبائل تئدهن ؟ « لقد كان بعض العرب

حين تولد لهم بنت ، يدفنونها فى الحال ، يدفعهم إلى هذا العمل الوحشى إملاقهم ، أو إسرافهم فى الاعتزاز بأنفسهم وبشرفهم ، إذ يتفادون بذلك وصمة العار التى قد تلحق بهم يوم يخطف ابنتهم عدو يهتك عرضها »[1].

ويقول الميدانى ، عن الهيثم بن عدى : إن وأد البنات كان منتشراً فى جميع قبائل العرب على السواء ، ولكن بنسبة واحد يزاوله إلى عشرة يحرمونه . وقد انقضت هذه العادة الوحشية فى كل القبائل عند ظهور الإسلام ، فيما عدا قبيلة تميم التى تمادت فى اتباعها أكثر من ذى قبل .

وسواء أكان بنو ربيعة أم بنو تميم هم الذين ابتكروا تلك العادة . فإن ذلك لا يعنينا كثيرا ، وإنما يعنينا أن نلاحظ أن الكتاب قد أجمعوا على أن السبب الأول لوأد البنات كان خشية « خيانة » الجنس الضعيف . ولدينا عن هذه الخيانة الأولى عدد لا بأس به من القصص التى لا تتفق فيما بينها على الزمان أو المكان ، ولا على الملابسات التى اكتنفت الحادث ، وإنما تروى جميعها اختطاف عدد من البنات يخيرن بعد ذلك بين العودة إلى أهلهن وبين البقاء لدى خاطفيهن ، فيقبلن أن يعدن إلى أهلهن ، ما عدا واحدة هى ابنة زعيم شهير أو ابنة أخته ، تجرؤ على أن تفضل عاشقها على أهلها ! وهنالك يشعر الزعيم بالخزى والعار فيغضب ويقسم ليئدن كل بنت تولد له فى المستقبل . وإذا بقومه يقتدون به خشية أن تجر عليهم بناتهم الهوان ذات يوم ، فخورين بأن يضحوا — فى سبيل

---

(١) كوسان دى برسفال ، الجزء الأول ، ص ٣٥١ .

الشرف — أعز ما لديهم فى الدنيا . . بناتهم . . « لحمهم ودمهم » .

ولقد قضى الإسلام على هذه العادة « المشئومة » . ومن الحق أن نلاحظ أنها كانت فى طريقها إلى الانقراض من تلقاء نفسها ، وأن رجالا من أولى الشفقة كانوا قبل ظهور النبي يسعون سعيا كريما فى افتداء حياة أولئك المنكودات البريئات .

الطلاق

كان قدماء العرب يعترفون للزوج — بوجه عام — بحق تسريح زوجته . ولكي يصبح هذا الطلاق نهائيا ، كان يشترط أن يتكرر ثلاث مرات فى فترة من الزمن معلومة . وكثيراً ما كان الزوج يسرح زوجته مرة ومرتين ، ثم يستردها قبل انقضاء المدة المعلومة ، فيضطرها بذلك إلى أن ترزح تحت نيره إلى أجل غير محدود .

وكانت صيغ الطلاق عديدة ، أعمها أن يقول الزوج لامرأته : « عودى لأهلك » أو « ارجعى لأبيك » .

وكان للزوجة أيضاً الحق فى فصم عرى الزواج . وكانت تتخذ فى ذلك وسيلة رمزية؛ إذ تحول فتحة الخيمة المؤدية لخدرها إلى الناحية المضادة، فتجعلها نحو الجنوب بدلا من الشمال مثلا ، حتى إذا عاد الزوج ووجد الباب مغلقا ، فهم المراد ، وانقطع بذلك رباط العشرة فى سكون ، وأصبح كل من الزوجين — دون تبادل التحيات — غريبا عن صاحبه تمام الغربة .

وكانت المرأة تستطيع كذلك أن تحصل على حريتها مقابل تعويض تدفعه للزوج ، وقد جرت العادة على أن يكون هذا التعويض مساويا

لقيمة المهر الذى سبق أن قدمه الزوج . وكان هذا النوع من الطلاق يعرف « بالخلع » .

وها هى ذى قصة طلاق هند بنت عتبة ، عن « العقد الفريد »[١] . وأنها لصورة من صور المجتمع قد يتوق القارئ لاجتلائها :

« كان الفاكه بن المغيرة المخزومى أحد فتيان قريش ، وكان قد تزوج هند بنت عتبة . وكان له بيت للضيافة يغشاه ، الناس فيه بلا إذن . فقال[٢] يوما فى ذلك البيت وهند معه ثم خرج عنها وتركها نائمة . فجاء بعض من كان يغشى البيت . فلما وجد المرأة نائمة ولى عنها . فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنبهها ، وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت : والله ما انتبهت حتى أنبهتنى ، وما رأيت أحداً قط . قال : الحق بأبيك . وخاض الناس فى أمرهم . فقال لها أبوها : يا بنية ، أنبئينى شأنك ، فإن كان الرجل صادقاً دسست عليه من يقتله ، فينقطع عنك المقالة ، وإن كان كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن . قالت : والله يا أبت إنه لكاذب . فخرج عتبة فقال : إنك رميت ابنتى بشىء عظيم ، فإما أن تبين ما قلت ، وإلا فحاكمنى إلى بعض كهان بنى اليمن . فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى رجال ونسوة من بنى عبد مناف . فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند ، وكسف بالها ،

---

(١) ج ٦ ص ٨٦. انظر أيضاً رواية « الأغانى » ج ٩ ص ٥٣ ، ٥٤. (تحقيق)

(٢) القائلة : نصف النهار . قال قيلة وقيلولة : نام فيه .

فقال لها أبوها: أى بنية ، ألا كان هذا قبل أن يشتهر فى الناس خروجنا ! قالت : يا أبت ، والله ما ذلك لمكروه قبلى ، ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ، ولعله أن يسمنى بسمة تبقى على ألسنة العرب . فقال لها أبوها: صدقت ، ولكنى سأخبره لك . فصفر بفرسه ، فلما أدلى ، عمد إلى حبة بر فأدخلها فى إحليله ، ثم أوكى[1] عليها وسار . فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة: إنا أتيناك فى أمر وقد خبأنا لك خبية فما هى؟ قال : ثمرة فى كمرة . قال : أريد أبين من هذا . قال : حبة بر فى إحليل مهر . قال : صدقت ، فانظر فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ويقول : قومى لشأنك ؛ حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال : قومى غير رسحاء[2] ولا زانية ، وستلدين ملكا يسمى معاوية . فلما خرجت ، أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت[3] يده من يدها وقالت : والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك . . فتزوجها أبو سفيان فولدت له معاوية[4] .

---

(١) ربط عليها .

(٢) رسحاء : قبيحة .

(٣) نثرت : جذبت بشدة .

(٤) ذكروا أن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لأبيها : يا أبت : إنك زوجتنى من هذا الرجل ولم تؤامرنى فى نفسى ، فعرض لى معه ما عرض ، فلا تزوجنى من أحد حتى تعرض على أمره ، وتبين لى خصاله ؛ فخطبها سهيل بن عمر وأبو سفيان بن حرب ، فدخل عليها أبوها وهو يقول :

=

... ...

= أتاك سهيل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يعاش بفضله وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ وما منهما إلا أعز سميدع
فدونك فاختارى فأنت بصيرة ولا تخدعى إن المخادع يخدع

قالت : يا أبت ، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسر لى أمرهما ، وبين لى خصالهما، حتى أختار لنفسى أشدهما موافقة لى . فبدأ يذكر سهيل بن عمر ، فقال : أما أحدهما فوسطة من العشيرة (أى من أوساطهم وخيارهم) وثروة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر ، فوسع عليه ، منظور إليه فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، كثير الطيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد أبائها ، وتصنع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت ، فساءت عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أجمعت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه لى .

وأما الآخر ، فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وإنى التى لا أريب له عشيرة فتغيره ولا تصيبه بذعر فتضيره ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه ، فزوجها من أبى سفيان فولدت له معاوية وقبله يزيد . » (تحقيق)

المرأة المسلمة

كان الأثر المباشر لفتوح الإسلام ، هو إخضاع العرب لأخلاق بيزنطة وعادات إيران . فقد سارع البدو المنتصرون إلى أن يقتبسوا من حضارة الفرس والروم طرق المنافع ، وأساليب اللهو والترف ، ولذيذ الرذائل . ولما كانوا فوق كل شيء شغوفين بالجمال[1] ، فقد أحاطوا أنفسهم بالأسيرات الحسان ، الخبيرات المتفننات ، المهذبات اللينات ، اللواتى دفعنهم إلى أن يهملوا وينسوا رفيقتهم السمراء ، وزوجتهم الصارمة النافرة . ولم يكد ينقضى مائة عام بعد وفاة محمد ، حتى كان الخمر ومجون الخلفاء ، والملذات اليسيرة المنال والجوارى والغلمان ، قد أفسدت الأخلاق وقضت على أهم صفات العرب الأصيلة . ويمكننا أن نميز منذ ذلك الحين بين طائفتين من النساء : الزوجة وهى القالب الذى تصنع فيه الأولاد ، والجارية وهى أداة المتعة وزينة الحريم . وأصبح التعليم خصوصية الجوارى ؛ فقد كان حسنهن يحلى بجميل الفنون ، إذ كانت وظيفتهن فى آخر الأمر هى الإمتاع . لقد كن يرقصن فى رشاقة ، ويغنين فيطربن ، ويرتجلن الشعر ، ويحفظن الأخبار ، ويعرفن كيف يلقين فى كل مقام مقالا ، وكيف يروين من القصص ما يسحر سامعيهن من

(١) قالوا : « عقل المرأة جمالها ، وجمال المرء عقله » .

أهل العلم والشعر والأدب والبراعة . وأما الزوجة فقد كانت على عكس ذلك تتشح برقار الأم ، وتعيش فى معزل عن المجتمع ، وتهمل عن عمد ثقافتها وتظهر ما تتميز به من جهل واضح كان هو الدليل على فضلها ، والوثيقة التى تثبت بها عريق نسبها . ولقد كان يبدو فى بعض عصور الحضارة الرفيعة المتألقة — كعصر الرشيد وألف ليلة وليلة ، وزمن خليفة الأندلس عبد الرحمن والحسناء زهرة ، وزمن الفاطميين وملوك غرناطة — أن مكانة المرأة فى الصدارة . وبلغ من دلال الحسان فى مختلف تلك العصور ، عصور النساء والأدب ، أن بتن لا يلقين السلاح حتى يحصلن على شىء من آثار الفن صيغ من وحيهن ومن أجلهن ، كقصيدة أو أرجوزة ، أو أنشودة خفيفة . ولذلك كان الشعر فى تلك العصور منصرفا فى جملته إلى التغنى بالمرأة والغزل .

وكان لكل شاعر ذخيرة من الألفاظ والمعانى الصالحة للمناسبات ، يستطيع أن يصوغ منها أرشق أسلحة الهجوم أو الدفاع ، كما يقتضيه هذا الموقف أو ذاك من مواقف الغرام . فقد كان كل شاعر يحرص على أن يتمتع بحماية واحدة أو أكثر من حظيات القصر ، وكان أولئك يغمرن الشاعر بالنعم مقابل ما ينظم فيهن من أبيات المدح أو المجون . فراجت حينذاك وتدفقت ألاعيب البيان وقصائد الغزل ، مما لا نجد له مثيلا فى أى أدب آخر . وفاضت فى كل دار وازدهرت أبيات الشعر الصادحة بروعة الحسن والحب ، وانبثقت من كل جانب كأنما أطلقها

سحر ساحر . وكانت الأبيات تخط بحروف من الذهب أو الفضة وتعلق على الأبواب ، أو تنحت فى الرخام وتثبت على صفحات الجدران ، أو تطرز على الحرير فتكسو النمارق والأرائك . وكان النساء يحملن من أبيات الشعر ما تخطه الحناء على أكفهن ، وما تزدان به مناديلهن وبراقعهن ومراوحهن وخواتمهن وأقمصتهن وأوشحتهن . . وكانت الأبيات التى تجاور مفاتن الحسان ورقتهن ، تناسب الموضع الذى علقت فيه أو نقشت عليه أو طرزت أو وشمت به . وهكذا جمعت بين الحب والشعر وشائج وثيقة ، لا يمكن معها تمييز أحدهما من الآخر ما دام الحب يبدو لنا موحيا بالشعر والشعر يوحى بالحب كذلك .

ولقد أدى ذلك بالطبع إلى رفع مكانة المرأة — أو مكانة بعض النساء على وجه التحديد .

ومما يؤيد لنا تلك الظاهرة ، هاتان النادرتان :

فى ذات يوم تجاسرت جارية من حظيات الخليفة عبد الرحمن ، على أن تخاصم مولاها ، فاعتكفت فى مسكنها ، وأقسمت إنه لخير لها أن يغلق دونها الباب من أن تفتحه للخليفة . وأفزع هذا الحديث رئيس الخصيان ، فظن أنه يسمع كفراً ، وهرع يستغفر أمير المؤمنين وينقل إليه ما ألقت به الجارية العاصية من قول منكر . فأمره عبد الرحمن وهو يبتسم بأن يقيم أمام باب حظيته جداراً من قطع النقد الفضية ، ووعد بأنه لن يعبر ذلك السد المانع ما لم تهدمه الجارية راضية لتستولى عليه .

وتضيف القصة أن باب الجارية — وقد هدأت ثورتها — بات مفتوحا للخليفة فى الليلة نفسها[١] .

وفى ذات يوم ، راحت « رميقة » زوجة « المعتمد » تنظر من إحدى نوافذ القصر فى قرطبة إلى كرات الجليد الهشة تتساقط على الأرض ، وهو منظر نادر فى ذلك البلد الذى لا يكاد يبلغه الشتاء . وفجأة ، انخرطت فى البكاء . فسألها زوجها :

— ما بك يا عزيزتى ؟

— ما بى ؟ بى أنك بربرى ظالم متوحش ! انظر ؛ ما أرق الجليد وأبدعه وما أروعه ! انظر كيف تحط هذه الكرات الناعمة فى رفق على غصون الشجر ، وأنت يا جاحد لا يخطر لك أن تقدم لى هذا المنظر كل شتاء ، وما طرأ على فكرك قط أن تصطحبنى إلى بلد لا ينقطع فيه سقوط الجليد !

فأجابها الخليفة وهو يكفكف ما سال على خديها من عبرات :

— لا تستيئسى هكذا يا حياتى وخيرى ، فلسوف تنالين جليدك كل شتاء بل وفى هذا المكان ذاته ، وأنى لكفيل بذلك .

وأمر بغرس أشجار اللوز على سلسلة قرطبة بأكملها حتى يحل ما يكسو هذه الأشجار الجميلة من زهر أبيض محل كرات الثلج

---

(١) كاردون (Cardonne) : تاريخ أفريقيا وأسبانيا ، الجزء الأول. وفلوريان (Florian) : موجز تاريخى عن عرب الأندلس ، ص ٣٣ — ٣٤ .

البيضاء التى هامت بها « رميقة »[1] .

وما تلك الأحاديث الشائعة إلا روايات من وشى الأدب . وأما الواقع ، فإن الجوارى المرموقات كن يسارعن إلى تسوية وضعهن الاجتماعى ، ويسعين إلى أن يصبحن زوجات شرعيات . ولما كانت الزوجة الشرعية — حتى فى الشرق — أقل نفقات من العشيقة ، ولو كانت جارية ، فقد كان الأمير يتزوج جارياته ؛ وإذ ذاك تتكلف الجارية المتزوجة أن تغدو سيدة ، وأن تثبت أنها ذات حسب ونسب كالحرائر ؛ وكان يعنى ذلك أن تركن إلى الجهل . ومنذ ذلك العهد لا نجد ثمة ما يميز بين طائفتين من النساء ؛ فقد امتد الجهل وتفشى فى كل مكان . وهكذا نستطيع أن نقول : إن المرأة فى جميع طبقات هذا المجتمع ، لم تكن طوال القرون الاثنى عشر الماضية ، إلا الخادم الرسمية للزوج والأولاد .

ولم يقنع القوم باستخدامها ، بل عاملوها معاملة عدو يعيث شرا وفساداً . وظل الرجل زمانا طويلا لا يشغله شاغل سوى حماية نفسه منها وحمايتها من نفسها . فلقد سجنها ، ودفنها حية فى دور واسعة ذات نوافذ متينة القضبان ، وأحاطها بحشم قساة ، ما كان لهم أن يجيبوا فى ذكاء دعاء الجسد ؛ لأنهم أخرسوا ؛ وأولئك هم خرس القصور التركية . ولفق القوم حكايات ، واستشهدوا بجميع أنبياء العصور الغابرة وتدخل الشعراء فى الأمر ، وأجمع الكون على لعن المرأة وتحقيرها ، حتى لقد

---

(١) دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ، الجزء الثانى ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

جرى ذلك فى كلامهم مجرى المثل . كما فى قولهم : « النساء شرك الشيطان ». المرأة الفاضلة بين سائر النساء كالغراب الأبيض البطن بين الغربان . ما حرم على امرأة شىء إلا فعلته. الخضوع لإرادة امرأة يقصر العمر . حذار أن تتبع نصيحة النساء » .

وليس هذا كله بالجديد ، فإننا لنكاد نجد ما يوازيه فى جميع اللغات. فالصينى يقول : « ينبغى أن تسمع زوجتك وألا تصدقها أبدا » ، والروسى يؤكد أنه « فى كل عشر نساء روح واحدة » ، والإيطالى ينصح باستخدام المهماز للحصان سواء أكان طيبا أم خبيثا وباستخدام العصا للمرأة سواء أكانت طيبة أم خبيثة ، والإسبانى يوصيك بأن تحذر المرأة الخبيثة وبألا تثق مع ذلك فى المرأة الطيبة[1] .

وهذا مثل من ذم الشعر للمرأة :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن　　جزوعا إذا بانت فسوف تبين

فإن هى أعطتك الليان فإنها　　لآخر من طلابها ستلين

وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها　　فليس لمخضوب البنان يمين

وهذه حكاية أخرى :

فى ذات يوم ، لقى عيسى بن مريم الشيطان وهو يسوق أمامه أربعة حمير محملة ، فسأله عيسى :

ـــ ماذا تفعل ؟

---

(١) عن جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٢٨ .

ـ إنى أنقل سلعا وأقصد عملائى .

ـ فما هذه السلعة الأولى ؟

ـ إنها القسوة .

ـ ومن يشترى ذلك ؟

ـ الولاة .

ـ وما سلعتك الثانية ؟

ـ إنها الحسد .

ـ ومن يشتريها ؟

ـ العلماء .

ـ وما هى السلعة الثالثة ؟

ـ سوء النية .

ـ ومن يشتريها ؟

ـ التجار .

ـ فما تلك السلعة الرابعة ؟

ـ إنها المكر .

ـ ومن يشترى ذلك ؟

ـ ذلك صنف يخص النساء[١].

وفيم المزيد من الأمثلة ؟ وبين أيدينا قصة « ألف ليلة وليلة » وهى قصة ملك خانته زوجته ، وقد تحقق من أن الجن أنفسهم ـ رغم ما يتخذون

---

(١) بيرون : النساء العربيات .

من احتياطات عجيبة – تخونهم زوجاتهم أيضاً على نطاق واسع ، فقرر ألا تخدعه امرأة فيما بعد ، ومضى يسلم للجلاد كل صباح عروس الليلة البارحة ، حتى أتى اليوم الذى تمكنت فيه شهرزاد من أن تنسيه دروس ماضيه – وما كان أوضحها – بل وأفلحت فى استدراجه إلى الاعتراف بفضل النساء ، وهى تروى له القصص . . . ألا إن كيدهن عظيم !

والشرقيون قوم قد تغذوا منذ صباهم بقصص ألف ليلة وليلة ، ثم تثقفوا بحكمة الأمثال ومأثور الحكايات ومعانى الشعر ، فأمسوا بغريزتهم يحذرون النساء رغم شغفهم بهن ، ويخشونهن ويحتقرونهن فى آن واحد .

ولما كان الرجل هو الأقوى ، فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء . ومضى يروّع ويذل تلك التى كان من حقها عليه أن تظل رفيقته ، وواصل ذلك حتى جعل منها كائنا يقل عنه قدرا ، لا شخصية له ، ولا لون من ألوان الكرامة ، بل ولا روح كما قد يقال . وحينما نبه الرجل صوت ضميره يؤنبه على جوره وطغيانه ، تسلح بالكتاب الشريف ، وطفق يؤول ويعلل ويحال ، ويقسو على النصوص فى تفسيرها ليثبت أنه يصدع بأمر رسول الله . وهكذا حدث يوم راحت أوربا تتساءل عن سبب تخلف المرأة المسلمة ، أن كان الجواب معدا ، وكان من البساطة بحيث أقرته فى حماس : جواب يزعم أن الإسلام هو السبب الوحيد فى انحطاط المرأة وتخلفها ، وذلك بما يبيحه للرجال من تعدد الزوجات ومن الطلاق وبما يفرضه على النساء من الحجاب والانزواء . وتلك مسألة هامة خليقة بأن تستوقفنا .

المرأة حسب القرآن

قلب الإسلام حياة العرب الجاهلية رأساً على عقب ، فقد تغير كل شئ وتبدل ، ومسه التوحيد بالله ، كل شيء فى الدين والسياسة وفى النظم الاجتماعية والأخلاق والعادات . وحل محل شتى العقائد والعبادات ، عقيدة جديدة واحدة ، وقام مقام الدول الصغيرة العديدة — التى كانت تتمثل فى القبائل — أمة مؤتلفة وحدتها كلمة الله ، واتجهت الغارات والمشاحنات الداخلية إلى فتوح وحروب ضد العالم الخارجى المناهض . وسادت أخلاق كريمة من هدى الشريعة وأثر الرسول. ولم يصمد شيء من حياة الجاهلية سوى مثلها الأعلى فقط ؛ فلقد واصل القوم سعيهم نحو الكمال — أى الشجاعة والكرم والفصاحة وسمو النفس — ولكنهم ما كانوا يهدفون بذلك إلى أن يصبحوا فرسانا كاملين بقدر ما كانوا يرغبون فى التقرب إلى الله ورسوله ؛ وظلوا يحفظون للمرأة ما كان لها من حرمة، يصدرون فى ذلك لا عن اعتداد برجولتهم وشهامتهم ،بل عن حرصهم على إرضاء الله واتباع تعاليم الكتاب الشريف . فالقرآن يشتمل على آيات عديدة توصى بالمرأة خيراً ، ولو قد اتبعت تعاليمها ، وأخذ الناس حقا بما تقتضيه روحها لارتفع شأن المرأة المسلمة ماديا وخلقيا ، ولأتيح بذلك لشعوب الإسلام الاحتفاظ بعظمة عصورهم الأولى وكرامتها .

لقد أحب محمد النساء[١] ، وفهمهن ، وجهد فى تحريرهن : بالقدوة الحسنة من ناحية ، وبتعاليمه من ناحية أخرى . فمن الحق إذن أن يعتبر محمد من أوائل زعماء قضية المرأة المناضلين ، إن لم يكن أولهم جميعاً . لقد كان يحسن معاملة المرأة — لا زوجاته فحسب بل جميع النساء — فيلقاهن بالبشر والعطف ، ويرعى حرمتهن ، ويرفق بهن . أجل ، لقد قال : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء[٢] » وقال أيضاً : « المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج[٣] » .

ولكن ذلك — فيما يبدو — لا يعدو أن يكون نصح فيلسوف مجرب حكيم ، لأنه قال فى مواضع أخرى : « خير هذه الأمة ، أكثرها نساء » . وقال : « كلكم راع وكلكم مسئول ، فالإمام راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة . . . الحديث »[٤] .

وكان يقول لصحبه : « خيركم ، خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى »[٥]

---

(١) قال عليه الصلاة والسلام : « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عينى فى الصلاة . »

إحياء علوم الدين للغزالى ج ٤ ص ، ١١٣ . (تحقيق) .

(٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٢٢

(٣) ، (٤) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٣٥ .

(٥) الغزالى : إحياء علوم الدين ، الجزء الرابع ، ص ١٣٧ .

ولقد علّم الرجال أن « الجنة تحت أقدام الأمهات »، وكان آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث ، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه ، جعل يقول : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء، فإنهن عوان في أيديكم (يعني أسراء) أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[1] .

وخير من ذلك للنساء وأبقى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حياهن أروع وأرق تحية صدرت عن مؤسس دين من الأديان ؛ فلقد زين بهن دار النعيم ، ولم يصور الفردوس بلا نساء ، وإنما هو فردوس تعمره الحور العين . ولكن على الإنسان قبل أن يتمتع بنعيم الآخرة ، أن يعيش حياته الدنيا . ولقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم للمرأة حياة ميسرة عذبة مستقلة على نحو ما . ولئلا يصدم في عنف لا يطاق آراء معاصريه الذين كانوا يقيمون الحق على أساس القوة ، أقر القرآن أن « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض »[2] .

غير أنه تدرع بتفوق الرجل على المرأة ليفرض على الرجال واجبات ويمنح النساء امتيازات جديدة . فما دام الرجل هو الأقوى والأعلى ، فإن عليه أن يحمل وحده أعباء الحياة ، وما على المرأة إلا أن تعنى بشئون البيت وتربية الأطفال . ولقد أصبح المهر — الذي كان ملكاً لأبي الفتاة —

---

(١) الغزالي : المرجع السابق ، الجزء الرابع ، ص ١٣٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٤ .

ملكاً للعروس نفسها[١] كما أصبح لها نصيب فى التركة ؛ فإن المرأة التى لم تكن حتى ذلك العهد لترث شيئاً من أبويها أو زوجها ، اكتسبت حق الوراثة منهم بفضل الشريعة الجديدة[٢] .

وما دامت النساء ضعيفات ، فمن الواجب حمايتهن . لذلك لزمت موافقتهن لصحة عقد الزواج ، وكان لهن الحق فى رفض الزواج أو قبوله ، وفى الاختيار بين خطابهن إذا تعددوا. وما دمن راشدات، فليتزوجن من يردنه زوجا ، وليتصرفن فى أشخاصهن وفى أموالهن كما يشأن[٣] . وهكذا امتنعن — فى نظر الشرع على الأقل — عن أن يكن ألعوبة تعبث بها أطماع أهليهن ومصالحهم . وتنقل إلينا السنة الشريفة عن الخنساء بنت خزام الأنصارية ، أن أباها زوجها وهى ثيب ، فأتت — رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحه[٤] .

وكان من الواجب أيضاً التلطف فى معاملتهن . قال النبى فى الخطبة التى ألقاها فى حجة الوداع بمكة (سنة ٦٣٢م): « الله الله فى النساء ، فإنهن عوان فى أيديكم (يعنى أسراء) ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠ .

(٢) سورة النساء الآيات ٧ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) قال صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن.قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت » (تحقيق) .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٨ ، ص ٣٣٤ . انظر منصور فهمى : حال المرأة فى تقاليد الإسلام وتطوره ، و (جـ ٧ ص ١٨ صحيح البخارى) . (تحقيق)

فروجهن بكلمة الله »[١] .

ويعلم القرآن الناس أن لكل من الزوجين لدى الآخر حقوقاً من الحب والاحترام المتبادلين[٢] .

ولكن ظلا قاتما يلوح فى هذه الصورة الجميلة ، ألا وهو حق الرجل فى تزوج عدة نساء !

لقد تفشى تعدد الزوجات فى بلاد العرب منذ أقدم العصور . وقد أسلفنا القول بأن قدماء العرب كانوا يتخذون من الزوجات ما شاءت لهم قدرتهم أن يتزوجوا . وينبغى أن نضيف إلى ما تقدم ، أن نفقات المعيشة حينذاك لم تكن واضحة الحدود ؛ فقد كثرت لديهم البيوت المشتركة التى تعيش فى الواحد منها زوجتان معاً أو عشر أحياناً . وفى تلك الظروف ، كان من المخاطرة أن يقدم امرؤ على معارضة الأوضاع الاجتماعية المتأصلة منذ قرون ، فيحاول إلغاء تعدد الزوجات طفرة واحدة . ولذا عالج محمد تلك المشكلة باحتياط وبراعة ، فأنقص عدد الزوجات إلى أربع ، وأثنى على من يكتفى بواحدة.[٣] وهكذا جاز للمسلم أن يتزوج أربع نساء ، ولكن بشرط أن ينفق عليهن ويعاملهن جميعاً على قدم المساواة المطلقة ، عاطفياً ومادياً على السواء ، أى ينبغى أن يقوتهن ويكسوهن ويسكنهن

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ج ٤ ص ١٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة النساء الآية ٣ .

ويحبهن جميعاً بطريقة واحدة ، وأن يوزع عليهن فى دقة شديدة نفس القسط من حنانه ومحبته ؛ وهذا شرط من المحال تحقيقه ، ولهذا قال : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »[١] .

ولقد كان علاج الطلاق بالخطة ذاتها . ولعل محمداً قد ود إلغاء هذا العرف الضار بالمرأة فأعلن أن « أبغض الحلال عند الله الطلاق »[٢] ، ونظم الطلاق على نحو أكثر رعاية لمصلحة المرأة ؛ فلم يعد للرجل منذ ذلك الحين حق تسريح زوجته ثم ردها ليسرحها مرة أخرى بحيث يبقيها تحت نيره بصفة مؤبدة[٣] بل حدد له القرآن سبيله فى ذلك ، وبين ماله وما عليه بقوله : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان » وبقوله بعد ذلك : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجاً غيره »[٤]

وإلى جانب الطلاق الذى يجوز للزوج وحده — من حيث المبدأ — أن يقرره ، أجاز الإسلام الطلاق بناء على رضا الطرفين ، أو حكم القاضى على أثر طلب الزوجة ذلك لأسباب يقرها الشرع (كعدم التكافؤ . أو التقصير فى التزامات الزوجة) .

---

(١) سورة النساء الآية ٣

(٢) الغزالى حـ ٢ ص ٤٢ .

(٣) راجع ما ذكرنا آنفاً ص ١٣٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

على أن هذه الإصلاحات الكريمة التى استنت فى سبيل الحد من تعدد الزوجات ومن الطلاق ، لم تستأثر — فيما يبدو — بكل رضا الشارع . فقد رأى محمد — بلا شك — أن مبادئه الآمرة بالمعروف نحو النساء ، قد لا يتبعها الرجال ، إذ هم ميالون بطبعهم إلى تأويل القانون على الوجه الذى ينفعهم ، وإلى التمسك بحرفية الكتب المقدسة لا بروحها ؛ ولذلك عهد إلى المرأة بسلاح يحميها — إذا هى أحسنت استخدامه — من ظلم الرجل حماية فعلية ؛ وذلك أنه لما كان الزواج عقدا ، فقد أعلن أنه « لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة[٢] ».ومنذ ذلك الحين أصبح من الجائز للزوجين عند اقترانهما أن يضمنا العقد نصوصاً فى صالح المرأة على الخصوص ، بشرط ألا تتعارض هذه النصوص وشرائع الزواج الأساسية . فلا يمكن الاتفاق مثلا على زواج التجربة ، أو زواج المتعة أو الشغار . وعلى العكس من ذلك ، فإنه ليس ثمة ما يمنع الخاطب من أن يمنح زوجته ضرة ، سواء أكانت زوجة أخرى أم سرية ، وليس ثمة ما يحول بين الخاطب وبين تنازله عن حق الطلاق جملة ، أو تنازله عنه لزوجته حتى لتستطيع الزوجة أن تفصل زوجها عنها دون أن تستصدر حكماً شرعياً .

وفى أنطاكية كانت الفتاة — عندما تتزوج — يضاف إلى شوارها

---

(١) سورة النساء الآية : ٢٤ .

معطف أزرق ، ترتديه إذا غضبت من زوجها ، فيصبح بذلك طالقاً . وهذا تقليد ثابت تعترف به سلطات المدينة الرسمية. وإذا كانت المرأة أفقر من أن تقتنى معطفاً أزرق استعارته من امرأة ثرية ، ثم أعادته إليها بعد أن تسجل طلاقها . . . وليست نساء أنطاكية هى اللواتى يزاولن ذلك فحسب ، بل إنه يوجد مثلا فى خيمات قبيلة « أنزه » ، ستارة مرفوعة دائماً ، إذا أنزلتها المرأة كان المقصود أنها تريد الطلاق . وفى قبيلة « التراكمة » ترسل الزوجة التى تلتمس الطلاق رسولا إلى زوجها يقول له : « إنى أكرهك » ، وهذا كفيل بانفصالها طبقاً لما تواضعا عليه[1] .

ولسنا نطالب بتعميم هذه العادات وبمنح جميع المسلمات حق ارتداء هذا المعطف الأزرق ، فإن الأزرق لون وسيم وقد يستهوى بنات حواء فيسرفن فى التدثر به . . . وإن تجريد الزوج من حق الطلاق لتزويد المرأة به ، من شأنه الإبقاء على إجراء بغيض بل وتشديده ، مما لا حاجة بنا إلى إيجاده . أليس أبسط الحلول إذن هو إلغاء الطلاق فى النطاق الذى لا يتعارض ونص الشريعة القرآنية ؟ إننا نعتقد أنه ليس ثمة ما يمنع من أن ينص فى البلاد الإسلامية ، على أنه « فيما عدا الاتفاق على غير ذلك فى عقد الزواج يعتبر أن الزوج قد تنازل عن حقه فى الطلاق » . وهذا التأويل

---

(١) فاطمة علية هانم ، بنت جودت باشا : نساء مسلمات ، فى بعض العادات الإسلامية ، ثلاثة أحاديث . ص ٢١١ من الطبعة التركية ، ص ١١١ و ١١٢ من الطبعة الفرنسية .

يطابق الروح الحقيقية لما يهدف إليه الشارع الأسمى ؛ لأنه ينزع نزعة إنسانية تتوخى الإنصاف وتحمى كرامة الزواج . وليس من شأنه أن يلغى الطلاق إلغاء ، وإنما أن يحد جديا من انتشاره . والزمن كفيل بإنجاز الباقى . ولسوف يظل باب الطلاق مفتوحاً على كل حال أمام الزوجين اللذين لم يؤلف بينهما الحب أو لم يرزقا أولادا .

* * *

وكان الحجاب فى عصور الإسلام الأولى علامة من علامات الامتياز. فلقد كان النساء يصطنعنه لئلا يخلط بينهن وبين الجوارى اللواتى لم يكن يفوت الشبان أن يتعقبوهن ويستثيروهن . ثم عُمم الحجاب حتى شمل نساء الأرض الإسلامية كلهن ، بغض النظر عن طبقاتهن الاجتماعية وجنسياتهن أو دينهن . ولم يعد الحجاب إذ ذاك هو الحد الفاصل بين الجارية والحرة ، بل بين الذكر والأنثى . وازدادت كثافة الحجاب شيئا فشيئاً حتى انتهت إلى عزل المرأة .

وأما الأسباب التى تحبذ فرض الحجاب ، فقد أجاد عرضها « ل . فيلارد فرانشيسكو نونيث موليث » فى الالتماس الذى رفعه إلى رئيس غرناطة — احتجاجاً على المرسوم الذى أصدره فيليب الثانى سنة ١٥٦٦م بإلغاء بعض العادات الأندلسية — يقول فيه : « ليست إجازة خروج النساء سافرات إلا قصداً إلى إغراء الرجال بالخطيئة ، بما يبدين من زينتهن

وحسنهن وما أيسر أن يلهب ذلك مشاعرهم ، وعمداً إلى حرمان الذميات ممن قد يرضون بزواجهن .إن نساءنا ليتحجبن حرصاً على ألا يعرفن كما تفعل المسيحيات . وذلك احتشام يجنبنا كثيراً من المآخذ »[١] .

وها هو ذاك وبعد انقضاء أربعة قرون ، ينشر ذلك الدفاع عن حجاب المرأة فى إحدى صحف القاهرة الصادرة فى شهر فبراير سنة ١٩١٤ :

« إن المرأة فى نظرنا وردة لن نسمح أن تلمسها الأيدى فتذبل وتذوى . إنها جوهرة كريمة ، يجب علينا أن نصونها فى حرزها ، ولا نستطيع أن نجلوها للأبصار وحولنا اللصوص اللئام . إنها نبع الفضيلة الذى ينبغى أن نستره خشية أن تلوثه الرذيلة فينضب معينه ، إنها شرفنا وكبرياؤنا ؛ وشرفنا وكبرياؤنا أعز علينا من أن ندع الريح تهب عليهما أو أشعة الشمس تمسهما . وليس حجاب المرأة لسجنها أبدا أو لكبت حريتها ، وإنما هو الدليل على احترامها ورعاية حرمتها » .

ويزعم أنصار الحجاب وعزل المرأة أن هذين التدبيرين قد شرعهما الله ونص عليهما القرآن ، ولكننا نشك فى ذلك .

أما عن الحجاب ، فليس فى القرآن مايخول فرضه أو يعذر من يستغله. ولقد أجمع مفسرو الكتاب على أنه يجوز للمرأة أن تكشف عن «وجهها ويديها». أفلا يمنع الحياء أنصار الحجاب من أن يطالبوا بأكثر من هذا الإجماع ؟[٢]

---

(١) ل . فياردو : تاريخ العرب والأندلسيين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٦٨ وما يليها .

وأما عن عزل المرأة ، فقد أوصى به الرسول زوجاته وحدهن ، كما جاء فى سورة الأحزاب : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » . فلاعتبارهن طبقة ممتازة من النساء ، وبالنظر إلى شرف مكانتهن ، فرض عليهن محمد واجب البقاء فى بيوتهن ، وعدم كشف وجوههن لأجنبى [1] . كما حرم عليهن أن يتزوجن بعد وفاته . فتلك إذن قوانين استنت على وجه التخصيص لصون كرامة زوجات النبى . ولقد فهمها أصحاب الرسول على هذا النحو ، لما نرى فى أول عصور الإسلام من اختلاط النساء فى حرية بالرجال ، واشتراكهن فى اجتماعاتهم وندواتهم الأدبية والدينية بل وفى مشاجراتهم . وتشهد بذلك عائشة ، أرملة النبى ، التى اضطلعت بدور هام فى المنازعات الحزبية التى تلت مقتل الخليفة عثمان ، وساهمت بصورة فعالة فى موقعة « الجمل » . ويشهد بذلك أيضاً هذا الحوار الطلى الذى دار يوما بين عمر ابن الخطاب وزوجته ، ونقله إلينا الطبرى :

عندما استقبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المجتهد الصارم ، رسول سلمى بن قيس ، قال لزوجته وهى وراء ستر : « غذاءنا يا أم كلثوم » . فمدت له أم كلثوم رغيفاً بالزيت وسطه قطعة غليظة من الملح . فقال عمر : « أم كلثوم ، هلا شاطرتنا طعامنا ؟ » فقالت : « إنى أسمع صوت رجل غريب معك » . فأجابها : « نعم ، غريب » . ويضيف رسول سلمى

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٣ « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة . وآتين الزكاة . . . » (تحقيق) .

ابن قيس : ولما علمت زوجة الخليفة أن عمرلا يعرفنى قالت : « لوحرصت على أن أقابل الرجال ، لألبستنى كما يلبس ابن جعفر زوجته ، أو كما يلبس الزبير زوجته ، أو كما يلبس طلحة زوجته . . » قال عمر : «أفلا يكفيك أن يقال عنك: أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر ؟ » والتفت نحوى يقول: «فلنقنع بهذا الخبز ، فلو قد أرادت لقدمت لنا أشهى منه » .

على أن هذا الجدل حول حجاب المرأة وعدم اختلاط الجنسين ، يبدو من نافلة القول ، ولا جدوى منه إلا نظريا . فلقد انقضى فى الواقع عهد سجن المرأة عقاباً لها ، وأصبح الحجاب شفافاً هفهافاً ، وإذا حرص النساء على التزين به فما ذلك « لأنه يتيح للدميات فرصة العثور على من قد يرضون بزواجهن » — فلم تعد هنالك دميات ولله الحمد — بل لأنه يتيح للمرأة أن تنظر من ورائه دون أن يراها الناظر ، ولأنه يضفى على حسن النساء ما فى غموض السر من جاذبية وسحر أخاذ .

وكذلك لا يجدينا الحديث اليوم عن التسرى ، فقد زال التسرى نهائيا بإلغاء تجارة الرقيق .

وهكذا يتضح لنا أنه من الخطأ إذن ومن الإجحاف ، أن نزعم أن « دين الإسلام وحده هو السبب الوحيد لانحطاط المرأة ».وكان أولى بنا أن نعلن أن دين الإسلام قد منح المرأة — منذ القرن السابع — حقوقاً وامتيازات ، ما زالت أوربيات القرن العشرين ينزعن إليها . فمن

أى عهد ، وعلى أثر أى جهد ونضال ، نالت المرأة حق مزاولة مهنة حرة ، واستطاعت أن تصبح محامية أو طبيبة أو مدرسة ، وأن تلتحق بمعهد الفنون الجميلة ، وأن تعرض لوحاتها فى معارض الصور ؟ . . . ثم أليست المرأة اليوم لا يمكنها أن تتولى أمر ثروتها الشخصية دون تصريح سابق من زوجها ؟ بل إن المرأة التى تزوجت على أساس انفصال أملاكها عن أملاك زوجها ، ليعوزها ترخيص من الزوج إذا أرادت أن تبيع عقاراً .

لقد منح محمد المرأة منذ القرن السابع شخصية خاصة إذن . فلقد اعترف لها — دون أن يجعل منها بصريح القول مساوية للرجل — بحقوق الرجل فعلا . فالمسلمة أهل لأن ترث وتشهد ، ولأن تتولى أمر ما تملكه ، وهى تستطيع أن تبيع وأن تشترى وأن توصى دون حاجة إلى إذن الزوج ، وتستطيع أن تزاول التجارة . وإن جميع الأعمال والمهن ميسرة لها ، حتى الوظائف العامة ؛ إذ كان من حقها الإفتاء وإدارة المدارس وتعليم الفقه ، وأن تكون قاضية تقيم العدل بين الرجال[1] .

ولكننا ينبغى أن نعترف بأن ما ينسب للإسلام من مسئولية تأخر المرأة ، ليس كله من قبيل الخطأ ، بشرط ألا نخلط هنا بين الشريعة الإسلامية وبين التأويلات المغرضة المشئومة ، التى تفتقت عنها عقول

(١) يجيز الحنفيون للمرأة أن تتولى القضاء المدنى (ك . هيوار : تاريخ العرب ، طبعة ١٩١٢ ، جـ ١ ، ص ٣٥٩) .

الناس فى عصور الفساد والانحطاط . فقد ظهر التطبيق الخاطئ على المبادئ ، وقُدم العرف السقيم على تعاليم القرآن ؛ ومن هنا راح الناظر إلى العادات المنحرفة السائدة ، يتّهم الدين زوراً وبهتاناً .

لقد اجتمع الغرور والكبرياء والجهل وعسف الرجال ، واعتمد هذا كله على المثل المأثور فى سائر الحضارات العتيقة والذى أقره الإسلام — على النحو الذى بيناه — وهو أن « الرجل أرفع من المرأة » ؛ فأدى ذلك شيئاً فشيئاً إلى استعباد النساء .

لقد استغل الذكر كونه المكلف بقضاء حاجات المرأة ، وبالانفاق عليها ، فعاملها معاملة الأكبر للأصغر وفرض عليها أن ترزح تحت سيطرته وأن تظل تابعة له ؛ فلم يتخذ منها معاونة له ، بل غدا ولى نعمتّها ، وباتت هى متاعه .

وهنالك أسباب أخرى تشرح سر تدهور المرأة المسلمة ؛ فإن حياة الشرق التى يسودها التأمل والسكون ، قد أتاحت للرجل أن يطلق العنان لخياله ، وأن يسترسل فى تصور اللذات والمغامرات ؛ ولما كانت المرأة تراود فكره دائماً ، فقد تسلح لمواجهة الأخطار الخيالية التى هى خليقة بأن تعرضه لها ، وقاده ذلك إلى أن ينزلها منزل العجز والرق . وكذلك — وهنا ندع الحديث لبول بورجيه ، إذ يقول : « إذا خبأ الشرقيون نساءهم واستعبدوهن ، فما ذلك إلا لأنهم يحبونهن حبا حسيا عنيفاً ، وفى الحس يربض لون من البغض مرتبط بما يكمن فيه من الغيرة الوحشية ؛ وإذا كنا

فى العالم اللاتينى – بالرغم مما ندع للنساء من حرية أكبر – لا نقبل دون احتجاج فكرة استقلالهن ونهوضهن بأعمال شخصية ، فما ذلك إلا لأننا نشعر – خلال ما يخالجنا ويراودنا من مختلف المعانى – بشىء مما يشعر به الشرقى ؛ وإذا كان الإنجليزى قد أباح للإنجليزية قسطاً أوفر من الحرية ، فذلك لأن عوامل المناخ والجنس والدين قد أمعنت فى ترويض خلقه ؛ فاشتهاء المرأة إنما يأتى فى المرتبة الثانية فى مشاغل الإنجليز» .

وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة الطويلة ، أن نهضة المرأة المسلمة وعودتها إلى الحياة أمر ممكن لا شك ، ما دام هوانها لم ينشأ عن مصدر إلهى ودينى ، وإنما عن إرادة الرجال وحدهم .

ولقد اتجه بالفعل حجاب المرأة وعزلها نحو الزوال ، وولى عهد التسرى ، وقل الطلاق ، ولم يعد لتعدد الزوجات من أنصار إلا فى القرى النائية ، وبين الدهماء . ومن المهم أن يتخذ هذا التقدم الاجتماعى إطاراً شرعياً من تفسير المبادئ القرآنية تفسيراً سليما واسع الأفق .

ولن تلبث المرأة المسلمة حتى تستعيد شخصيتها وكرامتها الأوليين ، متى تحررت من القيود التى ما زالت تشدها ويزعمون أنها دينية ، ومتى ربيت وتعلمت كالرجال سواء بسواء . ولسوف يتجشم الرجال فى سبيل تجريد أنفسهم مما يمتلكون – أو مما يتملكهم – عناء كبيرا ، ولن يروق لهم أن يشهدوا انهيار النظام الاجتماعى الذى شادوه لمنفعتهم الخاصة ، وأن

يصبحوا مساوين لأولئك اللواتى لم يكن حتى ذلك الحين إلا إماء لهم .
ولكن على ذلك يتوقف خلاص الشعوب الإسلامية ووجودها : فإن نهضة الإسلام فى نهضة المرأة المسلمة . وما صادفت كلمة « جول سيمون » تطبيقاً أصدق منه فى هذا المجال ، إذ يقول : « إن تربية الفتاة صناعة شعب جديد ، وتجديد لجميع الشعوب[1] » . وبالمرأة — وقد تربت وتعلمت — سوف تصنع وتتجدد شعوب الإسلام . وإذ ذاك تستأنف المرأة المسلمة دق الدفوف بيديها الصغيرتين ، لا استثارة لحماس الرجال فى ميدان القتال — كما فعلت هند وصاحباتها — بل لإيقاظ الشرق النائم ، وإعلان دخوله ميدان الحضارة ، وتسجيل عودته إلى معترك التقدم !

(١) جول سيمون : المرأة فى القرن العشرين

تعظيم الخيل والأسلحة

يقول لافيس : « منذ القرن الحادى عشر ، لا نكاد نرى المحاربين يقاتلون ، إلا وهم على صهوات الجياد ، ولذلك أطلق على المقاتل فى العصور الوسطى اسم « الفارس » ؛ فهو فى فرنسا يدعى Chevalier ، وفى جنوبيها Caver ، وفى إسبانيا Caballero ، وفى ألمانيا Ritter ؛ وأصبحت كلمة « العسكرى » فى النصوص اللاتينية القديمة Miles مرادفة لكلمة « فارس » . »[1] وكذلك كان الأمر فى اللغة العربية ، إذ يدعى المقاتل فارسا ، نسبة إلى الفرس . ويسجل هذا الأصل المشترك للكلمة فى عدة لغات ، ما يربط بين الفارس والفرس من صلات لا تدعنا نتصور الفارس بلا فرس ، بل ويخيل لنا الحصان قاعدة حية لتمثال الفارس . وإذا كان جمال النحت يتجلى فى أن يصنع الفنان قاعدة التمثال من مادة التمثال نفسها — رخاما كانت أو « برونزا » أو عاجا أو جرانيت — فإن فن الفروسية كذلك يقتضى أن تجمع بين الفرس وفارسه صلة وثيقة ، وأن يكون بينهما حظ مشترك متكافئ من نفس الجمال البدنى الموروث عن أصل عريق ، ونفس الفضائل الأخلاقية كالذكاء والشجاعة والكرم . فما الذى أوحى يا ترى للعرب هذا الفن الذى أبدعوه فى صورة وافية موفقة ،

---

(١) لافيس ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

ما زالوا يبذلون الجهد لإبقائها وإحيائها ؟ وهل يمكن أن يكون سوى طبيعة بيئتهم ، وأسلوبهم فى العيش وروحهم الأصيلة ؟

تخيلوا مساحات شاسعة من الرمال ، تناءت فيها العيون والمراعى ومضارب الخيام . هناك لا أنهار ولا سفن ، ولا سبيل إلى التواصل السريع سوى الحصان . وتخيلوا من ناحية أخرى حياة العرب المضطربة بالأحداث ، وقتالهم الذى لا ينقطع بين هجوم ودفاع ، وتنقلهم الفجائى ، ورحيلهم المتلاحق لانتجاع الكلأ . فعلى سرعة الطرد أو السلب تتوقف سرعة العودة بالصيد أو الغنيمة ، وعلى جلد الفرس يتوقف مدى الغارة ؛ وإن براعة الفارس من براعة الفرس ، فالسابق إلى تسديد الضربة القاتلة هو السابق أيضاً إلى الفرار من المعمعة ، وعلى قدر خفة الجواد يقصر أو يطول البعد بين الفارس ومحبوبته . . . بفضل الجواد إذن يستطيع العربى أن ينقذ ما يملك ، وأن ينطلق متعقبا عدوه ، وأن يذود عن أهله وعن حريته . هكذا كان الحصان مصدر منافع ومغانم ، فاستأثر منذ أقدم العهود بحب العرب ، لما يؤدى لهم من خدمات جليلة يعجز دون أدائها سواه . ولذلك عنوا كل العناية بتربية هذا الحيوان وتهذيبه ، حتى يحصلوا على أقصى ما يمكن من مزاياه . وهكذا أصبح أجمل الجياد وأسرعها وأقواها ، موضع التهافت ، ومصدر الثروة الطائلة التى تعود بالمجد على صاحبها المجدود .

على أن مالك الجواد لم يكن يعتز به لأنه كان مجلبة للآلاء والمنافع فحسب ، بل ولأنه كان نعم الرفيق . فلقد كان المقاتل يمضى وحده ،

لا يصحبه إلا جواده ، فيدعن فى السير التماسا للمغامرة ، وقد تطول جولاته خلال مفاوز جزيرة العرب ، حيث تعصف دائما ريح الشحناء ، ويزمجر شيطان الثأر والبغضاء ، وترعد بروق الغدر وتهدر الدماء . . . فلا يجد الرجل إلا جواده صديقاً أمينا . أو ما كانا يتقاسمان صروف الحياة ؟ أو ما كانا يتعرضان لنفس المخاطر ؟ أو ما كانا يتذوقان نفس النشوة فى غمار المعارك ؟ أو لم تكن النصرة والعزة ثمرة لتعاونهما الوثيق ، وشجاعتهما المتكافئة ، وجلدهما وذكائهما و براعتهما ؟ فإذا خرجا لموعد غرام انطلق الجواد يسابق أشواق سيده ، ومن يدريه ، فلعله واجد هنالك فى انتظاره فرسا جميلة كريمة جديرة به ، قرب خباء تلك الحسناء المشرقة .

مهفهفة بيضاءُ غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[1]

وإذا خرجا للمراقبة استطاع الرجل عندما يجن الليل أن يهبط إلى السهل ، بينما يظل جواده ساهرا يحرس المكان كما يقول لبيد :

فعلوت مرتقبا[2]على ذى هبوة[3] حرج[4] إلى أعلامهن[5]قتامها[6]

---

(١) معلقة امرئ القيس المهفهفة : اللطيفة الخصر . وغير مفاضة : ضامرة البطن . ترائبها . . . الخ . أى صدرها مشرق متلألئ .

(٢) المكان المرتفع الذى يقوم عليه الرقيب .

(٣) غبرة .

(٤) ضيق جداً .

(٥) الجبال والرايات .

(٦) الغبار « أى راقبت الأعداء من أعلى جبل قريب منهم » .

حتى إذا ألقت يداً فى كافر[١] وأجن عورات الثغور ظلامها
أسهلت[٢] وانتصبت كجذع منيفة[٣] جرداء يحصر دونها جرامها[٤]

وإذا اقتضى اللقاء هجوما ودفاعا فإن الجواد :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل[٥]

ويقصد شعراء المديح الخليفة أو الأمير الكريم ، التماساً لجائزة أو هبة ، فيدورون فى أسلوب يتراوح بين الواقع والمجاز حول هذا الإطراء :

عـــلام تلفتين وأنت تحـــتى وخـــير النـــاس كلهم أمامى
متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى[٦]

وهكذا نستطيع أن ندرك فى يسر ، كيف نشأ بين الفارس والفرس ، شعور متبادل من الشكر والاحترام والاعتزاز تلا ما كان يربطهما أولا

---

(١) الليل (أى حتى إذا غربت الشمس وأظلم الليل) .

(٢) أسهل : أتى السهل من الأرض .

(٣) العالية .

(٤) جمع « جارم » وهو الذى يقطع حمله .

(أى لما غربت الشمس نزلت إلى مكان سهل وانتصبت الفرس أى رافعة عنقها كجذع نخلة طويلة يضيق صدور الذين يريدون قطع حملها لعجزهم عن ارتقائها) .

(٥) معلقة امرئ القيس .

(٦) الانساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرحل . الدبر : جمع دبرة وهى قرحة الدابة .

من شعور الحب والزمالة ؛ لقد عرف العربى للدابة فضل وفائها وعظيم جدواها ، كما عرفت الدابة للرجل فضل عنايته بها وعلمه بالفروسية وذيوع صيته .

وإننا لنجد فضلا عن ذلك فى جميع القصائد التقليدية — سواء كان موضوعها المدح أو الفخر أو الحكمة — جزءا مخصصا لوصف الجواد أو الناقة ، قد يكون أجمل أجزاء القصيدة . وعلى هذا فنحن لا نغالى حين نقول إن الفارس العربى وفرسه كانا يتشاطران الحياة ويتلازمان ، مما دعا إلى تعريف كل منهما باسم الآخر : فلقد كان يقال « فرس عمرو » كما كان يقال « فارس السميدع » و « فارس أبجر » أو « فارس بهرام » . وكذلك كان مما يفخر به المرءُ أن يحوز لقب « فارس الفوارس » أو « فحل الفحول » أو أن يقال عنه : صاحب الخيل ، مثل « طفيل الخيل » أو « فريد الخيل » . . .

لقد تضافرت كل العوامل إذن على أن تنمى لدى عرب الجاهلية حب الخيل واحترامها ، ثم جاء الإسلام فأضاف إلى هذه الحوافز — حوافز الإثراء واللذة ، والفن والفخر — حافزا جديدا . فلقد كان محمد سياسيا بارعا أريبا ، أدرك لزوم الحصان للمسلمين حتى ينشروا الشرع الحنيف على الملأ . وفى ذلك الزمن ، لم يكن المشاة هم سادة المعارك ، ولم يكن البارود قد أحدث دويه ، بل كان الحصان هو الذى يحسم القتال وهو الذى يحقق هجرات الشعوب ؛ لذا قرر الرسول وقف هذا الحيوان

العجيب على نفع المسلمين فقط ، فخلع عليه طابعا مقدسا ، وأحاط مولده بالرمزية والإعجاز ، وأثنى فيه على فضائل خاصة وفوائد جمة ، وجعله خليقة مصطفاة أعدت للحرب والمجد ، وفرض على المؤمنين واجب تربيته وتدريبه فى سبيل الله . وإن فى هذه الوصايا الدينية ما يشرح ضروب الحب والعناية التى ما زال العرب حتى اليوم — ولو كانوا من أهل المدن — يحيطون بها خيلهم .

أصل الفرس

روى أنه حينما أراد الله خلق الحصان ، قال لريح الجنوب : إنى أريد أن أخرج منك خليقة تصبح فخر أوليائى ورعب أعدائى . فأجابت الريح : سمعاً وطاعة إنك أعلم العالمين . وأخذ الله حفنة من الريح وخلق منها حصاناً أصهب داكنا وقال له : « لقد خلقتك عربياً . أخرجتك من الريح . وجعلت السعد فى العرف الذى ينزل على عينيك . طر بغير جناح . وكن سيد جميع الحيوانات . مكر مفر ، على صهوتك رجال يحمدوننى ويسبحون لى . كلما حمدونى حمدتنى وكلما سبحوا لى سبحت» ووسمه سمة المجد والسعد ، وهى شهبة فى رأسه ووسط جبهته »[1] ووثب الجواد فى الفضاء .

وهكذا خلق الحصان ، لا كما خلق سائر الحيوان ، ولا فى الوقت ذاته ، بل على حدة وبعناية خاصة . وكأنما أراد الخالق أن يحسن جبله ، فأوجد أولا جميع الحيوان ، ثم أراد أن يتوج عمله بتحفة فنية فكان الحصان . وإن أمامنا فيضاً من الدلائل الساطعة على حب الله لخليقته الجديدة ؛ فالله يخاطب الحصان ، كما يخاطب الملائكة والأنبياء . ويشركه فى أعمال المؤمنين ، فهو بحق فخر المصطفين ، ومرعب العدو ، وإنه ليحمد

---

(١) كتاب علم الفروسية مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

الله كما يحمده بنو آدم الخيرون . ويغدق عليه الله من نعمه ، فيمنحه سرعة الطير ، وقوة الدابة ، وشجاعة الإنسان . وإذ قد خرج من الريح ، فإن له خفة النسيم ورشاقته ، وعتو الريح وصولته . وكان من نصيبه جمال البدن ، من إهاب قاتم ، وشهاب أبيض على الجبهة ، وجمال الخلق من ذكاء فى الفر والكر ، وحمية المتقين ينفقها فى مقاتلة أعداء الإيمان . وهو فى آخر الأمر ملك سيد ، ورحيم يصنع المعروف ويكفيه شرفاً أنه خلق عربياً .

وإن فى القرآن الكريم لتشريف عظيم للخيل ، إذ يقسم بها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا . إن الإنسان لربه لكنود » [1] .

ولنعد الآن إلى ما أثر عن الأصل «الأرضى» للجواد العربى . فقد أخبرنا الواقدى ومن ذهب مذهبه من المؤرخين ، أن الحصان قد عاش متوحشا كالغزال والنعامة وسائر الحيوان حتى جيل إسماعيل بن إبراهيم جد العرب [2] .

---

(١) سورة العاديات . وقد ورد نص مشابه فى سفر أيوب (٣٩ : ١١ — ٢٥) : « أتعطى الفرس عنفوانه ، وتكسو عنقه عرفاً ، أتمنحه أن يثب وثب الجرادة ؟ إن نفخ منخره يثير الرعب . إنه يدك الأرض بقدمه وينطلق فرحاً صوب المعمعة . يسخر من الخوف . ولا يرتاع ولا ينثنى أمام السيف . على صهوته تصل السهام وسنان الرمح والمزراق . عند نفخ البوق يقول « هه » ، ومن بعيد يستروح القتال وصياح القادة وهتاف الجند » .

(١) عن ابن عباس « كانت الخيل وحوشاً لا تركب ، فأول من ركبها اسماعيل فلذلك سميت عراباً » أنساب الخيل ص ١٢ (تحقيق) .

كما يخبرنا ابن عباس أن : أول من ركب الخيل واتخذها ، إسماعيل ابن إبراهيم ، وأول من تكلم بالعربية الفصيحة التى أنزل الله قرآنه على رسوله بها ، قال : فلما شب إسماعيل أعطاه الله القوس فرمى عنها . وكان لا يرمى شيئا إلا أصابه . فلما بلغ أخرج الله له من البحر مائة فرس ، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله ، ثم أصبحت على بابه ، فرسنها وأنتجها وركبها[١] .

ثم فقد كثير من هذه الجياد على مر الزمن نقاء أصله .

وكان داود نبى الله يحب الخيل حباً جماً ، فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق[٢] وعتق[٣] أو حسن أو جرى ، إلا بعث إليه ، حتى جمع ألف فرس ، لم يكن فى الأرض يومئذ غيرها . فلما قبض الله داود ، ورث سليمان ملكه وميراثه ، وجلس فى مقعد أبيه ، فقال : « ما ورثنى داود مالا أحب إلى من هذه الخيل » . وضمدها وصنعها (أى أحسن القيام عليها)[٤] .

ويحدثنا ابن عباس أيضاً قائلا : « إن أول ما انتشر فى العرب من تلك الخيل ، أن قوما من الأزد من أهل عمان قدموا على سليمان بن داود

---

(١) أنساب الخيل ص ١٢ .
(٢) بأصل . ومنه قولهم : عريق النسب .
(٣) بكرم .
(٤) أنساب الخيل ص ١٢ .

بعد تزوجه بلقيس ملكة سبأ ، فسألوه عما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم ، حتى قضوا من ذلك ما أرادوا وهموا بالانصراف فقالوا : « يا نبي الله ، إن بلدنا شاسع وقد أنفضنا من الزاد . مر لنا بزاد يبلغنا إلى بلادنا » فدفع إليهم سليمان فرسا من خيله ، من خيل داود ، قائلا : «هذا زادكم ، فإذا نزلتم فاحملوا عليه رجلا وأعطوه مطردا (رمح قصير يطعن به حمر الوحش) وأوروا ناركم . فإنكم لن تجمعوا حطبكم وتوروا ناركم ، حتى يأتيكم بالصيد » . فجعل القوم لا ينزلون منزلا إلا حملوا على فرسهم رجلا بيده مطرد ، واحتطبوا وأوروا نارهم ، فلا يلبث أن يأتيهم بصيد من الظباء والحمر فيكون معهم منه ما يكفيهم ويشبعهم ، ويفضل إلى المنزل الآخر . فقال الأزديون : « ما لفرسنا هذا اسم إلا : زاد الراكب » . فكان ذلك أول فرس انتشر في العرب من تلك الخيل .

فلما سمعت بنو تغلب ، أتوهم فاستطرقوهم. فنتج لهم من زاد الراكب : الهجيس فكان أجود من زاد الركب .

فلما سمعت بكر بن وائل ، أتوهم فاستطرقوهم ، فنتجوا من الهجيس : الديناري فكان أجود من الهجيس .

فلما سمعت بذلك بنو عامر ، أتوا بكر بن وائل فاستطرقوهم على سبل (وكانت أجرد ما أدركوا ؛ وأمها سوادة وأبوها فياض) فنتجوا منه : أعوج[1] .

---

(١) أنساب الخيل ص ١٣ – ١٦ (تحقيق) .

وهكذا نمت الجياد وتعددت ، وتحسن النسل من جيل إلى جيل ، وانتشرت الخيل بين العرب الذين يعرفون نسب كل جواد .

ويتضح مما تقدم ، أن الجياد العربية كانت من نسل « زاد الراكب » حصان داود ، الذى ينتسب فى خط مستقيم إلى الجياد الشريفة التى وهبها الله عبده إسماعيل .

ويتضح مما تقدم أيضاً أن عرب الجاهلية سرعان ما أدركوا نفع الفرس وجماله ، وأنهم كانوا يقتنون — إلى عهد بعيد قبل محمد — جنسا من الجياد لا مثيل له ، وقد بذلوا الجهد لتحسينه والإشراف به على الكمال ؛ وذلك عن طريق الانتقاء والتربية وضروب العناية المعتمدة على الفطنة . ولكن النبى (صلى الله عليه وسلم) — وقد طلع على العرب بشريعة جديدة كانت فى آن واحد رسالة أخلاقية ودينية ومدنية وسياسية تقوض عقائد الجاهلية وتمحو عاداتها وأخلاقها وتقاليدها ونزعاتها ، ثم تشيد هذا كله وترسيه على أسس الإيمان السليمة القومية — قدّر عليه الصلاة والسلام أنه من الخير تنمية اهتمام القوم بالحصان ، لا من أجل غرض نفعى فحسب ، بل من أجل إعلاء كلمة الله . واستخدم المصلح العظيم جميع ما أوتى من قدرة ، لتشجيع المسلمين وحثهم على ترويض الخيل وتربيتها ، وإعداد أقصى عدد ممكن منها للقتال فى سبيل الله . وضرب بنفسه خير مثل ، فقد أحب الجياد واقتنى منها — فيما يقال — عشرين جوادا من أفضل نوع .

ويتفق المؤرخون على خمسة من أسماء الجياد التى حظيت برعاية الرسول الكريم وهى : لزاز . لحاف . المرتجز . السكب . اليعسوب . وكان محمد يظهر حبه لهذه الجياد جميعا بلا تمييز ، ويغدق عليها عطفه ، فكان يقدم لها الشعير بيده ، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بكمه وجه فرسه وعينيه ومنخريه[١] . وقد أفادت تلك الدروس ، كما يتجلى ذلك فى القصة التالية :

روى « صاحب رشحات المداد[٢] » أن روح بن زنباغ الجذامى رأى تميما الدارىّ فوجده ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، وحوله أهله . فقال روح : ما كان لك من هؤلاء من يكفيك ؟ قال تميم : بلى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من امرئ مسلم ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، إلا كتب الله له بكل حبة حسنة» .

وتروج منذ ذلك الأوان ، رواية النوادر والحكايات والحكم والأمثال ، التى تهدف جميعها إلى الحث على اقتناء الخيل ، وتربيتها وتوسيع مواردها .

ويستطيع الباحث أن يملأ كتيبا ، إذا جمع الأحاديث النبوية التى قيلت فى الحصان ، وحفظتها عنه الأجيال فى ورع . وها هى ذى أشهر المبادئ التى كان من أثرها أن جرى فى دم المسلمين حب الفرس :

---

(١) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ . (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ (تحقيق) .

لقد أورد(١) البلقينى فى « قطر السيل فى أمر الخيل » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— ما من رجل مسلم إلا وحق عليه أن يرتبط فرسا إذا أطاق ذلك .

(كما روى أيضاً فى كتاب أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام ص ١٠ قوله صلى الله عليه وسلم) «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

— من ارتبط فرسا فى سبيل الله ، كان له مثل أجر الصائم القائم والباسط يده بالصدقة ما دام ينفق على فرسه .

— من هم أن يرتبط فرسا فى سبيل الله بنية صادقة أعطى أجر شهيد(٢)

— وسأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم : أى المال خير ؟

قال : سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة(٣) .

ولم يقنع محمد بإغداق وصاياه الكريمة ، بل راح يخاطب روح التنافس التى اشتهر بها العرب وروح الكسب الكامنة فى طبيعة البشر ، حتى تكثر الخيل الطيبة . فلقد نظم مباريات لسباق الخيل اشتركت فيها جياده ، وأجاز فى ذلك الرهان المحرم فى سائر الأغراض الأخرى تحريم

---

(١) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام : تعليق ص ٦ .

(٢) الحديثان أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام : ص ١٠ .

(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ١٧٩ (والسكة : الطريق المصطفة من النحل . ومأبورة . يعنى : ملقحة . ومأمورة : يعنى . كثيرة النسل والنتاج . تحقيق) .

الميسر[١] ووضع جوائز للفائزين . ولقد راهن رسول الله صلى الله عليه[٢] وسلم على فرس له يقال لها « سبحة » فجاءت سابقة ، فهش لذلك وأعجبه . كما سابق الرسول بين الخيل المضمرة ؛ فأرسلها من الحفيا إلى ثنية الوداع (وهما مكانان بالمدينة المنورة بينهما مسافة ستة أميال أو سبعة) ؛ وسابق أيضاً بين الخيل غير المضمرة ، فأرسلها من ثنية الوداع إلى مسجد ابن زريق ، والمسافة بينها ميل أو نحوه ، وسابق بينها على حلل أتته من اليمن فأعطى السابق ثلاث حلل ، والمصلى حلتين ، والثالث حلة ، والرابع دينارا ، والخامس درهما ، والسادس قصبة وقال له :

بارك الله فيك وفى كلكم وفى السابق ، والفسكل (أى الذى يجىء آخرا) .

وأجرى الخيل ، فسبق سهل بن سعد الساعدى على فرس لرسول الله ، فكساه بردا يمانيا .

ثم أجرى الرسول الخيل ، فجاء فرس له أدهم سابقا ، وأشرف على الناس ، فقالوا : الأدهم ! الأدهم! وجثا الرسول على ركبتيه ومر به الفرس — وقد انتشر ذنبه وكان معقودا — فقال : « إنه لبحر ! » .

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : كل لهو المؤمن باطل إلا فى ثلاث : تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته . فإنه حق . (العقد الفريد جـ ١ ص ٢٢١ تحقيق)

ويجيز قانون نابليون بالمثل — فى المادة ١٩٦٦ — ما جعل من الرهان للمباراة « بالأسلحة وسباق الخيل وسباق المركبات . . . والألعاب التى تتصل ببراعة البدن ورياضته » .

(٢) انظر « أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام » تعليق ص ٨ (تحقيق) .

وفى تقسيم الغنائم ، آثر النبي الفارس ، واعترف بنصيب معلوم للفرس (فقد أورد البخشى فى « رشحات المداد » ما خلاصته) : إن الفارس يفضل على الراجل بشىء مخصوص وليس ذلك إلا للفرس » فإن غيرها من الدواب – إذا قاتل عليها الإنسان – فلا يستحق شيئا معينا ، بل يرضخ له رضخا ولو كان أعظم الدواب كالفيل (والرضخ هو إعطاء المقاتل قليلا من كثير من الغنيمة أو هو إعطاؤه دون السهم) .

وأما الفرس ، فقد ورد تفضيله بسهم معين : فذهب أبو حنيفة إلى أن الفارس يعطى سهمين (له ولفرسه) مستدلا بما فعله الرسول مع المقداد ابن عمرو فى يوم بدر ، ومع الزبير بن العوام فى يوم بنى قريظة ، ومع جميع الفوارس فى وقعة بنى المصطلق . وفى غزوة الحديبية[1] كان للفارس سهمان وللراجل سهم واحد . ولكن الذى ذهب إليه الجمهور (واعتمده ابن حنبل) هو أن الفارس له ثلاثة أسهم ، واحد له واثنان لفرسه ، وأما الراجل فله سهم واحد (كما فى الصحيحين) ، واستدلوا بما فعله الرسول فى غزوة خيبر وفى غزوة المريسيع ، واستشهدوا بقوله صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة : « إنى جعلت للفرس سهمين وللفارس سهما » وعلى ذلك جرى أسامة بن زيد ، فإنه جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما وأخذ لنفسه مثل ذلك . وحصل ذلك بمشهد من المهاجرين والأنصار ولم ينكر عليه أحد ، فهو بمنزلة الإجماع السكوتى[2] .

---

(١) الحديبية : لم يحدث فيها قتال . فلعله يعنى غزوة حنين (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ (تحقيق) .

إن الحصان — فى عبارة موجزة—فضلا عن كونه مصدرا من مصادر النفع فى زمن السلم وزمن الحرب على السواء ليبدو فى نظر الإسلام وكأنه التميمة ، فهو فى الدنيا فأل حسن ، وللآخرة عربون الرحمة الإلهية وتأمين النعيم الأبدى . ولذلك عنى الفرد كما عنيت الجماعة باقتناء أكبر عدد ممكن من الجياد ، تُبذل لها العناية وتُكرم إكرام الأهل « النافعين الصالحين » .

ومنذ يولد المهر ، يتهلل الأهل ، لأن مولده نعمة من نعم الله . ويتناوله على الفور أحد الحاضرين فيطوف به حول المكان فينة بين هتاف الهاتفين وصخب الصاخبين . ويرى القوم فى هذا النهج درسا مفيدا للمستقبل ، فإن الحيوان إذا اعتاد الضجيج منذ مولده لن يرهب بعد ذلك شيئا[1] ثم يضع رب الخيمة ثدى الأم الأيمن فى فم الوليد ، صائحا : « باسم الله ، اللهم اجعله لنا هنيئا ، وليجلب لنا الخير والصحة » ، فيجيب الحاضرون : « آمين » .

وفى ختام هذا الحفل يعهد بالمهر إلى نساء الخيمة ، فيقمن بتربيته تربية منهجية توحيها عاطفة الأمومة ؛ فإنهن ليعتبرنه كالولد ، وما رسالتهن سوى إقامة هذا التضامن الذى ينبغى أن يربط بين الإنسان والحيوان ، وذلك بالحدب عليه والعناية الدائبة به . وهكذا يصبحن فيخرجن إلى المراعى حيث يجمعن ما يطيب للخيل من أعشاب مغذية مقوية ، ويمسين فيقتدن

(١) الجنرال دوما : خيول الصحراء ، ص ٩١ .

الخيل إلى العين أو إلى حوض الشرب . وبأيديهن يقدمن لها اللبن والتمر والشعير أو الخبز الطرى أحيانا . فإذا اشتد الحر أدخلنها تحت الخيمة ، وهناك يلهو الحصان ويلعب مع « إخوته » من أبناء سيده . ويأنس الحصان لهذه الألوان من الاهتمام والتدليل فتربطه بأهل الخيمة جميعاً روابط الألفة . فما إن يرى سيدته مقبلة حتى يدير رأسه نحوها فى رشاقة ، ويصهل فرحا ، ويكدف سرورا ، ويسعى إليها متمنيا أن ينال شيئا من الحلوى ، فإن الحصان ليعرف اليد التى تعلفه وتعنى به وتربت عليه .

ثم يبدأ تدريب الجواد بصحبة رفيق لعبه وقد شب عن الطوق كذلك ، وأخذ يتلقى أصول الفروسية ، فيمضيان معاً خلال الريف ، ويمعنان فيه إلى مدى أبعد كل يوم ، حيث يتدربان على الركض ، تنشيهما السرعة ونفحات الأعشاب الشذية . . . ويشتد بدن الحصان فيحظى فى آخر الأمر بأن يحمل سيده على صهوته . ويتم تدريب الفتى ، فيتعلم كيف يربت عليه ، ويتلقن ما يجب أن يقول له من الكلام ، ويتدبر كيف يعاقبه أيضاً دون أن يهينه قط .

ويصنع الفتى من حصانه « شاربا للهواء » حقاً ؛ فيعلمه أن يعدو سريعا ، ولمدة طويلة ، وأن يبدأ ركضه بقدم شديدة العزم ، وأن يهاجم ويفر ويكر ، وأن يقف فجأة أمام حاجز يعترضه ، أو يدور حوله أو يجتازه فى وثبات رائعة . ويعلمه كذلك كيف يبهر القوم فى الحفلات حتى ينتزع بأناقته ورشاقته وبراعته بسمات الفارسات الحسناوات وثناءهن ؛

فقد حذق الرقص على أنغام المزمار والرباب ، وتوقيع مقاطع اللحن بسنابكه ، وتمثيل ما يشبه مشهدا من مشاهد الغرام ، كأن يلتقط من الأرض منديلا ويمده إلى صاحبه مترفقا[1] أو أن يركع عند قدمى الشخص الذى يتشرف سيده بتكريمه .

وإذ ذاك فقط — بعد أن يتمكن من جميع هذا العلم ، ويصبح فى آن واحد فناناً ومقاتلا صلداً ، مرناً ، ذكياً ، خنيفاً ، طوع إشارة فارسه أو صوته أو فكره — إذ ذاك يصبح الحصان العريق كريما بذاته لا بفضل أجداده فحسب .

وهو منذ ذلك الحين أيضاً ، أكثر الحيوانات شبها بالإنسان ، لشجاعته وكبريائه وكافه بعظائم الأمور[2] وهو صاحب وصديق سيده « الذى يعنى به ويعلفه ، ويغطيه فى المعسكر أو تحت الخيمة ، ويلجمه للحرب أو للأسفار »[3] .

ويشرف السيد إشرافا دقيقا على أفراح جواده العائلية كما سبق له أن أشرف على ولادته وعلى تربيته ، فيختار له فرسا عريقة النسب ، رافهة جميلة ذكية ، خليقة بأن تمنحه خلقا كريما ؛ فإن مصاهرة الجواد

---

(١) لا يعتبر العرب الحصان دابة من ذوات الأربع ، فإن له — كما للإنسان — يدين ورجلين .

(٢) الأغانى .

(٣) ديلار (Delard) : فن الفروسية ، طبعة ١٨٥٩ .

الأصيل خيلا أدنى منه نسبا ، لوصمة عار تلحق بالأسرة وبالقبيلة جمعاء ، فضلا عن صاحب الجواد نفسه . يقول ديلار : « تزويجك الفحل فرسا عادية كتزويجك الرجل الأبيض زنجية »[١] . وللجواد بعد ذلك أن يختم حياته آمنا مطمئنا فى ظل النخيل ، وهو سعيد إذ أدى واجبه وشاطر سيده أفراحه وألعابه ومعاركه . ولعله يحظى أيضاً بشرف الموت أثناء القتال وقد اخترقته سهام العدو ، فتظل ذكراه خالدة فى الأسرة التى عاش يخدمها ومات فداء لها . وربما حظى بالخلود وحسن الذكر بين الناس أيضا ، إذا كان صاحبه شاعرا وتغنى به فى أبيات ملهمة . ويضم كتاب الخيل الأصيلة — الموضوع حوالى سنة ٥٤٠ هـ . — أسماء مائة واثنين وستين جوادا اشتهرت فى الجاهلية والإسلام[٢] وتلك قائمة يستطيع الباحث أن يطيلها إلى غير حد .

وعادة إطلاق الأسماء على الجياد ، عادة مطردة لدى الشعوب المقاتلة . فلقد كانت هذه الشعوب تحرص على أن تميز الخيل الشائعة العادية من الخيل الكريمة صانعة النصر والمجد. ومن هنا نشأت فى فرنسا، أثناء القرون الوسطى ، هذه الفوارق الواضحة بين حصان الحرب وحصان الاستعراض ، والحصان الذى يحرث الأرض أو يحمل الأثقال :
(destrier, palefroi, roncin, sommier)

---

(١) المرجع السابق .
(٢) كتاب أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام « نشره أحمد زكى باشا » .

وكان من خيول الحرب أو الاستعراض السريعة الرشيقة ، ما يتميز برونق خاص تضفيه عليه أصالة النسب والذكاء . ولم يفت قصص الفروسية أن تذكر لنا أسماء أشهر الجياد التى كانت بحق مطايا أشهر الفرسان ، بل أنبأتنا بمواقف البطولة التى وقفتها تلك الجياد فأثارت إعجابنا بما أوتيت من فهم نادر . وكانا نعلم — كما كان أهل العصر يعلمون — أن جواد شارلمان كان يدعى تنسندور (Tencendur) وجواد رولان « فيانتيف » (Veillantif) ، وجواد جيوم دورانج « بوسان » (Beaucent) ، وجواد رينودى مونتوبان « بايار » (Baiart) .

ويمكن تصنيف أسماء هذه الجياد ، التى امتلأت بها وازدهرت أكثر قصائد القرون الوسطى ، حسب الجنس والنوع : فمنها ما اشتق من لون الحصان مثل الأبيض (Blanchart) والرمادى (Grisart) ، والأصهب (Rous) ، والأرقط (Tachebrun) إلخ ، ومنها ما يدل على بعض الملامح المميزة مثل «الضامر» أو « مرح الخطا » ، وربما أطلق على الحصان اسم من أسماء الرجال مثل « رامون ». على أن معظم الأسماء تشير إلى صفات السرعة أو العنفوان مثل « عابر الريح » (Passavent) والطحان (Broiefort) و « ملتهم الحرب » (Broieguerre) إلخ .

ولقد حفظ لنا الشعر العربى كذلك أسماء تلك الجياد التى رافقت الأبطال الصناديد؛ فجواد عنترة يدعى « أبجر » وجواد حاتم « جلاب » ،

وجواد جذامة « عصا » ،وأما زيد الكيل فكان يقتنى « لاحق » «وذيول» و « كامل » و « ورد » و « كميت » و « هطال » . . . ونستطيع أن نصنف كذلك هذه الأسماء إلى :

(ا) أسماء ألوان : كالأبلق ، والأدهم ، والعسجدى ، ومرجان وياقوت ، والورد ، وليل ، ومرّ .

(ب) خصائص مميزة : مثل أعــوج ، العطاس ، ذو العتال ، ذو اللمة .

(جـ) صفات العنفوان والسرعة مثل : صابر ، ناج ، سابق .

ولم يطلق العرب على جيادهم أسماء الناس — فقد كانوا يحفظون لكل ذى قدر قدره — وإنما كانوا يطلقون عليها أحياناً أسماء الحيوان مثل : الغزالة ، النعامة ، غراب ، حمامة ؛ أو صفات إنسانية مما يشير إلى النسب أو الذكاء أو الصداقة مثل : عتيق ، منصور ، مسعود ، كامل ، منزه ، ناصح ، الصاحب . . .

وإن فى سرد هذه الأسماء ، ما يشوق بوجه خاص أصحاب خيول السباق ، الذين يلتمسون لجيادهم أسماء بديعة ، غير أننا نستخلص منها ما يفيدنا فى الإجابة عن هذين السؤالين :

أولا — أى الألوان كان القدماء يفضلون ؟

ثانيا — ما هى الصفات البدنية والأخلاقية التى تدل على الجواد الأصيل ؟

ينبئنا « جوتييه » فى تعليق جامع — استشهد فيه بأشعار القرون الوسطى من الأدب الفرنسى — أن أهل تلك العصور كانوا يهتمون بلون الحصان ، أكثر مما نهتم به اليوم ، فكان لون الحصان خليقاً بأن يرفع ثمنه أو يبخسه . ويبدو أنهم كانوا يفضلون الأبيض والرمادى الفاحم[١] .

وكان العرب كذلك يهتمون اهتماما كبيرا بإهاب الحصان ، ويستدلون به على صفاته . وكانوا بوجه عام يميزون الإهاب الخالص اللون أو القاتم على ما عداهما . ولكنهم كانوا يفضلون أولا « الأشقر » لأن النبى قال ، وهو خير العارفين بالجياد : « لو جمعت خيل العرب فى صعيد واحد ما سبقها إلا الأشقر »[٢] .

ولقد كانوا يقدرون الكميت لسرعته ، وكانوا يقدرون الأشقر لقوة احتماله ، والأسود لجمال شكله وحميته فى القتال ، والملون ذا الجبهة البيضاء لأنه أجلب الجياد للسعد . ولكنهم ما كانوا يرغبون فى الفرس الأبلق على أى حال . وكانوا يهتمون كذلك اهتماما عظيما بالفرق بين الفرس إذا كان أشهب القوائم أو كانت الشهبة فى إحدى سيقانه فقط[٣] وإذا كان كثير السبلات أو قليلها وأين تقع هذه السبلات من بدنه ، فسبلة

---

(١) جوتييه ، تعليق ص ٧٢٤ .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٧٩ .

(٣) كان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال فى الخيل (أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة أو العكس) العقد الفريد جـ ١٨ ص ١٧٩ . (تحقيق) .

الصدر تملأ الخيمة بالخير ، فإذا جاورت الذيل أنذرت بالبؤس والويل . . إلخ (ولسنا نرمى هنا إلى استقصاء جميع التفاصيل ، بيد أننا نحيل القارئ المستزيد إلى كتابى الدكتور بيرون والجنرال دوما فهما مرجعان وافيان)[١]

ولقد كان شكل الحصان ــ بغض النظر عن لون إهابه ــ مما يدل على صفاته .

سأل[٢] معاوية بن أبى سفيان ، صعصعة بن صوجان : أى الخيل أفضل ؟ قال : الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، الصافى الثلاث . قال : فسر لنا . قال : أما الطويل الثلاث ، فالأذن والعنق والحزام ، وأما القصير الثلاث ، فالصلب والعسيب[٣] والقضيب ، وأما العريض الثلاث ، فالجبهة والمنخر والورك ، وأما الصافى الثلاث ، فالأديم والعين والحافر .

وقال آخرون : ينبغى أن تأخذ الفرس من الخنزير البرى الأقدام واتساع الرأس ، ومن الغزال الرشاقة والعين والفم ، ومن الوعل المرح والذكاء ، ومن النعامة العنق والسرعة .

وكانت هذه الأوصاف الخارجية ــ بالإضافة إلى غيرها مما يضيق

---

(١) الناصرى : كمال الفنين أو المبحث التام فى علم الخيل العربية وطبها لأبى بكر ابن بدر ، ترجمه إلى الفرنسية الدكتور بيرون (Perron) . و « خيل الصحراء » للجنرال دوما .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٨١ (تحقيق) .

(٣) عظم الذنب .

المقام عن الإحاطة به — تدل الناظر من أول وهلة على أصالة الحصان ، وإن كانت الخبرة وحدها هى التى تظهر مزاياه الكامنة . وهكذا يوجز الأمير عبد القادر — فى رسالة منه إلى الجنرال « دوما » — ما ينبغى أن يتحلى به الحصان من الصفات « الخلقية والعقلية » فى قوله :

« إننا لنعرف أن الحصان لا يكون عريقاً حقاً ، إلا إذا اقترن جمال تكوينه بالشجاعة والخيلاء وازدهى عجباً وسط الطلقات والزوازل .

فمثل هذا الجواد يعتز بصاحبه ، ويأبى فى أغلب الأحيان أن يمتطيه سواه ، ولا يقضى حاجة ما دام يحمله . وهو لا يأكل قط فضلات حصان آخر ، ويسره أن يعكر بأقدامه ما قد يقابله من الماء الصافى . وهو بسمعه وبصره وشمه يستطيع — كما يستطيع بمهارته وذكائه — أن يقى صاحبه آلاف المكاره التى قد تحدق به فى الطرد أو فى الحرب . وهو أخيرا — إذ يشاطر فارسه مشاعر الألم والسرور — يعاونه فى القتال ، بالقتال معه وبالاتحاد وإياه فى كل مكان وزمان »[1] .

وحسبنا أن نلحظ ما ورد فى العبارة الأخيرة ، ألا وهو العون الذى يبذله الفرس لفارسه فى أثناء المعركة ، وذلك التضامن الوثيق الحميم بين الإنسان والحيوان فى المعمعة .

والحق أن الجواد العربى يقاتل ؛ فهو يعرف كيف يعض جواد العدو فى صدره ، ويدافع عن نفسه باليدين والرجلين ، وكيف يكر

---

(٣) الجنرال دوما : المرجع السابق ذكره ص ١٥ .

ويفر ، وكيف يحمى صاحبه ويجود بالروح من أجله إذا اقتضى الأمر .
إنه ينقض على العدو فى لحظة انطلاق السهم الذى يسدده فارسه ، فيبلغ الهدف قبل أن يبلغه السهم . وإذا مضى الفارس يبحث عن ملاذ ، ولمح الجواد ملاذا ، سابقت سيقانه بصره ، وطوى المسافة التى تفصله عن هدفه . كما تطوى الريح السحاب . وإذا لمح الرماح تهدد صاحبه ، هب إلى الذود عنه وشب بجماع جسمه ليحميه ، فى حين ينذر صهيله بالويل ويلقى الروع . وأما إذا هوجم الفارس من خلف فإنه ينزلق تحت بطن حصانه أو يتعلق بعنقه ، وحصانه المسرع سرعة البرق كفيل بأن يحمله بعيداً عن الخطر .

إن الرابطة التى تصل الحصان بفارسه ، رابطة لا تنفصم عراها ، ولقد بلغ من قوتها أنك لا تجد — فى الكتب العربية — اسم المقاتل إلا مقترنا باسم جواده دائما — وما أكثر هذا — من مثل : (فى واقعة كذا ، كان فلان يمتطى شقراء أو حمامة . . . كان فلان فى العشرين من عمره ، وفرسه فى الخامسة . . . لولا براعة « ورد » لبات أسيرا ، أو لبكاه أهله إلخ . .) وإلى جانب ذلك ، فقد التزم أبطالنا الشعراء أن يمدحوا فى أبيات لا حصر لها بطولات جيادهم ويالها من أبيات مختلجة بالعاطفة ، يوحيها التقدير وعرفان الجميل ، أبيات ناطقة بالألفة والحنان وكأنى بها وهى تنشد فى المعركة تذكى فى نفس الجواد الكريم حمية وفخرا :

فهذا هو الأخنس بن شهاب يقول لفرسه « زيم »[1] :

---

(١) أنساب الخيل ص ٨٥ تحقيق .

هذا أوان الشد فاشتدى زيم مثلى على مثلك يدعى العظم

ويقول زيد بن سنان فى فرسه « الوجزة »[١] :

رميتهم بوجـزة إذا تواصـوا ليرموا نحـرها كثبا ونحرى
إذا نفـدتهم كرت عليهم كأن فلـوها فيهم وبكرى

ولمالك بن عوف النصرى فى فرسه « محاج » يوم حنين[٢]

أقـدم « محاج » إنه يوم نكر مثلى على مثلك يحمى ويكـر

ويقول ابن النضير السعدى فى فرسه « اليسير »[٣] :

وأنى واليسير إذا التقينـا لكالمتكـافئين على الأمور

كما يقول المنذر بن الأعلم الحولاقى فى فرسه « العارم » :

أقيـه فى الحرب بنفسى كما يقينى الموت تحت الظلال

ولعمير بن جبل البجلى فى فرسه « العرن » :

أقفيتـه دون أهلى ما يسربه له حليب وتارات له لبن

---

(١) أنساب الخيل ص ٦٩ — ٧٠ (تحقيق) .
(٢) أنساب الخيل ص ٧٠ (تحقيق) .
(٣) أنساب الخيل ص ١٠٠ — ١٠١ (تحقيق) .

ويقول حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فى « الورد » :

أتى دونـه المنـايا بنفسى وهو دونى يفشى صدور العوالى
فإذا مـا هلكت كان تراثى وسجالا محمـودة من سجالى

ولعنترة فى فرسه « الأدهم » :

يدعون عنتر والرمـاح كأنها أشطان بئر فى لبـان الأدهم

وإن فى هذه الاستشهادات ما يغنينا عن ذكر الفرس « جذيمة » التى ظلت تعدو من الصباح إلى مغرب الشمس حتى سقطت ميتة فى معسكر فارسها بعد أن أنقذته ، وعن ذكر « جلاب » التى نحرها حاتم لإطعام ضيوفه ، و « الأطلال » التى وثبت وثبة ارتفاعها أربعون ذراعا ، و « عوج » التى قطعت قيودها وانطلقت تعدو أربعة أيام متصلة حتى وجدت صاحبها ، و « داحس بن ذى العقال » و « الغبراء » التى حالت المكيدة بينها وبين الفوز فى السباق واشتعلت بذلك نار الحرب بين قبيلتى عبس وذبيان واستمرت أربعين سنة ، وتلك هى حرب «داحس والغبراء» .

ومثل هذه الأمثلة يغمر قصص الفروسية فى الغرب . فهى تروى كيف أيقظ جواد « أوجييه » صاحبه عند اقتراب العدو ، وكيف تبادلا فى مناسبات عديدة شجون الحديث ودلائل العطف . وفى قصة « رينودى مونتوبان » يصيح « رينو » وهو يتحدث عن جواده « بايار » قائلا : « ألا بوركت الساعة التى ولدت فيها » ، ثم يخاطبه فى سذاجة يفهمها كل من يحب الخيل قائلا :

« إيه بايار! ليتك استطعت النطق حتى تخفف من شدة ألمى[١] » .

وتروى قصص أخرى ، كيف عاد « دوستون » بعد غياب دام سبع سنوات ، فلم تعرفه خطيبته ، بينما عرفه حصانه ، وكيف أقيمت مباريات كثيرة ونشبت معارك دامية من أجل الفوز بجواد ذائع الصيت . . .

ولسوف نقنع هنا — دون أن نمضى إلى أبعد من هذا الحد فى جمع اللمحات التى اشترك بها الشرق والغرب معا فى التعبير عن تلك العاطفة المتبادلة التى لا تشوبها شائبة بين الفرس وصاحبه — بأن نورد ، بمثابة تلخيص لما سبق ، صورة[٢] الجواد كما رسمها الشاعر امرؤ القيس فى القرن السادس بقوله :

وقد اغتـــدى والطير فى وكناتها   بمنجرد[٣] قيد الأوابد[٤] هيكل

---

(١) جوتييه ، ص ٧٢٧ — ٧٢٩ .

(٢) أطنبت القصائد القديمة فى وصف الجياد . وقد أورد جوتييه عدداً كبيراً من تلك الصور نستطيع أن نستخلص منها الخواص التالية : «ينبغى أن يكون الرأس نحيفاً ، وأن تكون الأذنان صغيرتين . وأن يكون المنخران عريضين متسعين ، والعينان صافيتين متأججتين ، حمراوين متوقدتين ، بل وعميقتين حادتين . ويستحسن العنق الممشوق والصدر العظيم ، والسلسلة الفقرية المستقيمة المرتفعة ، والفخذ القصيرة والساق المنبسطة ، والمؤخرة الضخمة ، والحوافر السوية ذات الخطوط الواضحة والانحناء الرشيق » جوتييه تعليقات ص ٧٢٧ وما يليها

(٣) قليل الشعر .

(٤) سريع لا يفلت منه وحش .

مكر مفر مقبل مـــدبر معـــا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه[١]   كما زلت الصفواء[٢] بالمتنزل[٣]

على الذبل جياش كأن اهتزامـــه   إذا جاش فيه حميه غلى مرجل[٤]

مسح إذا ما السابحات على الونى   أثرن الغبار بالكديد المركل[٥]

يزل الغـــلام الخف عن صهواته   ويلوى بأثواب العنيف المثقل[٦]

درير كخذروف الوليـــد أمره   تتابع كفيه بخيط موصـــل[٧]

له أيطلاظبي وســـاقا نعـــامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[٨]

ضليع إذا استدبرته ســـد فرجه   بضاف فويق الأرض ليس بأعزل[٩]

---

(١) عن ظهره .

(٢) الصخرة الصلبة .

(٣) المطر .

(٤) بالرغم من ضموره فإن تكسر صهيله فى صدره كأنه غليان قدر .

(٥) يتابع الجرى فى الطرق التى تعيى غيره من الجياد السابحات .

(٦) لا يثبت على ظهره غلام أو فارس ماهر ، لشدة عدوه وفرط مرحه .

(٧) يصفه أيضاً بالسرعة ومتابعة العدو كالخذروف وهو حصاة مثقوبة يجعل الصبيان فيها خيطاً فيديرها .

(٨) الأيطل : الخاصرة، والسرحان : الذئب ، والارخاء ضرب من عدوه، والتقريب: وضع الرجلين موضع اليدين ، والتتفل : ولد الثعلب .

(٩) أى هو عظيم الأضلاع وذيله سابغ تام يسد الفراغ الذى بين رجليه لا يميل ولا يبلغ الأرض وهذه كلها من دلائل عتقه وكرمه .

كأن على المتنين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صلاية حنظل[(١)]
كأن دماء الهـــاديات بنحـــره   عصارة حناء بشيب مرجل[(٢)]

ولنختم هذا الفصل بما جاء فى « كتاب الأقوال » : « إن الجياد أبهى ما وهب الله لعباده من نعم . . . فلقد جعل الله الحصان أشرف المخلوقات بعد بنى آدم ، وخير الدواب ، وأعجب الحيوان طبيعة وحسنا ، وأبدع الزينات رواء .

ولقد أولع المرء بحب النساء والبنين وأكداس الذهب والفضة والخيل النفيسة والقطعان والمزارع . وفى رأينا أن الرجل الذى اجتمعت لديه هذه الأشياء الست ، إذا امتطى صهوة جواده نسى ما عداه ولم يلق ما يلهيه عن جياده . . . »[(٣)]

---

(١) يشبه مقدمة ظهره الأملس واكتنازه باللحم ، بالمداك أى الحجر الذى تسحق العروس به الطيب ، أو بالحجر الذى يكسر عليه الحنظل .
(٢) كأن دماء أوائل الصيد على نحره عصارة حناء خضب بها شيب مسرح . (تحقيق)
(٣) عن الدكتور بيرون فى (الناصرى) .

الأسلحة

إذا كان العرب قد عملوا على تحسين جيادهم سعياً إلى المنفعة والجمال والتقوى فى آن واحد ، فإنهم أيضاً ولنفس تلك الدواعى ، قد تفننوا فى صياغة أمضى الأسلحة وأبدعها ، لمقارعة أعدائهم وأعداء الله .

وإن إقليما ، فيه الصيد هو الوسيلة للعيش غالبا ، وفيه تنشأ المشاحنات المسلحة لأوهى الأسباب بين أهله ، مثل هذا الإقليم ، لا عجب أن يغدو القوس فيه والسهم ، والرمح والسيف — وهى قناصة الصيد محرزة النصر — موضع الإجلال والتقدير ، وتكون الدروع الجيدة فيه ، كالجياد العريقة ، مثار الاحترام والحسد ، والرهبة والمجد . ولذلك أشاد الشعراء بفضل الأسلحة ، فى قصائد طويلة النفس ، كما ترنموا بسمو الجياد .

وسرعان ما تملك «الشعب الشاعر» دافع آخر إلى الاعتزاز بالأسلحة ، فبعد أن كان يستخدم الأسلحة فى قضاء حاجات أصبحت يوما تلو يوم مشروعة ، ازداد حبه الهاوى الخبير الراغب فى الترف وجمع الطرف ، ولم يعد يحبها لما تجلبه من نفع فحسب ، بل بات يحبها لذاتها ، ولجمالها الخاص ، ولما تنطوى عليه من سحر ، ولما تحقق له من فرح ونشوة . ثم أفضى به هذا الشغف — فيما يبدو — إلى التسامى بآلات الموت تلك ، وتوسم رموز الحب فيها ؛ فالقوس تحكى انحناءته اللطيفة « حاجبيها » ،

والسهام لا تصيب ولا تصمى كما تصيب « سهام العيون النجل » وتصمى ، والرمح أسمر مستقيم مرن « كجسم الحبيبة اللدن يتثنى رقة وقد أنشته نفحات الحب » ، والسيف يتلألأ فى المعمعة وهو يشخب دما فيذكرنى « الابتسامة الساحرة التى انفرجت عن شفتين من العقيق وأسفرت عن صفين من اللؤلؤ . . . » ولقد فرض على أهل الشرق كلفهم بالمبالغة أن يوغلوا فى التشبيهات إلى أبعد مدى ممكن ، وأن يخلعوا على الأسلحة الجيدة شخصية قائمة بذاتها ويثبتوا أصلها ونسبها ، ويرصعوها بالجواهر إمعانا فى تشبيهها بالحرائر الكريمات المحتد ، اللواتى يزيدهن حسنا وجمالا ، بهاء ما يتقلدنه من اللآلىء والأحجار النفيسة . وأطلقوا على السيوف والرماح والدروع أسماء ، ونقبوا عن تاريخ صانعها مهما غاب فى ليل الزمن وأياً كان هو إنساً أو جناً ، وأحاطوها بالأساطير كما طعموها بدقيق الزخارف . ورقشوا النصال ، واتخذوا من الذهب أو الفضة مقابض للسيوف ، وحلوها بالياقوت والماس .

وأخيراً فرض الدين على المسلمين أن يتقنوا فن الحرب ؛ فلقد كان جوهريا — فى الواقع — ألا يهملوا أى شىء خليق بأن يهىء لهم الفوز . ودعا النبى إلى الاستهانة بالخطر ، والإيمان بالنصر ، وإلى اقتناء الخيل الأصيلة والأسلحة الكريمة ، ووعد من يفعل ذلك ثواب الله ورحمته[1] .

---

(١) قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » الآية ٤٥ . سورة الأنفال .

وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم =

ولم ينعدم مع ذلك الفلاسفة الجبريون الذين بينوا بمنطقهم المحكم ألا جدوى من استكمال الأسلحة والتثقل بالدروع ، ما دام القدر — لا السلاح — هو الذى يقتل أثناء الحرب ؛ أفلا يخطف الردى من حُمّ قضاؤه مهما فعل ؟ أو لا يبقى الموت على من ينبغى ألا يصيبه مهما تعرض للخطر ؟[١]
وكان الرد على أولئك الجبريين أنه لا يوجد حقاً ما يمنع أو يؤخر وقوع المكتوب ، ولكنه يحسن بالمرء أن يحتاط ما استطاع [٢] لكى « يسد طريق القلق الذى قد يبعث الخوف والتخاذل » . على أن الحجة الفاصلة كانت الاقتداء بالنبى الذى اقتنى — رغم إيمانه بالقدر — أسلحة ممتازة كان يتدجج بها فى جميع غزواته .

وقد نقل لنا الرواة أسماء وأوصاف أشهر تلك الأسلحة وأنفسها . فمن السيوف أربعة : ذو الفقار ، وهو ذو قبضة محلاة بالفضة ، والقلزم (سيف عمرو بن معيد يكرب) والرسوب (سيف رسول الله صلى الله

=وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » ، الآية ٦٥ سورة الأنفال .

وقال تعالى : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم لا يفقهون » الآية ٦٥ من سورة الأنفال .

(١) قال تعالى : « قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » الآية ٥١ . سورة التوبة .

(٢) قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ١٩٥ — سورة البقرة .

عليه وسلم) والقاضب ، وقوس أطلق عليه اسم « الكتوم » وعلى جعبته اسم « الكافور »[١] ، ودرع هى « البتراء »[٢] وقدم لنا الرواة صورة محمد فى واقعة أحد وعلى رأسه الخوذة ، وعلى صدره درع نصفى ، وفى يده الرمح وعلى كتفه المجن ، فى حين يتدلى غمد سيفه من حزام جلدى ذى ثلاث حلقات من الفضة[٣] . . . وإذا أضفنا المنجنيق إلى هذه المجموعة ، تمت لدينا على وجه التقريب قائمة الأسلحة التى استخدمها العرب فى الهجوم وفى الدفاع منذ القرن السابع . وها نحن نستعرضها استعراضا سريعا :

لقد روى صاحب « الأغانى » هذه النادرة التى تجمل لنا مكان بعض تلك الأسلحة المختلفة من تقدير العرب وثقتهم :

سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عمرو بن معد يكرب الزبيدى قائلا :

يا أبا ثور ، ألك علم بالسلاح ؟ قال : على الخبير سقطت . . سل عما بدا لك . قال : أخبرنى عن النبل . قال : منايا تخطئ وتصيب . قال : فأخبرنى عن الرمح . قال : أخوك ، وربما خانك . قال : أخبرنى عن الترس . قال : ذاك مجن ، وعليه تدور الدوائر . قال : أخبرنى عن

---

(١) الغزالى : المرجع السابق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية .

(٣) على فصل سيفه . نقشت هذه العبارات : « الجبن يذل والفصل يعز . لن ينجو جبان من قدره » (رواية فارسية) . انظر « الروضة الصفا » التى ترجمها إلى الفرنسية

الدرع : قال : مشغلة للفارس ، متعبة للراجل . قال : أخبرني عن السيف . قال : عنه قارعتك[١] .

ونحن نرى مما سبق أن السيف كان خير سلاح . ولقد استأثر السيف بثناء المقاتلين ومديح الشعراء . ولكن اللغة ذاتها تشهد — شهادة أبلغ من ذلك الثناء وذلك المديح — بما اتخذته السيوف فى نظر العرب من أهمية منذ عهد بعيد ؛ فهنالك عدد كبير من المترادفات يدل على السيف حسب طول نصله أو قصره أو عرضه ، وحسب أثره من طعن أو حسم أو بتر ، وحسب مصدره هندياً كان أو مشرفياً ، وحسب صانعه أهو صراع أو أحنف ، وحسب المصنوع له كالملك ابن ذى يزن . ومن السيوف أيضاً ما ينم بريقه العجيب وقوته الخارقة عن أنه من صنع الجن وهم أشد من البشر وأعلم ، مثل السيف « المعصور » و « المذكر » .

ولا تظنوا أن هذه الأعاجيب كانت وقفا على الشرق وحده . فإن سيف الأمير الفرنسي بودان دى بوفيه (Beaudoin de Beauvais) قد صيغ فوق جبل سيناء ؛ كما تنسب إلى صانع خيالى يدعى « جالان » (Galent)

---

(٤) الأغانى ج ١٤ ص ١٣٢ . وقد تبدو هذه الإجابات غاية فى البداهة ، ولكن ينبغى تأويلها بمعنى أن قيمة الأسلحة مستمدة من قيمة المقاتل . فلقد أتيح لمعدى كرب أن يبين رأيه فى صورة أوضح ، عند ما طلب إليه عمر بن الخطاب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث بالساعد الذى يضرب به . العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٩ . (تحقيق) .

تلك السيوف التى اشتهرت فى أدب القرون الوسطى — « دورندال » و « فلوبرج » و « فرح » و « عجيب » وقد زعموا أنه أنفق فى شحذها أربعا وعشرين سنة . وأما سيف البطل الوثنى « كورنوماران » فقد صاغه « متوشالح » ذاته ، كما صاغ سيوف العملاق « لوكيفير » الثلاثة ، وتذكر قصيدة «بيت المقدس» حساما صنعه الشيطان[1] فلعل ذلك الشيطان بعينه هو الذى يدين له العرب بالمعصور والمذكر !

ولقد كان السيف فى الغرب كما كان فى الشرق ، وكأنه شخص يخاطبه القوم ويتحرون نسبه ويروون سيرته وأيامه . وكان للسيف اسمه وشعاره : ف « الفرح » سيف شرلمان ، و « دورندال » سيف رولان ، و « نفيس » سيف الأمير ، و « الماس » سيف توربان ، و « ذوالفقار» سيف النبى ، و « الصمصامة » سيف عمرو بن معدى كرب ، و « ولول » سيف عتاب بن أسعد ، والمقدم و « الركوبى » و « اليمانى » هى السيوف الثلاثة التى وجدها على بن أبى طالب فى معبد أوثان طى[3] .

---

(١) فى البيت رقم ٨٣٥٥ ، راجع جوتييه ص ٧٠٨ و ٧٠٩ .

(٢) ذو الفقار بالفتح سيف العاص بن منبه قتل يوم بدر كافرا فصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثم صار إلى على .

(٣) نقرأ فى الرسالة التى نشرها « كاترمير » عن تاريخ الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، الذى خلف أباه سنة ١٠٣٦ ، أن قادة الأتراك الذين ثاروا على المستنصر قد حرصوا — بعد أن نهبوا قصر الخليفة — على أن يتقاسموا نفيس الأسلاب ، وكان بينها « ذو الفقار » وسيف عمرو بن العاص ، وسيف عبد الله بن وهب وسيف المعز . . . إلخ . وذلك يدلنا على مبلغ اعتزاز المسلمين بالسيوف الشهيرة حتى القرن الثانى عشر .

ولن نطنب فى هذا الموضوع ، وإنما حسبنا أن نقول: إن العرب قد أضفوا على سيوفهم معانى الشرف منذ الجاهلية ، فلما جاء النبي أوجز التعبير عن مشاعرهم باهتمامه بالسيف ، وأضاف حكمة أو وصية دينية ، تنطق بحرصه على حفظ النصال الجيدة بين العرب وحث المسلمين على القتال والموت بالسيف وبجوار السيف ، إذ قال : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[١] ولكى تلقى السيوف ظلا وارفا ، ينبغى أن تنتضى وأن تكثر ، وأن تتشابك وتتصادم تحت شمس الوغى . . .

على أن سلاحا آخر كان يضارع السيف نبلا وسموا ، ألا وهو الرمح . يقول ديماى : «كان الرمح فى رأى بعض الكتاب أنبل أسلحة الفرسان ، فكان يفضل السيف . ومهما يكن من أمر ، فقد كان حمل الرمح حقاً مقصوراً على الأحرار . »[٢] وأما فى بلاد العرب فقد اقترن الرمح بالسيف ، وأشاد الشعراء بفضلهما على السواء ، تشهد بذلك الأبيات التالية :

يقول عمرو بن كلثوم :

نطاعن ما تراخى النـــاس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا

بسمر من قنـــا الخطى لدْن ذوابـــل أو ببيض يختلينـــا

(١) صحيح البخارى ج ٧ ص ٢٧ .

(٢) ج . ديماى : المرجع السابق ذكره ، ص ٣٩ .

وقال عنترة :

فطعنتـــه بالرمح ثم علوته بمهند صافى الحديدة مخزم[١]

وقال أيضاً :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هرباً ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة بمثقف صدق[٢] الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وقد يمل القارئ إذا التزمنا هنا دراسة أنواع الرماح المختلفة (الردينية والسمهرية واليزنية والخطية إلخ . .) ، وحسبنا أن نلتقط بعض أوجه الشبه بين الرمح العربى والرمح الفرنسى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد كانت هامة الرمح العربى بوجه عام سمراء أو خضراء أو زرقاء ، بينما دأب أهل القرون الوسطى فى أوربا على « طلاء خشب الرمح خصوصاً باللونين الأخضر والأزرق »[٣]. وأما عادة نكت الرمح فى الأرض إعلاناً عن الرغبة فى المفاوضة[٤] ، فإنما هى عادة تبدو فى جوهرها عربية ؛

---

(١) سريع القطع .
(٢) صلب .
(٣) ديماى ، ص ٤٠ .
(٤) رينو دى مونتوبان ، ص ٢٣٦ ، انظر جوتييه ، ص ٧١٤ .

فالعربى يغرس رمحه أمام خيمته ويغرسه أمام خيمة مضيفه ؛ وذلك تقليد قديم درج عليه القوم فى الصحراء . ودون أن نفصل الحديث عن سنان الرمح – الذى اتخذ هنا وهناك أشكالا بعينها ، فهو تارة مثلث عريض ناتىء المحور ، وأخرى على هيئة ورق الشجر[١] ، وثالثه بمثابة حربة قصيرة (تشبه لسان الكلب كما يقول العرب) – ينبغى ألا ننسى فى هذا المقام ذكر اللواء . وهذا جوتييه يقول : « كان يثبت فى أعلى الرمح راية لم تختف إلا فى منتصف القرن الثانى عشر »[٢] ، فى حين يميز ابن الأعرابى وغيره من اللغويين بين « اللواء » الذى كان يعلق فى أعلى الرمح ، وبين « العلم » . . . فقد أصاب « لافيس » إذن عند ما حسب أن الحروب الصليبية قد أدخلت فى أوربا « الرمح المزين بالبنود »[٣] .

ولقد أجمع المؤرخون العرب على التنويه بما اعتاده القوم فى كل حروبهم من رفع الألوية على رماحهم . وهكذا يفسر قول النبى : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » بمعنى ظل لوائى[٤] .

وأول هذا الحديث بأنه تحية أداها النبى للرماح . وينبغى أن نرى فيه قبل كل شىء تشجيعاً وحثاً للناس على البحث عن جدّهم ، والرماح فى أيديهم ، بين مغانم العدو .

---

(١) ديماى ، ص ٣٩ .

(٢) جوتييه ، ص ٧١٠ .

(٣) لافيس ، ج ٢ ، ص ٣٤٦

(٤) صحيح البخارى : باب ما قيل فى الرماح . وهكذا تأوله المؤلف (تحقيق) .

وكما جلا النبي لأتباعه ، فى عبارات رائعة ، فضل الرمح والسيف ، فقد حثهم كذلك على استخدام القوس والسهم . لقد كان يرمى فى حقيقة الأمر ، إلى إذكاء شغفهم بجميع الأسلحة ، غير أنه كان حريصاً على أن يوجه نفوسهم التقية إلى الاعتزاز بما يراه أضمن تلك الأسلحة لتحقيق النصر ، ولذا أشاد بالقوس .

ولقد كانت القوس فى عصر الجاهلية بمثابة رمز للرجولة . فكان كل عربى يقتنى قوساً ولو لم يمتلك رمحاً أو سيفاً . كانت القوس فى متناول أيدى جميع الأغنياء والفقراء على حد سواء ، إذ كانت تصنع من كل صنوف الخشب ، خشب الأرز أو شجر التين أو النبع . ولقد كانت رفيق البدوى ووسيلة عيشه ، وألزم له من القلم للكاتب ، فالسهم السريع هو الذى يصيب الغزال النافر أو الطير الطائر . وهكذا كان القوم يدربون بنيهم على استعمال القوس منذ يستطيعون حمله ، ولم يكن بين الألعاب التى يتهافت عليها الشباب شىء أكثر انتشاراً من الرماية . وكان لهم فى مباريات الرماية قواعد صارمة ، ورهان ، وجوائز تكافئ البراعة والسداد . وبلغ من منزلة القوس أن العربى كان إذا أراد أن يلتزم التزاماً رسميًّا ، سلّم قوسه لدائنه . ولم يكن للقوس فى الواقع أية قيمة مادية ، ولكنها كانت ترمز إلى العهد وتمثل الذمة ، وكأنها التوقيع الشرعى الصحيح الذى يسجله الإنسان فى حضرة الموثق والشهود ، حتّى كان العار كل العار — كعار الإسبرطى

العائد من المعركة بلا درع — أن يظهر المدين أمام القوم بعد انقضاء أجل الدين ، أعزل من القوس الضامن . ومن هان كذلك ، اعتبر امرءاً لا شرف له ولا عهد ، جباناً لا يستحق أن ينتسب إلى العرب .

ثم أراد محمد أن يبقى لأمته رياضة الرماية بالقوس ، وهى رياضة نبيلة قدّر أثرها الحاسم فى المعارك ، فأبقى على التنافس بالإبقاء على الرهان؛ فإنه بالرغم من نهيه عن جميع ألعاب الرهان ، قد استثنى الرهان فى سباق الخيل وفى الرماية ، ودعم هذا الاستثناء بأحاديث نبوية أصبحت من بعده سنة مرعية . وكان غرضه هو حفظ حياة أنصاره إلى أقصى حد ممكن ، وذلك بعدم تمكين ضربات العدو منهم ، وضمان النصر لهم فى الوقت نفسه من حيث براعتهم فى الرماية . ولقد أثمرت دروسه ، فكان من نتائجها أن الصليبين قد سارعو منذ عودتهم من الأرض المقدسة — بعد أن حنكتهم الخبرة — إلى إدخال استعمال النبل فى أوربا[١] .

ولنذكر فى ختام الحديث عن القسى حديثين شريفين ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اركبوا وارموا . وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » .

وقال : « كل لهو المؤمن باطل إلا فى ثلاث : تأديبه فرساً ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته ، فإنه حق . إن الله ليدخل الجنة بالسهم

(١) لافيس ، ج ٢ ، ص ٣٤٦

الواحد : عامله المحتسب ، والقوى به فى سبيل الله أى والرامى به فى سبيل الله »[١] .

كانت تلك هى أسلحة الحرب الهجومية : القوس ، والرمح ، والسيف. ويحسن أن نضيف إليها ، استكمالاً للقائمة ، آلة لقذف الأحجار استعملها العرب منذ القرن السابع ولم تظهر فى أوربا إلا فى القرون الوسطى[٢]. فالمؤرخون يقولون لنا إن النبى قد استخدم «المنجنيق» ضد أهل « الطائف». ومهما يكن من صحة هذه الرواية ، فإننا نستخلص من عدة مواضع فى كتاب « الأغانى » أن استخدام المنجنيق كان جد شائع فى القرن التاسع . ويصور لنا أبو الفرج على الخصوص فى حديثه عن حصار هرقلية ـ هارون الرشيد « وهو يأمر بأن تصلى المدينة أحجاراً ونيراناً بالمنجنيقات»[٣]

ومعروف من ناحية أخرى أن العرب قد أخذوا عن الإغريق نارهم التى تشتعل فوق الماء لضرب السفن ، ولكن هل هم الذين ابتكروا بارود المدفع ، أم ترى أخذوه عن الصينين ؟ ربما كان البارود الذى استنبطه الراهب « شوارتز » اختراعاً ألمانياً كاختراع الغازات السامة . . . يا طالما أثيرت هذه الأسئلة دون أن يجد سائلوها الجواب اليقين ، ويا لطول ما سوف تثار كذلك . . .

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) ديماى ، ص ٥٤ .

(٣) الأغانى ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

وأما فى مضمار الأسلحة الدفاعية ، فليس هناك ما يستوجب أن نخصه بالذكر . فقد عرف العرب منذ أقدم العصور — بفضل جوارهم للفرس وعلاقاتهم المتصلة بهم[1] — الدرع الضافية التى استخدمت فى أوربا إبان القرون الوسطى . واتخذوا المجن من الخشب ومن الجلد وفى آخر الأمر من المعدن كما اتخذوا خوذات سموها « البيض » — جمع بيضة — لشكلها البيضاوى ، ثم اتخذوا زرداً دقيقة الصنع نسبوها إلى فرعون تارة وإلى داود وسليمان تارة أخرى .

ويقول جوتييه « لا بد أن الزرد الذى استخدمه مقاتلو القرون الوسطى الأوربيون قد اشتق من ذلك الإهاب الذى كانت تحاك عليه حلقات معدنية ، ثم خطر لهم يوماً أن يدخلوا بعض هذه الحلقات فى بعض أى أن يزردوها ، فانتهوا إلى كساء جديد أغناهم عن الإهاب المسدل تحته ، وهكذا ابتدعوا الزرد . ولعلنا قد سلكنا فى ذلك طريقاً آخر ، فأخذنا الزرد عن العرب الذين عرفوه قبلنا ، ومن هنا كان ذكر الزرد العربية فى ملحمة « رولان » (البيت رقم ٩٩٤) وغيرها »[2] .

ونحن نرجح المذهب الأخير ، لأن استخدام الزرد بصورته الحقيقية — وقد غدا أهم سلاح دفاعى لدى جميع الفرسان — لم يعم إلا خلال

---

(١) يذكر شاتوبريان فى الحديث الرابع من كتابه « دراسات تاريخية » أن الرومان قد أخذوا عن الفرس الدروع الضافية ، فعرفت بذلك قبل ظهور الفروسية .

(٢) جوتييه ، ص ٧١٧ .

النصف الأول من القرن الثانى عشر[1] ولأنه لا مجال للشك من ناحية أخرى فى أن العرب عرفوا الزرد ، وأتقنوا صناعتها قبل بداية القرن السادس. وحسبنا أن نستدل على ذلك من نص « الأغانى » الذى يسرد الطرف التى عهد بها امرؤ القيس للسموءل، نحو سنة ٥٢٧ : « . . . . وكان أثمن ما يقتنيه امرؤالقيس خمس دروع : الفضفاضة والصافية والمحسنة والخريق وأم الديول ، وكانت منذ وقت طويل ملكاً للأمراء من آل عقيل الذين كانوا يتناقلونها من أب إلى ولد .»[2]

والآن — وقد استعرضنا أسلحة الهجوم والدفاع — لعلنا لا نخرج عما نحن بصدده إذا ما تساءلنا عن رأى العرب فى الحرب . أجل ، لقد أولع هذا الشعب المقاتل بالحرب لذاتها .. لما يسرى فى نفوسهم من نشوتها، عند اصطكاك السيوف والرماح ، وعند تجلى آيات البطولة والشهامة ، وعند العودة منها بحصاد المجد والشرف ، ولكنهم ما كانوا لذلك كله بالغافلين عن فظائعها ووبالها ، فها هو ذاك زهير يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمـــو   وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمة   وتضرى إذا ضريتموها فتضرم

---

(١) جوتييه ص ١١٧ ، ديماى ص ١١٢ ، ويقول لافيس « حل الزرد محل الإهاب حوالى سنة ١٠٦٦ » .

(٢) رنات الأغانى ، جـ ٢ ، ص ١٧ .

فتعرككم عرك الرحا بثفالها   وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وها هى ذى بعض التعريفات :

يقول معاوية : « إن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بلوى » .

وسأل عمر يوماً عمرو بن معدى كرب :

ـ يا أبا ثور ، صف لى الحرب .

فضحك ثم قال :

ـ لقد سألت عنها خبيراً بها . هى والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق، إذا شمرت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف فيها تلف ، ولقد قال فيها واصفها (امرؤ القيس) فأجاد :

الحرب أول ما تكون فتية   تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها   عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت   مكروهة للشم والتقبيل[١]

ومع ذلك فإن امرأ القيس لم يبلُ إلا حرب ما قبل الإسلام . وما كانت تلك العجوز الشمطاء مروعة بشعة إذا نظرنا إلى عدد الضحايا ، فهذه حرب البسوس التى امتدت أربعين عاماً على أقل تقدير والتى كانت من

---

(١) المسعودى ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

أطول حروب التاريخ وأشدها سفكاً للدماء حسب شهادة شعراء العصر ، لم ينشب فيها – من أولها إلى آخرها – سوى خمس معارك ! لقد اشترك فيها ثلاثة أجيال من الرجال ، فماذا كانت النتائج ؟ قرابة ثلاثين ساعة فى ميدان القتال ، ونحو مائة قتيل ، وبضع مئات من أبيات الشعر(١).

على أن تعظيم الخيل والأسلحة ، بالإضافة إلى روح التنافس الذى تميز به العرب القدماء ، قد أنشأ بينهم أخلاق الفروسية من ناحية وأذكى فيهم الشغف بالقتال الفردى من ناحية أخرى . ذلك أنه من العسير فى معمعة الوغى أن توجه العناية إلى ملاحظة امتياز المقاتل ، إذ يستغرق العراك نشاط المرء ، ويشغله الاهتمام بحسن بلائه عن استعراض ما يحرزه رفاقه من ضروب الاستبسال ، بينما تتيح المبارزات الفرصة لذلك ، فيتجلى ما يفخر به الفارس من براعة وشجاعة ، ومن فضل يظهره جواده ، ومن ترف يلمع فى سلاحه ، ومن إعجاب الشهود به وثنائهم عليه .

ولم يكن ذلك فى واقع الأمر سبب قيام الفرسان بالمبارزات ، ففى أوربا كان الفرسان إذا أعوزتهم الحرب ينظمون مباراة فيما بينهم . وكانت المباراة قبل كل شىء فرصة لهم سانحة – لا للإبداع أو التدرب أو تعليم الناشئة – بل للتقاتل . فقد كانوا يستسلمون فى خلاء الريف لمعارك حقيقية مرتبة الصفوف ، تسفر عن قتلى ، وجرحى ، وأسرى تجب عليهم الفدية(٢)

(١) رنات الأغانى جـ ٢ ، ص ٧٤ .

(٢) ديماى ص ٥٤ ، جوتييه ص ٦٧٩ وما يليها .

ثم تطورت المباريات فأصبحت اجتماعية إنسانية ، تدور قرب قصر من القصور ،وتشهدها سيدات نسيبات ، وتسبقها الأناشيد والأشعار والمنافرات وتحل فيها محل الرماح والسيوف أساحة ودية[1] .

وأما فى بلاد العرب فلم توجد نظم تشبه هذه الحروب وتلك المباريات ، فما كانت بالعرب حاجة إلى « تنظيم حرب » وهم الذين يعيشون فى حرب دائمة بين بعضهم وبعض . وهكذا لم تكن تحين لهم مناسبة لإظهار براعتهم وشجاعتهم فى كل يوم فحسب ، بل فى كل لحظة من لحظات اليوم . ومن ناحية أخرى كان أسلوبهم فى القتال يتيح لهم متعة التبارز فى ميدان القتال واحداً ضد واحد ، أو اثنين ضد اثنين ، أو واحداً ضد عشرة أحياناً ، على مرأى من الجيشين الشاهدين . وكانت المعارك العربية كالمباريات تسبقها المنافرة . فقد كان أحد المقاتلين ينفصل عن رفاقه فى السلاح ويتقدم حتى يبلغ خطوط العدو ، فيستثير مقاتلا بعينه يرى أنه جدير به ، أو يصيح متحدياً «هل من منازل كفء لى ! » . وكان الاستنفار فى العادة ببيت أو أبيات من الرجز ، يهدد فيها قائلها بالموت السريع الرهيب ذلك الخصم الذى قد يدفعه الجنون إلى منازلته . وفى الحال ينبرى من معسكر العدو شجاع يرد على التحدى بأبيات من نفس البحر ونفس القافية ونفس الإفراط فى التهديد ، ومن ثم يبدأ النزال . . . . ولقد ظلت هذه العادة الممعنة فى القدم سائدة إبان حروب الإسلام ، ولم تزل متبعة

---

(١) سيوف بلا نصال ورماح بلا اسنة .

فى « ساراجوس » خلال القرن الحادى عشر . فهذا هو الطرطوشى يحدثنا عن مقاتل احترف الاستنفار فيقول : « كان فى « ساراجوس » فارس يدعى ابن فطوم ، لم يكن يضارعه فى الشجاعة عربى ولا بربرى . حتى ليروى أن الأسبانى كان إذا راح يسقى حصانه فأبى الحصان أن يشرب قال له : اشرب ! أم تراك رأيت ابن فطوم فى الماء ؟ »[1]. وإلى هذه المنافرات وتلك المبارزات يشير « ماران » — عند ما يصف المشاهد الطريفة التى جرت بين المسيحيين والمسلمين أثناء حصار « بطليمائس » سنة ١١٨٩ — بقوله :

« لما كان الفرنجة والأندلسيون قد اعتادوا أن يرى بعضهم بعضاً — وكأنهم فى ذلك أبطال « هومير » — فقد تقاربت صفوفهم دون أن يعتورهم خوف ، وتبادلوا الكلام ثم القدح ثم الثأر بالسلاح . وكان النزال — الذى يظن أن العرب قد ابتكرته — متبعاً فى تلك الأيام[2]. وكان المسيحيون والمسلمون يتبارون فى هذا الفن من العراك تحت أسوار بطليمائس . وما كان البطلان يتشابكان بالأيدى إلا بعد أن يتخاطبا ، وكان المغلوب يؤسر أو يفتدى . بل لقد استدعوا الأطفال ليتبارزوا أحياناً . ولقد بلغ من

(١) دوزى : « أبحاث فى تاريخ اسبانيا وأدبها » ج ٢ ص ٦٥ وما يليها . وانظر « المستطرف » .

(٢) يردد كثير من كتاب التاريخ فى القرون الوسطى أن جوفروا دى برويى Geoffroy de Preuilly المتوفى عام ١٠٦٦ هو الذى ابتكر المبارزة. راجع جوتييه ص٦٧٥ .

الألفة بين الشعبين المتخاصمين ، أن الفرنجة كثيراً ما كانوا يرقصون على أنغام يعزفها العرب ، ثم ينشدون ليرقص العرب على ألحان أناشيدهم . وتعيننا مثل هذه التفاصيل التى قد تبدو ضئيلة على التأريخ للأخلاق»[١].
و يالها من أخلاق بديعة !

ولقد أسلفنا القول بأن العرب لم يزاولوا المباريات على الطريقة الأوربية، بمعنى أنهم لم يخوضوا فى داخل القبيلة وفى وقت السلم مبارزات بين بعضهم وبعض يتبادلون فيها الموت والجراح . فما كانوا ينازلون إلا العدو فى ميدان القتال ، بيد أنهم كانوا يلعبون ألعاباً حربية — لا خطر فيها — ليدربوا جيادهم ويتدربوا على استعمال الأسلحة ، كما كانوا يعرفون رياضة المصارعة والمبارزة . . . دون سفك الدماء . وتنبئنا هاتان النادرتان اللتان ننقلهما عن كتاب « الأغانى » بما يغنينا عن الإطناب فى التعليق على ألعاب العرب ومقاتلاتهم الفردية . أما الأولى فتروى لنا التحاماً بين شاعر وغرير من أجل امرأة :

« فى ذلك الزمن لم يكن الشاعر جميل قد باح بحبه لبثينة . وحدث أن « توبة » مر فى طريقه إلى الشام بقبيلة بنى عذرة فلفت نظر بثينة ، مما أثار غضب جميل فصاح به :

— من أنت ؟

— إنى توبة بن الهامر .

---

(١) ماران جـ ٢ ص ١٨١ .

ـ إنى أدعوك إلى مبارزتى فى المصارعة والرماية والسباق .

فقبل توبة وتمنطق بوشاح أحمر أخذه من يدى بثينة . وانبرى لخصمه . وصارعه جميل فلم يلبث حتى غلبه ، ثم تناول كل منهما قوسه فغلبه جميل كذلك ، ثم تسابقا فسبقه جميل . فقال توبة :

ـ إن محضر هذه المرأة يجعلك غلاباً ، فلننزل إلى الوادى ونعد الكرة . . .

وبعيداً عن عينى بثينة هُزم جميل فى السباق والرماية والمصارعة» .

وها هى ذى النادرة الثانية :

« سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب : من أشجع من رأيت ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أحيل الناس وعن أشجع الناس وعن أجبن الناس . فقال عمر : هات .

قال : . . . فمضيت حتى اشتمل علىّ الليل . فوالله إننى لأسير فى قمر باهر كالنور الظاهر ، إذا بفتى على فرس يقود ظعينة وهو يقول :

يا لدينـــا يا لدينـــا ليتنـــا يعـــدى علينـــا

ثم يبلى ما لدينـــا

ثم يخرج حنظلة من مخلاته ثم يرمى بها فى السماء فلا تبلغ الأرض حتى ينظمها بمشقص من نبله . فصحت به : خذ حذرك ثكلتك أمك ، فإنى قاتلك . فمال عن فرسه ، فإذا هو بالأرض . فقلت : إن هذا الاستخفاف .

فدنوت منه وصحت به : ويلك ما أجهلك ! فما تخلخل ، ولا زال حتى شككت بالرمح فى إبهامه ، فإذا هو كأنه قد مات منذ سنة . فمضيت وتركته ، فهذا أجبن الناس .

ثم مضيت فأصبحت بين دكادك ، فنظرت إلى أبيات فعدلت إليها ، فإذا فيها جوار ثلاث كأنهن من نجوم الثريا ، فبكين حين رأينى ، فقلت : ما يبكيكن ؟ فقلن : لما ابتلينا به منك ، ومن ورائنا أخت لنا أجمل منا . فأشرفت من مرقد ، فإذا بشخص لم أر شيئاً قط أجمل من وجهه ، وإذا بغلام يخصف نعله ، عليه ذؤابة يسحبها ، فلما نظر إلى وثب على الفرس مبادراً ، ثم ركض فسبقنى إلى البيوت . فوجدهن قد ارتعن ، فسمعته يقول لهن :

مهلا نسياتى إذا لا ترتعن   إن منع اليوم نساء تمنعن

أرخين أذيال المروط وارتعن

قال : فلما دنوت منه قال : أتطرد لى أو أطرد لك ؟ فقلت : بل اطرد لى ، فركض وركضت فى إثره حتى أمكنت السنان من لفتته (واللفتة أسفل الكتف) واتكأت عليه ، فإذا هو والله مع لَبَب فرسه ، ثم استوى فى سرجه فقلت : أقانى . فقال : اطرد ! حتى إذا ظننت أن السنان بين ناصيته اعتمدت عايه ، فإذا هو والله قائم على الأرض والسنان زالج ،

فاستوى على فرسه ، فقلت : أقلنى ، قال : اطرد ، فطردته ، حتى إذا أمكنت السنان من متنه اتكأت عليه وأنا أظن أنى قد فرغت منه ، فمال فى سرجه حتى نظرت إلى بدنه فى الأرض ومضى السنان زالجاً ، ثم استوى على فرسه وقال : أبعد ثلاث تريد ماذا لى ؟ ثكلتك أمك ! فوليت وأنا مرعوب منه ، فلما غشينى ، وجدت حس السنان ، فالتفت ، فإذا هو يطردنى بالرمح بلا سنان ، فكف عنى واستنزلنى ، فنزلت ونزل والله وجز ناصيتى وقال : انطلق ، فانى أنفس بك من القتل . فكان ذلك والله يا أمير المؤمنين عندى أشد من الموت ، فذلك أشجع من رأيت . وسألت عن الفتى فقيل ربيعة بن مكدم من بنى كنانة » [١] .

واقد وجدت بين أبطال العرب عهود وأحلاف حربية تشبه إلى حد ما تلك الروابط التى وجدت بين دوجسكلان Du Guesclin وكليسون Clisson ، وبين باسومبيير Bassompierre وشومبرج Schomberg [٢] ولا حاجة بنا إلى الإطالة فى موضوع يعرفه الجميع .

جملة القول إذن أن العرب فى كل العصور قد عظموا الفرس وعظموا الأسلحة ، وبلغوا — بالتربية الصارمة والتدريب اليومى والاعتناء الذكى الخاص — فى فن الحيل وفن صياغة الأسلحة واستعمالها شأواً من الإتقان يجاور حد الكمال .

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٣١ .

(٢) لاكورن دى سانت بالاى ، ج ١ ، تعليقات ص ٢٧٢ وما يليها .

تعظيم الشرف

يبدو أن الطبيعة ، كما لذ لها أن تتوج الذُّرَى الثلجية بأزهار نادرة رقيقة بديعة ، قد حرصت كذلك على إظهار لون من التأنق فى أن تخرج من رمال صحراء العرب القاحلة نبتة فواحة ، تتفتح عن أعذب أزهار الدنيا عطراً وأرقها فتنة وسحراً . أما هذه النبتة فهى « الشرف » وأما أزهارها فهى : الوفاء ، والولاء ، والإقدام ، والجود ، والمروءة .

ويعرف « شاتوبريان » الشرف فى العصر الحديث ، بأنه « فضيلة تعتمد فى أغلب الأحيان على تضحية ما عداها من الفضائل ، فضيلة قد تتنكر للسعادة ، ولكنها لا تتنكر للشقاء أبداً ، فضيلة لا تهدأ لها ثائرة إذا اشتمت إهانة ، أثرة وإن كانت أنبل شخصية ، تقسم اليمين لنفسها ، وهى لنفسها القضاء والقدر » . ولقد ولد الشرف — بمعناه هذا — من ولاء الهيئة الأرستقراطية لشخص الملك ، على حين كان هذا الملك مجرماً[1]. ويشرح « هردر » ذلك بقوله : « من الواضح أن مهنة حمل السلاح كان مقضياً عليها بأن تنحل وأن تصبح همجية صريحة ، منذ أن باتت حقاً

---

(١) شاتوبريان : تحليل مشروح لتاريخ فرنسا — الإقطاع ، الفروسية ، الخ .. ، ص ٨٢ وما يليها . انظر كذلك الصفحات الرائعة التى وصف فيها الشرف الفريد دى فينى (A. de Vigny) فى كتابه : عبودية العسكرى وعظمته .

وراثيًّا ، ومنذ أن صار الفارس الشهم الولى — فى مهده — شريفاً من أرباب القصور . ولقد عمد أمراء بعيدو النظر ، ممن ربوا لديهم حراساً متعطلين ، إلى تحسين المنظمة ، كما سعوا — حرصاً على أمن بلاطهم وأسراتهم وأملاكهم — إلى صقل أخلاق هؤلاء الغلمان البواسل وتهذيب أرواحهم . ومن هنا نشأت تلك القوانين الصارمة ضد كل خيانة أو خسة ، ونشأت هذه الواجبات النبيلة : نصرة المظلوم ، والدفاع عن العرض ، والكرم إزاء العدو — وكلها أوامر ونواه تهدف إلى درء عنف أولئك الذين يحملون السلاح ، وترقيق شدة نزعاتهم» [١] .

ومما سبق ، ينبغى أن نستخلص أولا : أن تعظيم الشرف لم يظهر فى أوربا إلا إبان القرون الوسطى ، وثانياً : أن تعظيم الشرف كان فى ذلك العصر صفة اختصت بها طبقة معينة هى الهيئة الارستقراطية من أمراء وفرسان ، وثالثاً : أن ذلك يظهر فى أول الأمر بمثابة إجراء للتأمين ضد وحشية المقاتلين قبل أن ينفذ إلى أعماق الأخلاق ويصبح الحافز إلى أفعال الفروسية .

وعلى نقيض ذلك ، يبدو الشرف أول وليد أنجبه المجتمع العربى . فهو الخير العام ، ينعم به الجميع ويدينون بمبادئه ، لا تمتاز به طبقة أو هيئة دون سواها . وإذا صعدنا فى تاريخ العرب إلى أقصى ما نستطيع أن ندرك منه ، وجدنا الشرف يلهم فصاحتهم ويغذوها ، ويهدى سلوكهم

(١) هردر ، جـ ٣ ، ص ٤٣٦ ، ترجمة « كينيه » .

ويقومه ، وكأنه النبع الفياض تصدر عنه جميع بطولاتهم . لقد أدت طبيعة أحوال أولئك الناس الذين يعتبرون أكثر أهل الأرض تمتعاً بالحرية ، إلى أن يتفاهموا على حصر وتحديد الأخطار التى تعرضهم لها حياتهم المليئة بالمغامرات والاحتياجات وأسباب الفخار والشجار ، وهم الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم لأمير أو قانون أو حكومة . ولقد خلق لديهم تشابه أوضاع العيش تشابهاً فى العواطف ، فإذا هم يجمعون من تلقاء أنفسهم على احترام المرأة والضيف والجار والمظلوم ، لأنه كان من مصلحة كل منهم ألا يلحق به ولا بأهله العزّل أذى . ومن هنا كان الإجماع على نبذ كل فعل يشوبه الغدر أو الجبن أو الدناءة . وهكذا ، منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، قام المجتمع العربى — نتيجة لخصائص البيئة وأهلها — على التزامات بسيطة ، فلم يكن له قانون سوى العهد ، ولم يكن له وسط تباين العقائد وشتات القبائل سوى راية واحدة ودين واحد ، ألا وهو الشرف .

وتبع هذا الدين شعب بأسره من المؤمنين والشهداء . ولما كان فخر الرجال بينهم بحيازة صفات الكمال شعوراً حياً دائماً ، فقد أدى ذلك إلى إذكاء طموحهم وزيادة قدرتهم على التحسن . إنهم لم يقنعوا باحترام جميع مظاهر ضعف الضعفاء ، بل نصبوا أنفسهم حماة لها ، أباة لا يبتغون جزاء ولا شكوراً . ولم يقنعوا فى سبيل ذلك ببذل الضيافة والقرى ، بل وتجردوا مما لهم ، وخربوا ديارهم ، وحرموا أنفسهم من الضرورى اللازم حرصاً على ألا يرفضوا قط سؤلا ، وأن يهبوا ويغدقوا . وما إن بلغوا هذه الدرجة

حتى تجاوزوها، فلقد راحوا يتلهفون على الإغاثة وإزجاء القرى، ويستعجلون لقاء المستجير والضيف، وهكذا استحال البدو الرحل كما شاءت لهم الطبيعة فرساناً هائمين، وتصدوا لإنقاذ المنكوب، وسعوا لإعانة البائس، وسيطر عليهم جنون الشرف سيطرة واقعية.

ولما كان الكمال يجذبهم كما يجذب المغناطيس الحديد، وكما يجذب القطب المغناطيس، يريدون بلوغه رغم كل شيء، فلقد أفلحوا على أقل تقدير فى أن يلقوا علينا دروساً نبيلة، وفى أن يضربوا لنا أمثلة عالية فى الزهد والولاء، والكرم والمروءة. وتسابقوا جميعاً فى مضمار فضائل الرجولة وكل منهم يريد أن يدرك المكانة الأولى، فأدركوا أسمى مكانة يصبو إليها إنسان. ولن نحاول أن نعدد على مسبحة أسماء تلك الفضائل، خشية أن ينفد صبر القارئ. لن نتحدث عن شجاعتهم ولا عن بسالتهم، فلقد كانت الشجاعة والبسالة بينهم عملة شائعة رائجة. ولن نتحدث عن دين الثأر الذى اعتنقوه، ولعله كان أعمق عواطف النفس العربية. وسوف نضطر أيضاً إلى الإيجاز فى ذكر العرض — وهو أرق وأثمن تلك الأزهار — هذا الجانب المرهف الذى يأبى الإهانة[1]، ويدفع الرجال إلى التضحية

---

(١) «العرض — وهو ترفه الشرف — لون من الارتياب الحذر الذى لا يدفع الحسنة والعار فحسب، بل يأبى أدنى شك يتردد حول الشرف والشجاعة، والذى لا يثور ضد الإهانة فحسب، بل يثور ضد ظل الإهانة».

جان — جاك أمبير: منوعات من التاريخ الأدبى والأدب. جـ ١، ص ١٨٦.

بحياتهم ، وأموالهم ، بل وبقبيلتهم ، فى سبيل محو وصمة لحقت بالشرف . ويا له من شعور رائع أحال الشاعر الشنفرى وحشاً ضارياً لا يرضى بالموت قراراً إلا بعد أن قتل مائة من بنى سلمان ، إذ صفعته صبية منهم . إنه ذلك الشعور الرائع الذى « أثار عام ١٥٦٨ جميع أهل البزارة بغرناطة ، وأهلك خمسين ألفاً من الأندلسيين فى سبيل الثأر من « دون جوان دى مندوزا » الذى ضرب بالعصا « دون جوان دى مالك » سليل بنى أمية »[١] .

ولسوف نقنع هنا — فلا بد من الحدود — برصد الفضائل العربية فى إطار شرائع الفروسية الأوروبية . وسيتيح لنا ذلك فائدة مزدوجة ، إذ نركز موضوعنا من ناحية ، ونبين من ناحية أخرى أن العرب كانوا يتمتعون بالعواطف التى اصطلح الناس على نعتها بالعواطف المسيحية .

ويمكن أن نوجز قانون الفروسية — وهو الذى لم يصغ قط فى نصوص واضحة[٢] — بأن نعرضه فى ثمانى وصايا ، تختص أربع منها بفروض الدين ونظام الإقطاع ، وأربع بدعائم العسكرية والفروسية . وسوف نعرض الوصايا الأربع الأولى عرضاً سريعاً ، ونورد ما يقابلها من النصوص القرآنية ، ثم نقف وقفة أطول عند فضائل الفرسان التى استنها قانون الفروسية :

الوصية الأولى : مؤداها ، أنه « يجب الإيمان بجميع تعاليم الكنيسة

(١) س . دى سيسموندى ، ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) جوتييه : الفروسية ، ص ٣١ .

واتباع جميع أوامرها» وأن على الفارس — فضلاً عن أداء بعض الواجبات الدينية كشهود القداس ، والاعتراف ، والتناول قبل القتال — واجب « الموت فى سبيل الإيمان وفى ظله » . وفى ذلك يقول الشاعر « أوستاش ديشان » (Eustache Deschamps) :

الفرسان فى هذه الدنيا
لا يستطيعون أن يعيشوا بلا همّ :
فعليهم أن يدافعوا عن الشعب
وأن يريقوا دمهم من أجل الإيمان[1].

وكان أداء هذا الواجب — واجب إراقة الدم من أجل الإيمان — ضماناً للمقاتل أن يثاب فى الأعالى « بالمجد المطلق » وبشذى أزهار الفردوس المقدسة .

ويقول القرآن : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

ويقول النبى : « والذى نفسى بيده ، لا يكلم أحد فى سبيل الله — والله أعلم بمن يكلم فى سبيله — إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك » .

وهكذا نرى أن الإسلام والمسيحية متفقان فى اعتبار أولئك الذين

---

(١) عن لاكورن دى سانت — باليه ، ص ١٢٨ .

يموتون دفاعاً عن معتقداتهم وعن مثلهم الأعلى أصفياء وشهداء ، جديرين بنعيم السموات .

وليس أعدل من ذلك .

وتقول الوصية الثانية « ينبغي أن تحمى الكنيسة » ، وبعبارة أخرى : افعل كل ما في وسعك للمحافظة على المسيحية وتقويتها .

ويقول القرآن : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » .

ونقرأ هذه الآية أيضاً : « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . »

أما الوصية الثالثة فهى : « اعلن على الكفار حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة » .

ومن المعروف أن هذه الوصية قد طبقت فى العصور الوسطى تطبيقاً حرفياً دام عدة قرون ، واحتدم خلالها تعصب لم يحتدم مثله بعد ذلك أبداً . ويلاحظ جوتييه « أن جميع قصص تلك الحقبة ما هى إلا رواية ذلك الصراع العظيم الهائل» [1]. ويلتمس خير تصوير للفرسان المسيحيين وأصدقه فى هذين البيتين :

---

(١) جوتييه ص ٧١ .

« إنهم يقاتلون الترك تطوعاً ورضا

وكثيراً ما يتعمدون فى دمائهم » .

ولا يشفى الموت نفسه غلة أولئك المحاربين المتوحشين ، إذ يبدو أن لذات الخلد تعجز عن الحد من انطلاقهم إلى مقاتلة الكفار . فلقد كانوا يقولون : « ولئن كنا فى الفردوس راقدين ، لهبطنا منه لمقاتلتهم » ولعلهم يهبطون كذلك راضين لتأديب المارقين من أهل « ألبى » .

وينبغى أن نعترف بأن المسلمين — فى زمن رخائهم وسلطانهم على الأقل — قد أظهروا فى الخارج وفى الداخل روح تسامح أعظم . فهم فى الخارج لم يعمدوا مطلقاً إلى ذلك الاعتداء الصارخ ، وإلى إرغام الناس على تغيير عقائدهم قهراً ، كما حدث مراراً فى تاريخ الحروب الصليبية ، وحروب أسبانيا ، وسقوط غرناطة ، فالشريعة القرآنية تقضى بأن يوجه إلى الشعوب التى يراد مهاجمتها إنذار سابق لكل عمل عدائى . قال تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ... » وقال : « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وهذا هو الخليفة أبو بكر يخطب فى جنود أسامة الماضين إلى غزو الشام ، فى نفس السنة التى توفى فيها محمد (٦٣٢) ، أى فى أشد أطوار النزعة الدينية عند العرب فيقول :

« قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ،

ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله ، أفناكم الله بالطعن والطاعون[١] » . وما هؤلاء الرجال الذين يعيشون معتزلين سوى الرهبان المسيحيين .

وإذا تم فتح بلد من البلاد ، كانوا يدعون لأهله دينهم وعاداتهم بل ونظامهم الإدارى . وما كانوا يفرضون عليهم إلا دفع جزية هى فى أغلب الأحيان أقل مما كانت تفرضه عليهم الحكومة السابقة من الضرائب . وإن هناك حديثاً ثابتاً يحث على احترام حقوق الذميين (المسيحيين واليهود) إذ لهم حسب السنة ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات[٢] ، ومن آذى ذمياً كان غير جدير بالإسلام[٣] . لقد أصاب « فوربيل » إذن عندما قال : « ولا يقدم التاريخ قط مثلاً من الاضطهاد أو الحيف الموجه ضد المغلوبين ، ولقد أولى جميع الرؤساء المشهورين

---

(١) الصديق أبو بكر . لمحمد حسين هيكل ص ١٠٥ (تحقيق) .

(٢) و (٣) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٧٤ .

بالإنصاف حمايتهم جميع رعاياهم بلا تفريق [١] » .

ويمكن أن تصاغ الوصية الرابعة على النحو التالى : « ينبغى أن تؤدى واجباتك الإقطاعية » ، أى أنه كان يجب على الفارس أن يفى على وجه الدقة بجميع الالتزامات الإقطاعية التى تقع على عاتقه ولا سيما الإخلاص لمولاه .

ويوصى الإسلام من جانبه « بطاعة أولى الأمر » ، ولكن طاعة غير عمياء . فهناك حديث أورده البخارى ومسلم ، يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[٢] .

ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن صاحب السيادة أو الخليفة ليست له سلطة دينية بالمعنى الصحيح . والأصل أن يعينه الشعب أو الجماعة التى تمثل الشعب ، فهو يستمد حقوقه لا من الله بل من الشعب ، الذى يستطيع أن يطيح به إذا تنكر لمبادئ العدل والإنسانية التى نص عليها القرآن . إن سلطاته مدنية لا دينية . وهو غير معصوم من الخطأ . وإذا

---

(١) فوريبيل : تاريخ غالة الجنوبية ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) جاء فى بيان أصدره شريف مكة : «لا التزام لمخلوق بطاعة ضد شريعة الخالق.» (جريدة الطان ١٢ نوفبر ١٩١٦) . ولا توجد فى الواقع سلطة دينية مطلقة فى الإسلام . غير أن « العلماء » يعتبرون « أعلم » من سواهم ، ويعتبر تأويلهم للشرع أقرب إلى الحقيقة . وعلى هذا النحو ينبغى فهم قول النبى : « الدين النصيحة » الذى ردده علماء القاهرة فى بيانهم للمصريين ، وفيه يحثونهم على إيثار الهدوء أثناء الحرب (الصحف المصرية ٩ نوفبر ١٩١٤)

كان من حقه أن يفسر النصوص الشريفة ، فإن لأهون رعاياه أن يشاطره هذا الحق . أو لم يشهد القوم السلطان صلاح الدين يمثل بين يدى القاضى وقد شكاه أحد رعاياه ؟ . . .. لقد كسب قضيته ثم تنازل لخصمه عن موضع نزاعهما (بهاء الدين) .

وإن الوصايا الأربع الأخيرة من قانون الفروسية تشمل فضائل الفروسية الأربع الأساسية ، ألا وهى الشجاعة (لا تتقهقر أمام العدو) ، والوفاء بالعهد (لا تكذب وف بعهدك) ، والكرم (كن جواداً وأغدق على الجميع) ، وحماية الضعيف (احترام بجميع الضعيفات وكن المحامى عنهن) . ولسوف ندرس هذه الوصايا على حدة .

الوفاء بالعهد

على جبل سيناء قال الرب لموسى : « لا تكذب » . ولقد أضاف قانون الفروسية عبارة أخرى تنظم سلوك الفارس : « وكن وفيًّا بعهدك ».

إن الوفاء بالعهد فضيلة الفرسان ، بل إنها جوهر فضائلهم كلها ، لأنها هى التى تشرحها جميعاً . إنها كالصراحة ، نتيجة من نتائج القوة والشجاعة ، فإذا كان المرء قويًّا لا يخاف ، أصبح صريحاً ، وإذا كان المرء شجاعاً باسلا أصبح يتحمل مسئولية آرائه ويتولى الدفاع عنها ، شاهراً سلاحه إن استدعى الأمر . ولقد قال « كورنى » : « إن كل رجل شجاع رجل يستمسك بقوله »[1] .

وما أكثر ما يحمل المرء وفاؤه بعهده إلى معارضة مصالحه الخاصة . فلا فضل لامرئ فى تنفيذ التزام يعود عليه بالمنفعة . وهكذا يفترض الوفاء بالعهد نفساً نزيهة ، بل ويتضمن أن يقف المرء مواقف تضر بمصالحه الشخصية ، وتحرص على مصالح غيره . أو ليست الشجاعة والنزاهة وروح التضحية هى قواعد الفروسية ؟ إن إدراك احترام العهد ، يدل على انتهاء عصر الهمجية وإشراق فجر الحضارة . فلقد كفت القوة الغاشمة

(١) كورنى : « الكاذب » ، الفصل الثالث .

ـ حين ظهر هذا المعنى الجديد ـ عن تمثيل الحق وإملاء القانون ، ولم تعد المصلحة هى الحافز الوحيد والقائد المطلق لأفعال البشر .

ومنذ اليوم الذى استطاع فيه الناس أن يعتمدوا على الوعد ، أمكنهم أن يتفرغوا دون خوف لأعمال السلام الإنشائية ، ما داموا يضمنون أن الوفاء بالوعد مصلحة تفوق ما عداها من المصالح . وهكذا انتهت حياة الشعوب وحياة الأفراد إلى الاعتماد على العهد اعتماداً يكاد أن يكون كاملاً . فإننا نولى ثقتنا وعداً ، أو توقيعاً ، أو التزاماً ، أو معاهدة تمت فى حرية . فإذا « أعطى المرء كلمته » ـ وهذا التعبير يحوى تقليداً فعلياً ـ أعطى فى الوقت نفسه ما وعد به . إن وعد الحر دين عليه ، فلا يجوز له أن ينكر قوله ، أو يسحبه ، أو أن يبتره أو يساوم فيه . إنه واقع ينتمى إلى ماض لا رجعة فيه ، وإن كان تنفيذه يتوقف على ظروف المستقبل . ولقد وجد أن هذا الوفاء بالعهد معنى من معانى الجمال والصلاح وحسن العواقب بحيث ارتفع إلى قدسية الدين ، وبات من يحنث بعهده من الأفراد أو الأمم يعتبر آثماً يتعرض لازدراء الناس ولعنة الله ، وكل خيانة إنما تحمل فى باطنها العقاب عليها ، وكثيراً ما يكون الجزاء من جنس الخطيئة .

لقد قدر العرب الصراحة حق قدرها . وخلطوا بينها وبين الصلاح . وإذ كانوا يحبون الصدق فى القول ، فقد جعلوا كلمة « الصدق » شاملة لكل ما هو صالح . « والرجل الصادق » فى لغتهم ، ليس الرجل الصريح

المخلص فحسب ، بل إن لهذا التعبير معنى أعم ينطبق على الرجل الممتاز في شتى النواحي . إن كلمة « صادق » ترادف في العربية كلمة « صالح » . وإذا كان الصدق والخير شيئاً واحداً لدى شعب من الشعوب ، فتلك شهادة بليغة تدل على خلقه .

لقد كانوا لا يعرفون الكذب ، فالكذب ملاذ الجبان ، والعرب أهل فخار ونزال . لقد كانوا يقدسون العهد[1] . وكان العهد دينهم القومي قبل ظهور الإسلام ، ديناً تعتنقه القبائل المسيحية واليهودية والوثنية على السواء . وهكذا ، في بلد أهله بدو رحل وفرسان صناديد ، وحيث لا توجد حكومة ولا قضاء ولا شرطة ، كان العهد يقوم مقام القوانين والمحضرين وجهاز العدالة الحديثة بأكمله .

تمثلوا تلك القبائل التي تتطاحن أبداً ، وأولئك الفرسان الهائمين الذين ينشدون موقعة أو يسعون إلى غارة أو يلتمسون الأخذ بثأر ، لا يكاد يهل هلال شهر الهدنة عليهم ، حتى تقف الحرب وكأنها أخمدت بفعل السحر ، وإذا بالقطعان تسوم بلا رقيب ، والسلع تتنقل دون خطر ، ولا خوف على الرجال أو الدواب ولا ما دون ذلك . فقد أغمدت السيوف الهندية ، وانكمشت الضغائن إلى حين في أعماق القلوب . وأصبح المرء

---

(١) « ليس بين الشعوب من هم أشد تقديساً للقسم من العرب . »
(هيرودوت جـ ٣ ص ٨) .

يستطيع أن يجتاز سالماً بلد ألدّ أعدائه بل ومحلته ، ولعله يلقى — وجهاً لوجه — ابن من قتله ، ويفيض قلبه بالحقد عليه ولكنه يمضى دون أن يلحق به ضر ، فإن العهد فى الصحراء أعظم منج . ولقد كان على الرجل — فى النوادى العامة ، فى موسم الحج أو سوق عكاظ أو ذى المجاز بالقرب من عرفات — كان على الرجل أن يسمع دون أن يبدى غيظه قصائد فى مدح القبيلة المعادية ، والإشادة بمآثر غالبه وغريمه ، وأن يتقبل فى برود نغزات القول ، وأن يتلقى فى صدره ما يسدده الشعراء من سهام الفصاحة ، دون أن يبدر منه تصرف غير أنيق ، بل أدب عيوف ، وسلوك كريم خليق بسيد القوم الذى يعلم « أن يوماً لنا ويوماً علينا » ، وأنه سوف ينتقم عن قريب .

ألا ما أروع ما تنطوى عليه كلمة « الوفاء » من ضبط للعواطف ، وسمو بالنفس ، وفخر ، ونبل ، وجلال !

هو ذا المسلم « كورنوماران » Cornumarant فى « أغنية بيت المقدس » يعد المسيحيين بأن الهدنة ستدوم ثلاثة أيام ، فيحفظ وعده رغم تعارض ذلك ومصالحه . لقد وضع الشاعر على لسانه هذه الكلمات النبيلة : « خير لى أن أموت من أن أحنث فى عهدى » [1] .

وهل توجد تحية أبلغ من تحية يزجيها العدو ؟ إنها الشهادة القاطعة

---

(١) « أغنية بيت المقدس » ، عن جوتييه ص ٨١ .

على ولاء العرب ، لأنها صادرة عن أشد مقاتلى العصور الوسطى تعصباً ، أولئك الذين كانوا لا يتصورون الفضيلة إلا مسيحية . ولكن لنصعد إلى المنبع ، ولنغترف من نهر الوفاء العربى الزاخر بعض العبر والدروس . فإن هذه اللمحة التى أوردتها « أغنية بيت المقدس » ليست سوى درس موجه لطائفة من المقاتلين « كانوا دائماً مستعدين للقيام بالحرب أو لإقرار السلام ، على شرط أن يأملوا فى ذلك كسباً لهم[1] » .

ولئلا نكثر من الاستشهاد إلى غير حد ، سوف نتخير الأمثلة على نحو يتيح للقارئ أن يلم إلماماً سريعاً بمجال الوفاء العربى الكبير .

أولا — الوفاء بالوعد :

كان « المنذر بن ماء السماء » قد جعل لنفسه يومين فى السنة ، يجلس فيهما ، يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس ، فأول من يطلع عليه فى يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أى سوداً ، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغذى بدمه الغربان . . .

---

(١) أوجوستان تييرى : غزو النورمانديين لانجلترا ، ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٧ . راجع فى ج ٤ ص ٥٦ ، ٥٧ و ٨٤ و ٨٥ و ٢٨ ، و ٢٩ سيرة هنرى السادس الألمانى مع ريشار قلب الأسد ، وسيرة ريشار مع كل من الكونت دوفرنى وفيليب أوجوست .

راجع كذلك ستانلى لين بول : صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس ، ص ٢٢٥ وما يليها .

ثم إن رجلاً من طيء يقال له حنظلة بن أبي عفراء أو ابن أبي عفر ، قد مر به في يوم بؤسه فقال له :

— أبيت اللعن ، والله ما أتيتك زائراً ، ولأهلي من خيرك مائراً ، فلا تكن ميرتهم قتلي .

فقال :

— لا بد من ذلك ، فاسأل حاجة أقضيها لك .

فقال :

— تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي وأحكم من أمرهم ما أريد ، ثم أصير إليك ، فأنفذ فيّ حكمك .

فقال :

— ومن يكفل بك حتى تعود ؟

فنظر في وجوه جلسائه ، فعرف منهم « شريك بن عمرو » فأنشد يقول :

يا شريك يا ابن عمرو ما من الموت محاله
يا شريك يا ابن عمرو يا أخا من لا أخا له
يا أخا شيبان فك الـ يوم رهناً قد أناله
يا أخا كل مضاف وحيا من لا حيا له

فوثب شريك وقال :

ـ أبيت اللعن ، يدى بيده ، ودمى بدمه إن لم يعد إلى أجله .

فأطلقه المنذر . فلما كان من القابل ، جلس فى مجلسه ينظر حنظلة أن يأتيه ، فأبطأ عليه ، فأمر بشريك فقرب ليقتله . فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم ، فتأملوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفناً متحنطاً ، معه نادبته تندبه ، وقد قامت نادبة شريك تندبه . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما ، فأطلقهما وأبطل تلك السنة[1].

ثانياً — الوفاء بالوعد للضيف :

انفض عن الأمير الشاعر « امرئ القيس » أنصاره ، فجاب بين القبائل يستنجد بها على « بنى أسد » الذين قتلوا أباه حتى بلغ حصن « الأبلق » ، حيث رحب به « السموءل » . ثم سأله « امرؤالقيس » أن يكتب له إلى « الحارث بن أبى شمر الغسانى » بالشام ليوصله إلى قيصر . وسار حتى انتهى إلى قيصر .

وكان امرؤ القيس قد أودع السموءل أدرعاً مائة. فأتاه « الحارث » ليأخذها منه ، فتحصن السموءل منه . فأخذ الحارث ابناً له غلاماً — وكان فى الصيد — فقال :

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٨٦ وما بعدها .

— إما أن سلمت الأدراع إلى ، وإما أن قتلت ابنك .

فأبى السموءل أن يسلم إليه الأدراع . فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين . فقال السموءل فى ذلك :

وفيت بذمة الكندى إنى ... إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بأن لا ... تهدم يا سموءل ما بنيت
بنى لى عادياً حصناً حصيناً ... وبـــئراً كلما شئت استقيت

ثالثاً — القبيلة بأجمعها تفى بعهد أحد رجالها :

فى تلك السنة (حوالى ٦٠٠) لم ينزل ماء السماء ، وأصاب القحط أرض مدر ، واشتد البؤس بأهلها . فاجتمع بنو تميم وتشاوروا ، وقرروا أن يرسلوا إلى ملك الفرس طالبين أن يأذن لهم بأن ينزلوا سهول العراق الخصبة . وأوفدوا لهذا الشأن قبل كسرى برويز ، حاجب بن زرارة . . . . فاستأذن عليه ، فأوصل اليه : « أسيد العرب أنت ؟ قال : لا ؛ قال: فسيد مضر ؟ قال: لا ؛ قال فسيد بنى أبيك أنت ؟ قال: لا » . ثم أذن له .

فلما دخل عليه ، قال له :

— من أنت ؟

— سيد العرب .

— أليس قد أوصلت إليك ، أسيد العرب ؟ فقلت لا ، حتى اقتصرت

بك على بنى أبيك فقلت لا ؟

ــ أيها الملك ، لم أكن كذلك حتّى دخلت عليك ، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب .

قال كسرى :

ــ آه ، املئوا فاه درًّا .

ثم قال :

ــ إنكم معشر العرب غدر ، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وآذيتمونى .

قال حاجب :

ــ فإنى ضامن للملك ألا يفعلوا .

ــ فمن لى بأن تفى أنت ؟

ــ أرهنك قوسى .

فلما جاء بها ، ضحك من حوله وقالوا :

ــ لهذه العصا يفى .

قال كسرى :

ــ ما كان ليسلمها لشىء أبداً .

وقبضها منه ، وأذن لهم أن يدخلوا الريف .

ومات حاجب بن زرارة ، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال له :

ــ ما أنت الذى رهنتها .

ــ أجل !

ــ فما فعل ؟

ــ هلك وهو أبى . وقد وفى له قومه ووفى هو للملك .

فردها عليه ، وكساه حلة[1] .

رابعاً ــ قبيلة تخوض معركة دفاعاً عن وعد قطعه أحد أبنائها :

غضب كسرى برويز على عامله النعمان ملك الحيرة ، فخشى النعمان على حياته وماله ، واستجار بهانئ بن مسعود ، أحد رؤساء بنى شيبان . ورحب هانئ بالملك المخلوع وأجله . وقال له :

ــ قد لزمنى ذمامك ، وأنا مانعك مما أمنع نفسى وأهلى وولدى منه ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل . وإن ذلك غير نافعك ، لأنه مهلكى ومهلكك . وعندى رأى لك ، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورتى ، ولكنه الصواب .

ــ هاته .

ــ إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة . والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك . هذا إن بقيت . فامض إلى صاحبك واحمل

(١) عن « العقد الفريد » جـ ٢ ص ٢٠ .

إليه هدايا ومالا ، وألق بنفسك بين يديه ، فإما أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإما أن أصابك ، فالموت خير من أن تلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً ، أو تقتل مقهوراً .

— وكيف بحرمى ؟

— هن فى ذمتى ، لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتى .

— هذا وأبيك الرأى الصحيح ، ولن أجاوزه .

ثم اختار خيلاً وحللا من عصب اليمن وجوهراً وطرفاً كانت عنده ، ووجه بها مع رسوله إلى كسرى ، وكتب إليه يعتذر ويعلمه أنه صائر إليه . فقبلها كسرى وأمره بالقدوم . وعاد إليه الرسول فأخبره بذلك ، وأنه لم ير له عند كسرى سوءاً . فمضى اليه . . . فلما بلغ كسرى أنه بالباب ، بعث إليه فقيده ، وقال ابن الكلبى : ألقاه تحت أرجل الفيلة ، فوطئته حتى مات[1] .

ولما وضح لكسرى[2] واستبان أن مال النعمان وولده عند ابن مسعود ، بعث إليه كسرى رجلاً يخبره أنه قال له : « إن النعمان إنما كان عاملى ، وقد استودعك ماله وأهله ، فابعث بها إلى ، ولا تكلفنى أن أبعث إليك

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٢٩ وما يليها .

(٢) الأغانى ج ٢٠ ص ١٣٤ .

ولا إلى قومك بالجنود تقتل المقاتلة وتسبي الذرية » .

فبعث اليه هانئ : « إن الذى بلغك باطل ، وما عندى قليل ولا كثير . وإن يكن الأمر كما قيل ، فإنما أنا أحد رجلين ، إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من أودعه إياها ؛ ولن يسلم الحر أمانته ، أو رجل مكذوب عليه ، فليس ينبغى أن تأخذ بقول عدو أو حاسد » .

ونفذ كسرى وعيده ، وسير جنوداً كثيرة لتأتيه بمال النعمان وتقتل الرجال وتسبي النساء والأطفال . ولكن قبيلة بكر نهضت غاضبة على العدو ، تذود عن شرف وعد قطعه أحد رؤسائها . فكانت وقعة « ذى قار » (عام ٦١٤) ، حيث انهزم جيش ملك العجم هزيمة منكرة . وكان فى ذلك الحفاظ على عهد هانئ ، وسلامة امرأة النعمان وبناته ، وصيانة وديعته .

خامساً — وفاء بالعهد أثناء النزال :

حينما بلغ « الحارث بن ظالم » أن ملك الحجاز « عمرو بن عنبات » قد شكك فى مروءته وشجاعته ، ذهب إليه فى حصنه وأهاب به : « أيها الملك ، أغث ملهوفاً يستجير بك . » وخرج الملك ، فألقى الحارث عن وجهه قناعه وقال : « إننى الحارث بن ظالم ، أقبلت أحمل إليك الدليل على مضاء عزمى » . وتنازلا هزيعاً من الليل ، فلما خشى عمرو أن يظهر

عليه الحارث، استمهله إلى اليوم التالى لئلا يغلبه النعاس. فأجابه الحارث :

— ومن يضمن لى غداً ؟ فلننجز ما بدأناه . ولسوف يرقد الليلة هنا واحد منا فلا يقوم .

وواصلا القتال برهة، ثم سقط من يد عمرو رمحه، فتعلل بالنعاس، وطلب وقف القتال حتى مطلع الفجر . فرفض غريمه، وأذن له أن يستعيد رمحه .

— ولكنى أخشى أن تضربنى وأنا أتناول رمحى .

— بأبى ظالم أقسم ألا أمسك ما لم تمسك الرمح فى يدك .

— وبحق أبى عنبات أقسم ألا أقبض على الرمح وألا أعود إلى قتالك .

وبات الحارث أسير قسمه، فرجع إلى قبيلته، وترك الذى سبه آمناً[1] .

سادساً — الوفاء بالعهد فى غمار المعمعة :

فى حرب البسوس التى نشبت بين قبيلتى بكر وتغلب — والتى تحدثنا فيما سبق عن أصلها — خمسة أيام أو خمس مواقع اشتهرت فى تاريخ العرب الحربى . ويقدم لنا أحد هذه الأيام — يوم قضة سنة ٨٩٥ — مثلا نفيساً من أمثلة الوفاء بالوعد . فقد حدث[2] « أن مهلهلا أسرف فى القتل

(١) عن الأغانى جـ ٣ ص ٧ . الأغانى الصغير جـ ٢ ص ١٢٢ .
كوسان دى برسفال جـ ٢ ص ١٩١ .

(٢) العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٢٠ وما يليها (تحقيق) .

ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع . وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة شيبان لقتلهم كليب بن وائل . فكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب حين قتل ابنه بجير بن الحارث (ويقال إنه كان ابن أخيه) فلما بلغ الحارث قتله قال :

ــ نعم القتيل قتيل أصلح بين بنى وائل .

وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئاً له . فقيل له : « إنما قتله بشسع نعل كليب » . وذلك أن المهلهل لما قتل بجيراً قال :

ــ بؤ بشسع نعل كليب .

فغضب الحارث بن عباد . وكان له فرس يقال له النعامة ، فركبها ، وتولى أمر بكر ، فقتل تغلب ، حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب .. وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد يوم قضة . . . وفيه أسر المهلهل وهو لا يعرفه ، واسمه عدى بن ربيعة . فقال له :

ــ دلنى على عدى بن ربيعة وأنا أخلى عنك .

فقال له عدى :

ــ عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟

قال : نعم .

قال : فأنا عدى .

فجز ناصيته ، وتركه[١] .

لقد سردنا تلك الأمثلة النبيلة دون أن نعاق عليها أدنى تعليق . أو ليست تتحدث بنفسها ؟ ليت هذه العبرة تنفع أصحاب حضارة القرن العشرين ، ممن لا يرون فى الوعود سوى كلمات تلقى هينة ، وفى العقود سوى قصاصات ورق رخيصة !

---

(١) كانت عادة جز شعر المغلوبين شائعة بين أهل القرن الخامس فى فرنسا (راجع أوجستان تييرى : رسائل فى تاريخ فرنسا ، ص ٨٥) ، كما هى شائعة بين شعوب أمريكا البدائية التى حدثنا عنها كوبر (Cooper) وشاتوبريان .

الكرم

إن لفظة « الجود » التى وردت فى قانون الفروسية الغربية بمعنى « السخاء » ، لا تكفى للتعبير عن جود العرب ، ونحن نؤثر عليها لفظة « الكرم » ، فهى أوسع معنى وأكثر دلالة على كل ما هو نبيل الطبيعة ، وكل ما يصدر عن وجدان رقيق كريم . وإذا فهمنا لفظة الكرم على هذا النحو ، رأينا أنها تشمل :

أولا — السخاء أى الميل إلى الإعطاء ، وهو ما سنطلق عليه « كرم اليد » .

ثانياً — الكرم الذى هو سجية الحر ، أى التسامح ، وهذا ما سنطلق عليه « كرم النفس » .

ثالثاً — العفو عن الذنوب ، والشهامة إزاء العدو ، وهو ما سنطلق عليه « كرم القلب » .

وسنستعرض فى إيجاز مظاهر كرم اليد والنفس والقلب عند العرب .

١ — كـــرم اليد

يقول فورييل « كان السخاء أسمى فضيلة يتحلى بها الفارس بعد شجاعة تتفوق على كل حرص . ولم يكن المهم هو أسلوب التحصيل .

فلقد رمى الشاعر « ريمبو » Raymbaud يوماً السيد « مالاسبينا » بأنه قاطع طريق وسارق ، فرد قائلا : « أجل ، والله يا ريمبو ، إنى لأعترف بأننى كثيراً ما اختطفت مال الغير ، ولكن رغبة منى فى الإعطاء لا فى الإثراء واكتناز الكنوز . » ولقد عمد الشعراء إلى الحث على السخاء ومدح الجود بين أبطال العصور الوسطى ، بكل ما أوتوا من بلاغة . وهذا أحدهم يخاطب فتى يتوق إلى أن يصبح فارساً ، فينصحه هذه النصيحة « انفق عن سعة ، ولتكن لك دار جميلة لا باب لها ولا مفتاح ، ولا تستمع للخبثاء يشيرون عليك بأن تقيم عليها بواباً يضرب بالعصا تابعاً أو خادماً أو شريداً أو منشداً يريد أن يدخل » . ويقول « برتران دى بورن » Bertrand de Born . « إننى أعتبر فتى نبيلاً السيد إذا كثرت نفقات بيته . إنه فتى إذا وهب فأغدق ، وإذا أحرق القوس والسهم . وأما الهرم فهو السيد الذى لا يغامر بشىء ، والذى يكنز القمح والدهن والشراب ، بل إنه الذى لو كان لديه فرس ، قال : إنه فرسى » [1] .

ولم يكن بالعرب حاجة — لكى يهبوا ويبذلوا — إلى مثل هذا الحث الشديد . لقد كانوا يهبون عن طبيعة فيهم ، كانوا يهبون بالسليقة ، ويهبون جرياً على تقاليدهم ، ويهبون إذ تهزهم الرحمة ، ويهبون ابتغاء لطرب المتعة وحسن الذكر وبعد الصيت . ولم تكن بهم حاجة أيضاً إلى أن يتعلموا من الشعراء كيف يمنحون ، فلقد كانوا يسرفون فى الإعطاء ويتلفون ،

---

(١) فورييل : تاريخ الشعر البروفنسى ، جـ ١ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ .

لا يحسبون حساباً ، أو يلتمسون جزاء . ولم تكن حسناتهم تقاس على قدر ثرائهم — لأنهم كانوا يمعنون فى الإحسان حتى يحرموا أنفسهم من ضرورات العيش ، بدلاً من أن يرفضوا لسائل سؤلاً — أو تقاس بالنسبة إلى طلب من يقصدهم ، لأنهم كانوا يزعمون أن الهبة ينبغى أن تكون جديرة بالواهب دون التفات إلى درجة احتياج المنكوب الذى استغاث بهم . وما كانوا يزنون عطاياهم ، بل كانوا يخلعون على الفقير من اللباس ما يكسوه ويتيح له أن يكسو أفقر منه ، وكانوا يعهدون للمعوز من المال ما يغيثه ويتيح له أن يغيث أشد منه إعوازاً . وكأنى بالعرب قد أعلنوا الحرب على الفقر : يفضحه الفقراء للأغنياء ، فإذا بالأغنياء يتعقبونه توًّا ، وينهكونه بوابل من سهام أريحيتهم ، فيستسلم ، ويضطرونه إلى أن يلقى أسماله ، وأن يرفل فى الذهب والحرير ، وأن يستبدل بلهجة البغض والحقد آيات الشكر والثناء .

وكان السخاء لديهم ينطوى على ثلاث صفات جوهرية وأساسية ، هى السرعة والتبذير والاستخفاء . فما كان يجوز لهم أن يتوانوا عن سائل أو يعطلوه أو يعللوه بالوعود ، إذ أن الوعود سحاب لا بد أن يهمى غيثها حتى ترتوى أرض الحاجة الممحلة . ويقول « روترو » Rotrou : « إنك تنقص قدر الحسنة التى ترجئها » .

وكان عليهم أن يغدقوا إغداقاً ، وذلك لا يعنى كمية الهبة أو عدد ما تشتمل عليه مثل ما يعنى أصل الهبة ومصدرها . فلا فضل لمن أعطى نفلاً ، ووهب مما زاد عن حاجته أو مما تدره عليه أملاكه . إنما الكريم من أعطى فحرم نفسه ، وبذل من رأسماله ومن نصاب لوازمه . وهذه أقصوصة توضح ما نعنيه :

سئل قيس بن سعد : هل لقيت أكرم منك ؟ فأجاب . أجل ، لأن المنح لا يستحق الثناء ، إذا كان المرء موفور النعمة ، وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله . وأذكر إذ فاجأني الغيث يوماً أنني لذت أنا وصاحب لى بخيمة أعرابى . وكان الرجل غائباً فرحبت بنا زوجته ، حتى سمعت من بعيد صوت حصان فقالت : ها هو ذا زوجى . ثم أقبلت عليه قائلة : لقد رزقنا ضيفين . فترجل واتجه إلى عدد قليل من النوق غير بعيد ، فتخير إحداها ونحرها ، وقدم لنا الطعام . وراح ينحر لنا فى كل يوم ناقة رغم أنا لم نأت على سابقتها . وما كان منه حين نبهناه إلى ذلك إلا أن أجابنا قائلا : ليس من عادتى أن أقدم لضيفى مائدة الأمس . وقد بقينا على تلك الحال زمناً ألجأتنا اليه العاصفة ، حتى كان يوم انتهزنا فيه فرصة غياب مضيفنا ، فرحلنا ، تاركين له كيساً به مائة دينار ذهباً ، بعد أن استأذنا زوجته .

وقطعنا من الطريق مسافة غير قصيرة ، وإذا بصوت يصيح بنا من ورائنا « أيها اللئيمان ، دونكما ! فقد والله أسقطتما قدرى إذ خلفتما لى عن قرا كما أجرى ! » ولحق بنا فألقى الكيس بين أيدينا قائلا : « إليكما كيسكما ، خذاه وإلا أعملت فيكما رمحى ! » فلم نجد بداً من أن نرضخ لأمره ، إذ رأينا التصميم فى زجره .

وكانت ثالثة صفات السخاء هى الاستخفاء . قال النبى فى حديثه « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » الحديث .

وبديهي أن المعطي لا يصح له أن يفتخر بمكارمه ، وبديهي ايضا أنه على الآخذ أن يشيد بجود المنعم عليه ، بل ولقد كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لرد الجميل وما أيسرها . وكان الشعراء يتكفاون بذلك . وفي كل جيل كان بين الشعراء والمحسنين سباق في الكرم ، أولئك يتغنون باريحية هؤلاء ، وهؤلاء يكافئون مدائح أولئك ، وكلما رن ثناء الشعراء ، رنت معه آيات النعم . وفي ذلك ما يشرح بعض وقائع الجود الخيالية وبعض قصائد المدح المسرفة ، بين ما حفظ لنا ذكره التاريخ والروايات .

على أن العرب قد وجدوا السبيل إلى الاستخفاء في فعل الخير ، قبل ظهور الإسلام بعهد طويل ، ورغم حرصهم على حسن الصيت . فلقد كان لديهم ما يشبه صندوق إغاثة المعوزين حالياً ، إلا أنه لم يكن يحمل أية تسمية تجرح كبرياء المعوز ، وكان يغذيه لعب الميسر . فقد كانوا يلعبون الميسر بتسعة سهام ، يعرف كل منها باسم معين ، وتوضع كلها في جعبة ، يتناول منها كل لاعب سهماً . وكان الرهان حيواناً ، هو في أغلب الأحيان جمل ، فكان ينحر ويوزع لحمه على المساكين . كانوا إذن يلعبون الميسر ، لا ابتغاء لمتعة المقامرة فحسب ، بل ابتغاء لمتعة إطعام البائسين أيضاً .

يقول لبيد :

وجزور أيسار[1] دعوت لحتفها بمغالق[2] متشابه أجسامهـا

(١) أصحاب ميسر .

(٢) بسهام .

ادعو بهن لعاقر[١] أو مطفل[٢] بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب[٣] كأنما هبطا تبالة[٤] مخصباً أهضامها[٥]

وفيما عدا الميسر ، كانت للعرب طريقة خاصة فى المنح ، طريقة جماعية أيضاً ولكنها غير مستخفية . فكما كانوا يتبارون فى الافتخار بالأنساب ، أو يتبارون بالأسلحة ، أو يتسابقون أو يتعارضون بالقصائد ، كانوا يعمدون كذلك إلى منافرات ومباريات فى الكرم . ومن البديهى أن الهبات التى تسفر عنها هذه المباريات ، كانت لا تظل سرًّا مجهولا ، بل كانت على النقيض تجرى فى وضح النهار وتسيطر عليها الرغبة فى إظهار البذخ والأبهة حتى يتمكن الجمهور من الموازنة بين مناقب وحسنات كل من المتبارين الحاضرين. وكان الفوز لمن يجمع الملأ على الشهادة له بأنه أعظم الأسخياء ، رجلاً كان أم قبيلة . وكان ذلك شرفاً يخلد على مر القرون .

وفيما يلى مثل من منافرات الكرم ، سيلحظ القارئ فيه مرة أخرى تضامن القبيلة مع أحد أبنائها ، واشتراك الجميع بمواردهم وأموالهم وقرائحهم

---

(١) التى لا تلد .
(٢) ذات الولد .
(٣) الغريب .
(٤) واد مخصب من أودية اليمن .
(٥) أهضام : جمع هضيم ، وهو المطمئن من الأرض .

لنصرة واحد منهم . على أننا نلحظ فوق ذلك ، أن هذه المباريات التى تبدو لأول وهلة مثاراً للضحك ، كانت على العكس حفلات جليلة النفع ، فلقد كانت تعود بالقوت والعناية مدة أيام طوال على شعب بأسره من المساكين . وهنا — كما هو شأن جميع فضائل الفروسية عند العرب — كان الخير ينبع من التنافس ، التنافس فى إسداء الخير :

حدث بعد أن تشاجر حاتم وبنو لام[1] أن قالوا له : بيننا وبينك سوق الحيرة فنماجدك ونضع الرهن ، ففعلوا ، ووضعوا تسعة أفراس رهناً على يدى رجل من كلب يقال له امرؤالقيس بن عدى . . ووضع حاتم فرسه ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة . وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائى ، فخاف أن يعينهم النعمان بن المنذر ويقويهم بماله وسلطانه للصهر الذى بينهم وبينه ، فجمع إياس رهطه من بنى حية ، وقال : يا بنى حية ، إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم فى مجاد أى مما جدته. فقال رجل من بنى حية : عندى مائة ناقة سوداء ومائة ناقة حمراء أدماء ، وقام آخر فقال : عندى عشرة حصن على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه . وقال حسان بن جبلة الخير : قد علمتم أن أبى قد مات وترك كل كثير فعلى كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا فى سوق الحيرة . ثم قام إياس فقال : على مثل جميع ما أعطيتم كلكم . هذا وحاتم

(١) الأغانى ، جـ ١٦ ، ص ٩٥ وما يليها .

لا يعلم بشيء مما فعلوا . وذهب حاتم إلى مالك بن جبار ابن عم له بالحيرة كان كثير المال فقال : يا ابن عم أعنى على مخايلتى (والمخايلة المنافرة) ثم أنشد :

يا مال إحدى خطوب الدهر قد طرقت
يا مــال ما أنــتم عنهــا بزحزاح
يا مال جارت حياض الموت واردة
من بــين غمــر فخضنــاه وضحضاح

فقال له مالك : ما كنت لأحرم نفسى ولا عيالى وأعطيك مالى ، فانصرف عنه وقال مالك فى ذلك قوله :

إنا بنو عمكم لا أن نباعــدكم ولا نجاوركم .إلا على ناح
وقد بلوتك إذ نلت الثراء فلم ألقاك بالمال إلا غير مرتاح

ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه ، فقالت له امرأته : هذا والله أبو سفانة حاتم قد طلع ، فقال : ما لنا ولحاتم ، اثبتى النظر ، فقالت : ها هو . قال : ويحك هو لا يكلمنى فما جاء به إلى ؟ فنزل حتى سلم عليه فرد سلامه وحياه ثم قال له : ما جاء بك يا حاتم ؟ قال : خاطرت على حسبك وحسبى . قال : فى الرحب والسعة ، هذا مالى (وعدته يومئذ تسعمائة بعير) فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . فقالت امرأته :

يا حاتم أنت تخرجنا من مالنا وتفضح صاحبنا (تعنى زوجها) فقال : أذهبي عنك فوالله ما كان الذى غمك ليردنى عما قبل . وقال حاتم :

ألا أبلغا وهم بن عمرو رسالة ... فإنك أنت المرء بالخير أجود

رأيتك أدنى الناس منا قرابة ... وغيرك منهم كنت أحبو وأقصد

إذا ما أتى يوم يفـــرق بيننا ... بموت فكن يا وهم ذو يتأخر

ثم قال إياس بن قبيصة : احملونى إلى الملك وكان به نقرس فحمل حتى أدخل عليه . فقال : أنعم صباحاً أبيت اللعن . فقال النعمان : وحياك إلهك . فقال إياس : أتمد أختانك بالمال والخيل وجعلت بنى ثعل فى قعر الكنانة ، أظن أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم يشعروا أن بنى حية بالبلد ؟ فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفح الوادى دماً ، فليحضروا مجادهم غداً بمجمع العرب . فعرف النعمان الغضب فى وجهه وكلامه ، فقال له النعمان : يا أحلمنا لا تغضب فإنى سأكفيك . وأرسل النعمان إلى سعد ابن حارثة وإلى أصحابه : انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه فوالله ما أنا بالذى أعطيكم مالى تبذرونه وما أطيق بنى حية . فخرج بنو لام إلى حاتم فقالوا له : اعرض عن هذا المجاد ندع أرش أنف ابن عمنا . قال : لا والله لا أفعل حتى تتركوا أفراسكم ويغلب مجادكم . فتركوا أرش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا : قبحها الله وأبعدها فإنما هى مقارف ، فعمد إليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس ، وسقاهم الخمر وقال حاتم فى ذلك :

أبلغ بنى لام فإن خيولهم عقرى وإن مجادهم لم يمجد
ها إنما مطرت سماؤكم دماً ورفعتَ رأسك مثل رأس الأصْيد

وتقدم لنا جمعية بوكير Beaucaire صورة باهتة لهذه المباريات فى الكرم التى كثرت بين عرب الجاهلية . ويروى لنا ج — ج أمبير ما دار فى « بوكير » فيقول : « رأى القوم هناك عشرة آلاف فارس يتسابقون فى السخاء والتبذير ، فقد أخرج « الكونت دى تولوز » مائة ألف قطعة من الفضة ، وسلمها ل « ريمون داجو » Raymond d'Agout هبة خالصة ، فبادر هذا الأخير إلى توزيعها على فرسانه . وخطر لآخر أن يأمر بحرث حقل من الحقول ، وبذر ثلاثين ألف قطعة من الفضة فيه . ولم يدر ثالث كيف يثبت ازدراءه للمال ، فأمر بإحضار ثلاثين حصاناً فارهاً وأحرقها[1] . . . » وهنا يحق لنا أن نقول مع « لابروبير » : « ليس الجود أن تعطى كثيراً بقدر ما هو أن تضع الإحسان فى موضعه[2] » . ومن الصحيح أن تاريخ العصور الوسطى يتحفنا بأمثلة أخرى فردية لأريحية يقودها الذكاء ، فإن « فرواسار » Froissart — وهو يطنب فى ذكر مكارم « الكونت دى فوا » Comte de Foix التى نال نصيبه منها — يخبرنا بأن هذا الكونت فى عام ١٣٨٧ ، « قد أغدق بمحض إرادته — على

---

(١) منوعات من التاريخ الأدبى والأدب ، ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) راجع كتاب لا برويير : الخلائق (Les Caractères de La Bruyère) و « صوت لابروبير » للدكتور أنور لوقا ، ص ٩٨ (تحقيق) .

الفرسان والتابعين الذين كانوا يمرون ببلدة « أورتيه » ويقابلونه فى قصره ليرووا له الأنباء ــ الكثير ، فلقد منح أحدهم مائة فلوران والثانى مائتين والثالث ثلاثمائة كما أعطى الرابع أربعمائة والأخير خمسمائة حسب رتبهم ، فكان أن أنفق « الكونت دى فوا » على هؤلاء الذين ألموا به لأول مرة ــ كما روى لى القائم على أمواله فى « أورتيه » ــ مبلغ ألف فرنك ، دون أن يدخل فى ذلك ثمن الجياد والسروج التى وهبها إياهم »[١] .

على أن هذه الهبات لا يمكن أن تقارن بأريحية العرب ، فإنها لتبدو بالنسبة إليها بخلاً وتقتيراً ، لا يظهر أصحابه من « سادة الدنيا »[٢] إلا « الشك فى نعمة الخالق »[٣].

فهذا عبد الله بن جعفر يجيب الحسين بن على بن أبى طالب ، وقد لامه على إسرافه فى البذل ، قائلا : « لقد عودنى الله أن يغمرنى بالنعم ، وعودته أن أغدق نعمه على خلقه ، وإنى لأخشى ، إذا أنا هجرت عادتى ، أن يهجر الله عادته » . كما يرد حسان بن سهل على من قال له « لا خير فى الإسراف » رداً أريباً إذ يقول : « لا إسراف فى الخير » .

ولقد كان أسلوبهم فى الإعطاء أروع من عطاياهم أيضاً . كان فيه نبل كبير ، ورقة جمة ، وشىء من التحفظ والتحرج ، وبعبارة موجزة

---

(١) عن « لاكورن » ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) قال عبد الله بن عباس : « الأسخياء سادة الدنيا كما أن الأبرار سادة الآخرة » .

(٣) قال المأمون : « ما البخل إلا دليل الشك فى نعمة الخالق » .

كان فيه حياء عذب . فهذا « يعطى كل ما عنده ويعتذر » ، وذاك

تراه إذا ما جئتـــه متهلـــلا كأنك تعطيه الذى أنت سائله[1]

والحق أنك لا تدرى من منهم الأسعد ، أهو الذى يعطى أم الذى يأخذ ؟ بل من هو المنعم الحقيقى ؟ فدعنى أنبئك أنه ليس ــ كما يدرك الناس ــ هو المعطى ، وإنما هو الذى يرضى أن يتقبل هباتك . وتذوق معى قول ابن عباس يردده الخليفة عبد العزيز بن مروان :

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرنى فى حاجة لم يكن لها سواى ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بما لى همه عن خناقه وزايله الهم الطروق المساور
وكان لـــه فضل على بظنـــه بى الخير إنى للذى ظن شاكر[2]

تلك كانت مميزات سخائهم ، وتلك كانت طريقتهم فى الجود . فكيف كان أساوبهم فى استقبال الضيف ؟ كيف كانوا يزاولون هذا السخاء فى إيواء الغرباء وإطعامهم مجاناً ، وهو ما يعرف بالقرى ؟

لقد كان كرم الضيافة لدى الشعوب القديمة عادة متبعة ، بل واجباً ملزماً . يقول « تاسيت » فى ذكر الجرمان : « إن رب البيت يقدم أشهى الطعام لمن يقصدونه ، كما يتيسر له ، فإذا نضب الزاد عنده ، اقتادهم

---

(١) قول زهير فى هرم بن سنان .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٦٧ .

إلى أقرب بيت يجدون فيه الضيافة »[١] ومن ثم ، كان الضيوف لدى الجرمان موضع الترحاب . . .

ولدى البورجنديين ، نصت إحدى مواد القانون على أن « من يرفض لمغترب على سفر أن يقتات عنده وأن يصطلى ، فإنه يعاقب بغرامة قدرها ثلاثة دراهم . وإذا قصد المغترب بيت بورجندى وطلب الضيافة فدله البورجندى على بيت رومانى ، فعليه أن يدفع ثلاثة دراهم على سبيل الغرامة ومثلها على سبيل التعويض لصاحب البيت الذى دل عليه »[٢] .

ولم يكن لدى العرب ما يشبه ذلك . فلقد كان القرى قاعدة مرعية لديهم ، ولكنه لم يكن إكراماً . لم يكن يفرضه نص من نصوص القانون ، وإنما كان قرى حرًّا ، حفيًّا ، سهلا ، يرجع إلى تقاليد ضاربة فى القدم ، وينسب رأساً إلى إبراهيم جد العرب . ويروى القرآن كيف أضاف إبراهيم من نزلوا عليه ، وإنه لمثل كريم قد احتذاه العرب دائماً ، ويجدر بأرباب البيوت وربّاتها ممن يحرصون على بساطة الترحيب ويسره أن يحتذوه أيضاً . قال تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .

---

(١) تاسيت : أخلاق الجرمان ، الفصل الحادى والعشرون .

(٢) أوجستان تييرى : رسائل فى تاريخ فرنسا ، ص ٨٢ .

فقربه إليهم قال ألا تأكلون . . . »[١] .

ويوجه مفسرو هذا النص أنظارنا إلى أن هؤلاء الضيوف المجهولين لم يكن عليهم أن يطرقوا باب العاهل ، ولا أن يخطروه بمقدمهم أو يستأذنوه ، بل دخلوا أيسر دخول ، لأن الدار كانت مفتوحة ترحب بالوافدين . وهم ينوهون كذلك بخروج إبراهيم خلسة ، إذ لم يرد أن يشعر ضيوفه لحظة بأنه مضى لإعداد ما يلزم لهم ، لئلا يساورهم الحرج . . . وهم يبرزون بهذا الصدد أدب إبراهيم الجم ، وهو الذى بدلا من أن يصدر أوامره إلى خدمه ، تجشم بنفسه عناء تهيئة المائدة . ولقد تخير إبراهيم من بين قطعانه — وتلك ثروته الوحيدة — أفضل وأثمن ما يذبحه . وعند ما رأى ضيوفه لا يقبلون على الطعام الذى عنيت هاجر بإعداده ، قال لهم : « ألا تأكلون ؟ » وكان بوسعه أن يخاطبهم بعبارة دارجة أو بعبارة متكلفة ، ولكنه لم يفعل ، لأنه يظن فى تواضع أن طعامه لا يستحق عبارات الثناء . وهكذا قال لهم العاهل فى بساطة : « ألا تأكلون » ؟ فكان ذلك بلا كلفة على الإطلاق .

وتبع العرب حرفيًّا هذا التقليد النبيل . وأصبح كرم الضيافة الشرقى مضرب الأمثال . وكان هذا الكرم منذ العصور الوسطى محل تبجيل الفرسان المسيحيين[٢] .

وكان كرم الضيافة — على الرغم من شيوعه بين العرب — فضيلة

---

(١) سورة الذاريات .

(٢) راجع جوتييه ص ٨٣ .

محمودة ، تضفى على صاحبها من الثناء بقدر ما يتحلى بها . وهنا ايضا فرض التنافس على العرب سباقاً تجلى فى ضروب من العناية والإنعام والرقة ما كانت تخطر لسواهم على بال . وإذ كانوا جميعاً يكرمون الضيف ، فقد ظنوا فى أول الأمر أن بعضهم سيمتاز على بعض ويتفوق بأبهة الترحيب ، ولكنهم لم يلبثوا حتى لاحظوا أنهم فى حلبة الكرم جميعاً على حد سواء . ولقد كانوا جميعاً فى الواقع خليقين بأن يقولوا ، دون أن يشوب الكذب قولهم :

فنحن كماء المزن ما فى نصابنـــا كهام ولا فينا بعد بخيــل[1]

وكان لكل منهم — أيا كانت قبيلته — أن يتمثل بقول حاتم لغلامه « يسار »[2] :

أوقـــد فإن الليل ليـــل قـــر والريح يا غلام ريح صر
عسى يرى نارك من يمـــر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

بل ولقد كان أشدهم فقراً يعرف كيف يكرم الضيف غاية الإكرام ، أما كانوا يعمدون إلى ذبح الدابة الوحيدة التى يقتنونها لكى يشبعوا ضيوفاً عابرين ؟

وإذ لمس العرب ان بعضهم لن يمتاز على بعض بأبهة الضيافة سعوا إلى أن يتفوق بعضهم على بعض بلطف الاستقبال والحفاوة . ولكنهم هنا أيضاً كانوا على حد سواء ، وكانوا يستطيعون أن يتأسوا بقول حاتم أيضاً :

---

(١) للسموءل . انظر ديوان الحماسة جـ ١ ص ١١٥ .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٣٣

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

وبلغ الأمر فى كل مكان أن استحال التمييز بين المضيف والضيف.

وظلت المسألة بلا حل. فلقد كان كرم الضيافة عامًّا سخيًّا حفيا فى جميع أرجاء بلاد العرب على السواء ، ولم يكن بد مع ذلك من أن يجد المرء سبيلاً إلى أن يفعل أكثر إن لم يفعل خيراً من سواه . ومنذ ذلك الحين ، حاول البعض أن يتفوقوا على البعض بعدد من يستأثرون باستقبالهم والإنفاق عليهم من الضيوف . ومضى القوم يستدعون الضيوف ويحشدونهم. ولما كان يتعذر على المرء بث الدعاية لما يدخر من قرى للنزلاء — إذ كان هذا القرى واحداً بعينه فى كل مكان — فلقد راح يتفنن فى جذب خطا الرحالة نحو داره . وبدأ برفع الأعلام على الخيام ، حتى يستطيع السائر أن يتبين من بعيد « الفندق » الذى ينتظره . غير أن الأعلام لا تكاد تظهر للبصر فى الليالى التى يغيب فيها القمر ، فعمد القوم إلى إيقاد النار على التلال المجاورة . ولم ينسوا المكفوفين ، فأوقدوا لتنبيههم خشباً عطراً . . . بيد أن جميع هذه الإجراءات لم تعتبر كافية مرضية ، فاستعانوا بصديق الإنسان ، وربطوا حول القبيلة فى مواضع متباعدة كلاباً تطعم أشهى الطعام إذا جلبت ضيفاً ، فكانت تنبح . وكان هذا النباح دعاء ، ودليلاً يهدى الحاج والمتنقل . فما كان عليهما إلا أن يصيخا إلى هذه الأصوات ويتبعاها ليضمنا عشاء ممتازاً وحفاوة أعظم . ولقد أمعن حاتم الطائى فى تيسير

السبيل ، فكان يرسل عبيداً لاقاء المسافرين . وكان يعتق العبد إذا أسعده طالعه بإحضار ضيف إلى الدار . وأما عبد المطلب الذى لقب « شيب الحمد » فقد مد أطراف كرمه حتى طيور السماء ، إذ كان يأمر بأن تحمل إليها بقايا مآدبه . . .

وارتفع قدر القرى وإكرام أكبر عدد من الضيوف حتى أصبح مزية الرؤساء . ولما لم يستطع « كليب » ، وهو رئيس قبائل « معد » كلها ، أن يفعل فى هذا المضمار أكثر أو أفضل من أقل رعاياه شأناً ، بدا له أن ينتزع من مواطنيه حق القرى ، وأراد أن يكون وحده ولى النعمة والإغداق ، وأن يحتكر الكرم احتكاراً . ويا له من جنون لقى فيه حتفه ! فإن شر طغيان يضيق به العربى ، ليس طغياناً يحرمه ماله وحياته ، وإنما هو الجور الذى يحرمه مزاولة أقدس حقوقه وأحب فروضه والواجب الذى يجد فيه البركة ، ألا وهو القرى ، وإكرام من يرزق بهم من الضيوف .

على أننا كما نرى فى جنة من جنان الورد ، بعض الورود تفوق أخواتها بحسنها ، ورقة شذاها ، ورونق لونها ، وما تفيض به نفسها الحاوة من سحر وفتنة ، فإننا نرى كذلك فى حقل الجود العربى المزدهر رجالاً استحقوا بين شعب بأسره من الكرماء لقب الكريم ، وقد خلعته عليهم عطاياهم بوفرتها وتنوعها واتصالها ورقيها . ومن أولئك ، كان فى الجاهلية حاتم الطائى وكعب ابن مناة وهرم بن سنان وقيس بن سعد ، وفى الإسلام عبيد الله بن العباس ، وسعد بن العاص ، وعبد الله بن جعفر ، ومعن بن زائدة ، والفضل البرمكى

وهيهات أن تتم القائمة ، فإن الكرم العربى كوردة « أريحا » تحيا دائماً حياة متجددة رغم ما يبدو من أنها قد جفت .

وفيما يلى — بدلاً من إيراد طرائف ولمحات تصور الأريحية (وكان ينبغى ذكرها جميعاً لا الاقتصار على مختارات منها)[1] — أبيات « حاتم » التى وجهها إلى خطيبته « ماوية » والتى تبين كيف كان هذا الكريم يفهم معنى الغنى وفيم كان يستخدمه :

أماوى قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنا عن طلابكم العذر

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوى إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنهه الزجر

أماوى إنى لا أقول لسائل إذا جاء يوما حل فى مالى النزر

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلت به صفر

إذا أنا ولانى الذين يلوموننى بمظلمة لج جوانبها غبر

وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر

أماوى إن المال مال بذلته فأوله شكر وآخره ذكر

---

(١) راجع من أمثلة الكرم فى كوسان دى برسفال ج ٢ ص ٥٧٣ و ٦٠٠ وما يليها ، قصة « زيد الكيل » ، وفى بيرون : النساء العربيات ص ١١٤ وما يليها ، وفى المسعودى ٥ و ٦ و ٧ و ٨ ، وفى العقد الفريد ، وفى الأغانى ، الخ .

وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر
فإنى وجدى رب واحــد أمــه أجرت فلا قتل عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهوداً وقد أودى بإخــوته الدهر
غنينــا زماناً بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأوا على ذى قرابــة غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر[1]

ولن نجد خاتمة لهذه الدراسة عن كرم اليد خيراً من قول النبى[2] « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول إحداهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

٢ ـ كرم النفس

« يرجع تسامح العرب إلى أصول بعيدة ، لأن شعباً يحرص على الحرية هذا الحرص لا يسيغ الجور فى شئون الإيمان[3] » . وما أكثر الشواهد التى تدل على قلة اكتراث العرب بالمسائل الدينية . فلقد كانوا يكيلون لما يعبدون من الأصنام عبارات التهكم البارع ، بل اللاذع ، وكانوا يتلقون بتشكك لا يخلو من المكر ما يطلع به الكهان عليهم من عقائد جديدة ، وها هوذا أحدهم يرجم صنما لأنه رأى فى اللحظة التى

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٣٥ .
(٢) صحيح البخارى ، جـ ٤ ص ١٤٢ (طبعة كتاب الشعب) .
(٣) دوزى .

تأهب فيها لنحر شاة لذلك الصنم أن قطيعه قد تشتت ، وآخر يشتم صنما ثانيًا عندما حج إليه يسأله هل ينبغى أن يثأر لمقتل أبيه فأجابه بالنفى .

ولقد اعتاد ملك اليمن ابن عبد كلال (من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٠) أن يقول : « إننى أملك على الأبدان لا على العقول ، فليطع رعاياى حكمى ، وأما عقائدهم فإن الإله الخالق هو الذى يحكمها[1] » .

وهل احتفظ العرب بهذه الحرية التى تدل عل كرم النفس بعد أن انضووا تحت لواء الإسلام ؟ لقد سبق لنا أن أوضحنا كيف كان المسلمون يسلكون دائما مسلك التسامح حيال أعدائهم الذين كانوا يعتبرونهم « كفارا » ، فهل كانت تلك هى سيرتهم أيضا مع رعاياهم غير المسلمين ؟

إن التاريخ يظهرنا على خلفاء كان يحوطهم الأطباء والفلكيون والشعراء والعلماء من النصارى واليهود ، وكانوا يغدقون عليهم أعظم آيات التكريم ، ويمعنون فى ذلك إلى حد تفضيلهم على وزرائهم وأصفيائهم . وما أكثر مثل هذه الطرائف التى تشهد بنفحات التبجيل والتقدير التى كان يحظى بها أولئك لدى « أمير المؤمنين » .

فعندما أحس طبيب المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥) بدنو أجله ، استأذن الخليفة فى أن يعود إلى بلاده حتى يدفن بين أهله . فحاوره قائلا :

— أسلم حتى نلتقى فى الفردوس

فرد المريض قائلا :

---

(١) كوسان دى برسفال ج ١ ص ١١١ .

– إنى أوثر أن الحق بأجدادى ، سواء أكانوا فى السماء أم فى الجحيم .

واستظرف المنصور رده فضحك ، وأنعم على الطبيب بعشرة آلاف دينار من الذهب ، وأمر له بحراس يرافقونه حتى مسقط رأسه[١] .

وعندما حج هرون الرشيد (٨٧٦ – ٨٠٩) دعا فى صلاته جهرا لطبيبه جبريل بن بختيشوع ، فقال له بعض من لاحظ ذلك :

– يا أمير المؤمنين ، إنك تدعو فى صلاتك لنصرانى .

فأجاب أمير المؤمنين :

– أجل ، فبفضله تمت لى الصحة ، وعلى صحتى يتوقف عز المسلمين ، فخير لكم جميعًا أن يعمر طبيبى ويسعد[٢] .

ولقد ذهب المعتصم (٨٣٣ – ٧٤٧) إلى أبعد من ذلك المدى ، إذ حدث عندما توفى طبيبه وصديقه – وقد اعتاد أن يدعوه « أبى » – أن أمر بتشييع جنازته « على طريقة النصارى بالشموع والبخور » ، وتبع المشهد بعينيه من إحدى نوافذ قصره وهو يبكى كالطفل أمام الشعب المحتشد[٣] .

---

(١) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، ص ١٨ .

(٢) طبقات الأطباء جـ ١ ص ١٣٠ ، وزيدان . تاريخ التقدم الإسلامى جـ ٣ ص ١٦٣ .

(٣) طبقات الأطباء ، ص ١٦٥ ، وزيدان جـ ٣ ص ١٦٥ .

وتتناول هذه النوادر الأطباء خاصة ، غير أننا نستطيع أن نورد هنا ما لا يقل طرافة عن العلماء والشعراء والمترجمين . . . وحسبنا أن نقول إن أكثر الخلفاء — خلفاء بغداد وقرطبة والقاهرة على السواء — قد حموا العلماء وأهل دينهم مهما كانت عقيدتهم . ومن ناحية أخرى كانت مدارس العرب مفتوحة للجميع من فقراء وأغنياء ، من نصارى ويهود ومسلمين . وفى القرن العاشر رحل إلى طليطلة الراهب جربير (Gerbert) ، وهناك درس الرياضة والتوقيت والسحر على أيدى أساتذة عرب مدة ثلاث سنين ، ويقول « رينو » إن تقدمه فى هذه المعارف قد أوهم العامة بعد عودته أنه ساحر ، ثم أصبح « بابا » باسم سيلفستر الثانى[1] . وكذلك يذكر أحمد المقرى — الذى أفرد فصلا لمن برز من اليهود والنصارى فى الأدب العربى — عددا كبيرا من الأدباء الإسبانيين اشتهروا بروعة شعرهم ونثرهم[2] .

وهل بنا حاجة إلى أن نقول إن هذا التسامح ، بل حسن الرعاية ، كان يشمل الفلاسفة والملحدين من بين المسلمين أنفسهم ؟ فإن المأمون — وهو الذى فرض على الإمبراطور اليونانى ميخائيل الثانى أن يرسل إليه بدلا من الجزية عددا من المخطوطات القديمة — قد أمر بسجن الفقهاء الذين

---

(١) انظر فيلمان (Villemain) : منهج الأدب الفرنسى ج ١ ص ١١٩ . ورينو (Reinaud) غزوات الأندلسيين ص ٢٩٢ ، وسيسموندى ج ١ ص ٩٧ .

(٢) انظر فورييل ج ١ ، ص ٤٢٠ وما يليها .

حاربوا فلاسفة عصرهم باسم الدين[١] . وبعد أن حاصر صلاح بن مردس بلدة المعرة ، ارتضى أن يرفع عنها الحصار وأن يعفو عن أهلها لكى لا يسىء إلى أبى العلاء المعرى — فولتير العرب فى القرن العاشر[٢] .

٣ — كرم القلب

كان الحلم من أهم وأعظم الصفات الست التى كان ينبغى أن يتحلى بها كل من يطمح إلى أن يكون سيد قبيلته[٣] . وفى ذلك ما يدل على مكانة هذه الفضيلة بين العرب ، فضيلة الصفح والمغفرة ، وهى التى تتمثل فيها روح المسيحية بوجه خاص . والحق أنهم لم يمارسوها كما أتى بها الإنجيل، ولم يبلغ بهم الأمر أن يقدموا خدهم الأيمن لمن لطمهم على خدهم الأيسر، فلقد كان مثل هذا السلوك خليقاً بأن يوصم فى عرفهم بالضعف ، وما كان العرب بالذين يرتضون أن ينعتوا بالضعف ، وإنما كانوا يتعقبون المذنب ولا يعفون عنه حتى يتمكنوا منه . وهكذا كان الحلم لديهم تاج القوة ، فليس من الحلم أن يعفو عن مذنب عاجز « عن تأديبه »[٤] . إن

---

(١) راجع زيدان ج ٣ .

(٢) على بن يوسف القفطى ، عن محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ١٠٦ .

(٣) راجع فيما سبق باب « تعظيم السلف » .

(٤) قال معاوية « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة » .

أولئك الذين كانوا يطبقون شريعة القصاص دون هوادة ولا رحمة فى أكثر الأحيان ، ولا يكتفون عن عين بعين وعن سن بسن بل يضاعفون الثأر والبطش[1] كانوا يعرفون ، عندما يتغلبون على عدوهم ، كيف يتغلبون على أنفسهم ويصفحون . لقد كانوا يحرصون على أن يصفحوا حرصهم على أن يثأروا . وكلما ثقل الذنب ، رق حلمهم وكرم .

وبلغ من انتشار هذه العاطفة النبيلة بينهم أن صيغت قبل ظهور الإسلام فى أمثالهم . فلقد كانوا يقولون : « لا عظمة مع الحقد » وكذلك « إذا غلبت فكن عفواً » وكانوا يؤكدون أن « الكريم من يغفر الذنوب ويستر العيوب » .

ونمت مع الإسلام هذه الأخلاق الحميدة ، فلقد استمد المسلمون من رغبتهم فى إرضاء الله حافزاً جديداً إلى السمو .

وهذا على بن أبى طالب يوصى وصية جديرة بأن تصدر عن بطل من أبطال المسيحية فى عهدها الأول « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه » .

وسأل أحدهم الوزير الفضل بن يحيى « ما الفروسية ؟ » فأجاب « العفو عن الذنوب » .

وعندما أمر هارون الرشيد بإعدام عميد الطوسى ، طفق الشقى ينتحب فسأله الخليفة :

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم : ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ـ أتبكى خوفا ؟

فأجابه :

ـ كلا فسوف نموت جميعا ، وإنما حزنًا للخروج من الدنيا وقد أغضبت مولاى .

فابتسم الخليفة وأمر بإطلاق سراحه قائلا :

ـ ما أيسر أن يغتر الكريم بمكارمه !

وما أكثر ما كان يحاو له أن يغتر على هذا النحو[1] !

وإذا كنا لا نستطيع أن نورد كل ما قيل ، فإننا نذكر من جوامع الكلم هذه العبارة التى تنسب إلى معاوية بن أبى سفيان ، مؤسس الأسرة الأموية : « لا أطيق أن يكون على الأرض جهل يعيي به جلدى ، ولا ذنب لا يحتويه حلمى ، ولا حاجة لا يسدها جودى » .

ونقتصر هنا على إيراد واقعتين للتدليل على هذه المبادئ النبيلة . ولقد انتخبناهما من بين آلاف النوادر التى تروى بهذا الصدد ، لأنهما ، إلى جانب إظهار الكرم ، تظهر الأولى منهما إرهاف ضمير رجل كعمر ابن الخطاب اعتاد القوم أن يصوروا شدته وصرامته ، وتظهر الثانية كيف

---

(١) يورد « فلوريان » (Florian) عن « هربلو » (Herbelot) (المكتبة الشرقية) و « مارينى » (Marigny) (تاريخ العرب) قول المأمون :

« آه لو عرف الناس كم يسرنى أن أغفر لأقبل جميع من أذنبوا إلى يعترفون بذنوبهم » . راجع المستطرف ص ٢٥٧ .

كان الندماء يلقون الدروس على الملوك :

لقى عمر بن الخطاب رجلا مخمورًا فأمر بأن يزج به فى السجن ، فسبه المخمور سبًّا فاحشا . فقال عمر : « إنى لأعفو عنك » ، فعجب أصحاب عمر من أن يطلق سراح رجل يقذع فى سبه ، غير أنه أجابهم : « لقد أفلح فى أن يغضبنى ، وأخشى إذا عاقبته أن أكون متشفياً لا عادلا ، وأن أكون إنما أثأر لنفسى ، وليس لى أن أثأر من مسلم » .

واحتد الخليفة عبد الملك بن مروان يومًا على لئيم هزئ به فقال : « لو مكننى الله منه لفعلت به كذا وكذا » . ولما انتهى الأمر بإلقاء القبض عليه قال للخليفة أحد جلسائه ، « يا أمير المؤمنين ، لقد حقق الله رغبتك ، وعليك الآن أن تفعل ما يرضى الله » . وأجاب الخليفة ، وهو ما زال تحت وطأة غضبه : « عفوت عنه ، وليصرف لهذا الرجل من الذهب ما يهدئ روعه . » ولا تذكر القصة كم لزم من الدنانير لإدخال الطمأنينة على قلب ذلك الرجل المسكين ، ولكننا نظن أن فرائصه ظلت ترتعد حتى ملأ الذهب جيوبه . . .

على أن هناك لونًا آخر من الحلم يتجلى فى حسن الرعاية التى يوليها المرء خصمه ، وتلك هى الإنسانية فى معاملة الأسير ، وهذا النبل إزاء العدو ، وذلك الأدب الجم الذى يتحلى به رجال الحرب ، وأسلوبهم الشهم فى تحية الشجاعة حيث خانها الحظ ، وفى الاعتذار الودى عن الفوز على ند ما كان أحراه مثلهم بالنصر لو لم يجانبه التوفيق فى المعركة . .

لقد حصر المنصور (٩٧٦ — ١٠١٠) يومًا فى شعب فرقة كثيرة النفر من الأسبانيين ، فأصدر إليهم الأمر بإلقاء سلاحهم ، ولكنه إذ رآهم مصممين على الهلاك دون التسليم ، فتح صفوف جنوده وتركهم يلحقون بالجيش الأسبانى ، مؤثرا أن يرسل للعدو نجدة على أن يأمر بتذبيح كل هؤلاء الرجال الباسلين . . . ولقد أنصفه الأسبانيون ، فكتب موسدن (Moden) يقول : « لقد كان يدمر بالحديد والنار المدن التى كانت تقاوم جيوشه ولكنه لم يأذن قط بأن يلحق أهون شر بالمدن التى كانت تستسلم طائعة[١] » .

وفى عام ١١٩١ ، ترك « فيليب أوجوست » جيش الصليبيين وحضر إلى صور يستعد لعودته. وهناك أرسل إليه صلاح الدين وفدًا رسميًّا ليحييه ويقدم له من الهدايا ما يجدر بملك عظيم ، ولقد دأب هذا السلطان على أن يعطى ولو أعداءه ما يدل على بذخه[٢] .

وأدخل مرض « ريشارد قلب الأسد » الحزن على قلب صلاح الدين وأخيه ، اللذين ظلا يظهران الود نحو خصم صريح شجاع . وكان « ريشارد » فى سكرات الحمى يطلب فاكهة ، فجعل صلاح الدين يرسل إليه الكمثرى والخوخ والثلج الطازج الذى يأتى به رجاله من الجبل كل يوم[٣] .

---

(١) ل . فياردو : مقال فى تاريخ العرب والأندلسيين ، سنة ١٨٣٣ ج ١ ، ص ١١٢ .

(٢) ماران : تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٣) ستانلى لين بول ص ٣٥٥ .

ويحكى أنه عندما أسر أهل دمياط « جان دى بريين (Brienne Jean dé) ، واقتادوه لدى الملك الكامل ، طفق يبكى . ونظر السلطان إليه وسأله عن سبب بكائه فأجابه : « من حتى يا مولاى أن أبكى وقد رأيت الشعب الذى عهد الله به إلىّ يهلك بين الأمواه و يموت جوعا » . فرق السلطان له ، و بكى لبكائه ، وأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء ، فعل ذلك أربعة أيام متتالية[1] .

ويروى أيضاً أن الأمير ابن رائق ، عقب التحامه بجيوش الأخشيد فى موقعة لاجون ، كشف فى ميدان القتال بين جثث القتلى جثة أخ للأخشيد . و يقال إنه اغتم لذلك ، حتى إنه أرسل فى الحال ولده لخصمه ، فدية وتعويضا . وتأثر الأخشيد ، ولم يرد أن يتخلف فى مجال الكرم ، فخلع على الفتى خلعة نفيسة ، ورده إلى أبيه معززا وتم — كما يتم فى الروايات طبعا — اقتران الفتى بابنة عدوه ، وهكذا أقبلت أواصر الود والمصاهرة تدعم معاهدة التحالف التى أوحت بها إلى القائدين الشهيرين عواطف الفروسية[2] .

ولا يظنن القارئ إذ يلاحظ أننا استشهدنا هنا وفيما سبق بأمثلة مستقاة من العصر الإسلامى ، أن عرب الجاهلية لم يعرفوا كرم القلب . فلقد

---

(١) جوستاف شلومبرجيه (G. Schlumberger) : قصص من بيزنطة والحروب الصليبية .

(٢) ستانلى لين بول : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، ص ٨٣ .

كان كرم القلب – على العكس – سجية شائعة بينهم . ولما كانوا فى حرب دائمة ، يضرب بعضهم بعضا ، وينتصرون تارة وينهزمون أخرى ، فقد كان يحدث أن يغيث المكروب منهم نصيره وفى يذكر له يداً فى محنة سلفت . وها هى ذى فى ختام حديثنا لوحة تصور خلق القوم ، تمثل الكرم ، وتبرز فى الوقت ذاته الشهامة الفرسانية ، حوالى القرن السادس :

خرج دريد بن الصمة فى فوارس بنى جشم ، حتى إذا كانوا بواد لبنى كنانة يقال له الأخرم ، وهو يريد الغارة على بنى كنانة ، وقع له رجل من ناحية الوادى معه ظعينة ، فلما نظر إليه ، قال لفارس من أصحابه : صح به أن خل عن الظعينة وانج بنفسك ، وهو لا يعرفه . فانتهى إليه الرجل وألح عليه ، فلما أبى ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة :

سيرى على رسلك سير الآمن سير رداح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شأنى أبلى بلائى واخبرى وعاينى

ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه ، فأعطاه الظعينة . فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ، فرآه صريعا . فصاح به فتصامم عنه ، فظن أنه لم يسمع فغشيه ، فألقى الزمام عليها ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول :

خل سبيل الحرة المنيعة . إنك لاق دونها ربيعة
فى كفه خطية منيعة . أولا فخذها طعنة سريعة
فالطعن منى فى الوغى شريعة

فلما أبطأ على دريد ، بعث فارساً آخر لينظر ما صنعا ، فانتهى إليهما فرآهما صريعين ، ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له الفارس خل عن الظعينة ، فقال لها ربيعة : اقصدى قصد البيوت ، ثم أقبل عليه فقال :

ماذا تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عاجل رمح يابس

ثم طعنه فصرعه فانكسر رمحه ، فارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق بهم فوجد ربيعة لا رمح معه وقد دنا من الحى ، ووجد القوم قد قتلوا . فقال له دريد : أيها الفارس إن مثلك لا يقتل ، وإن الخيل ثائرة بأصحابها ، ولا أرى معك رمحا ، وأراك حديث السن ، فدونك هذا الرمح ، فإنى راجع إلى أصحابى فمثبط عنك . فأتى دريد أصحابه فقال : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم ، وانتزع رمحى ولا لكم فيه . فانصرف القوم وقال دريد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل[1]

---

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ١٢٩ وما يليها .

حماية الضعيف

حماية الضعيف هى شرع الفروسية الأسمى ، وعلة وجودها ، بل إنها خلاصة الفروسية بأكملها . ففى هذه الوصية الثامنة والأخيرة — « واجب الفارس أن يعين النساء والأرامل والأيتام ، والرجال ذوى الضائقة والمغلوبين على أمرهم »[1] إيجاز يشمل جميع مواد قانون الفروسية . إنها وصية تنطوى وحدها على فضائل الفرسان كلها ، ذلك أنا قد نستطيع تمثل رجل باسل خالى القلب من الكرم ، أو آخر سخى مسلوب الشجاعة ، ولكنا لن نستطيع تخيل حام للضعيف تنقصه صفة من صفات الفارس الجوهرية . إن معنى حماية الضعيف ضد القوى ، ومعنى الانتصاف للمظلوم من الظالم ، أن يشفق المرء على المنكوب ، وأن يعطف على كل ذى كربة ، وأن يجعل ذراعه فى خدمة الحق المهضوم ، وأن يتصدى متطوعاً لنصرة الخير على الشر الجائر . أفلا يصدر المرء فى ذلك عن أكرم الحوافز ، وعن روح البذل والتضحية ؟ ما أيسر أن يستسلم المرء للحياة يحياها مغمضاً عينيه مغلقاً أذنيه لكيلا يرى أو يسمع شيئا مما ينالنا رأساً ولا يعود علينا بغير التكدير والتنغيص . ما أبسط أن يصنع المرء ذلك ويلتزم حياداً دقيقاً ما دام القاتل سواه . ولكن نفس الفارس من معدن آخر فليس

(١) لاكورن دى سانت باليه : الفروسية القديمة ج ١ ص ١٢٩ .

شيء مما يمس الإنسانية بالغريب عنها . بل إنها لتتضامن وإياها وتختلط بها وتتحد . إنها تثور على كل جور أينما اقترف ، وتشعر بالمهانة إذا لحق بالحرية أذى ، فتحتدم غضبا وتهب دون روية أو حساب لخطر ، هبة جندى العدل والحق ، وتنبرى للجائر تدفعه وتتحداه . . .

لقد استخدم فرسان البيداء قوتهم وشجاعتهم أنبل استخدام ، فجعلاهما رهن إشارة البائسين ، بنفس السخاء الحفى الفياض الذى كانوا به يغدقون أموالهم . لا يبتغون بذلك جزاء ولا يترددون ، بل كانوا يقفون عزيمتهم كلها على الانتصاف لمن لاذ بهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا (١)

وكانت للحماية بينهم شرائع صارمة يتبعونها كشرائع الضيافة . فلم يكن يجوز لامرئ أن يرفض حماية ضعيف أو مظلوم استنجد به ، كما لم يكن يجوز له أن يرفض إيواء مرتحل ألم بداره . وكما كان القوم لا يميزون بين الضيف والمضيف ، كذلك كانوا لا يميزون بين الجار والجار ، بين الحامى والمحمى . فلقد كانا يحملان نفس الاسم ويسعيان إلى نفس الغاية ، يحتضن الجار الحامى قضية الجار المحمى حتى يجعلها قضيته . وكان العرب فوق ذلك يقولون إن الحماية وهمية ما لم تحقق غرضها المقصود ، ولا يبالون الهلاك فى سبيل ذلك الغرض (٢) . وهكذا كان الرجل الضعيف إذا

---

(١) ديوان الحماسة جـ ١ ، ص ١٦ .

(٢) كتاب نقائض جرير والأخطل ، مخطوطة سنة ٥٠٥ هـ . ، بمكتبة زكى باشا بالقاهرة .

احتمى برجل قوى ، ضمن أن يكون فى مأمن حتى موت حاميه على الأقل ، فلقد كان أبناء هذا الأخير — فى أغلب الأحيان — وعائلته بل قبيلته بأسرها — إذا استدعى الأمر — تحل محله وتواصل الأخذ بالثأر إلى أن يرضى المستجير . ولقد كان المجير من ناحية أخرى — لما ينطوى عليه إقدامه من مروءة وتعرض للخطر — فى منزلة عالية مرموقة . وكان لقب المجير شرفاً ، وتحيةً لقدر المقاتلين وولاءهم وكرم أنفسهم ، ولذلك كانوا يتنازعون هذا اللقب . فعندما ترك الشاعر الحطيئة حاميه ، « الزبرقان » وأراد أن يلجأ إلى عربى آخر يدعى « بغيض » اتجه « الزبرقان » إلى الخليفة عمر مطالباً ببقاء الشاعر لديه ، فقرر عمر أن يوضع « الحطيئة » فى أرض خلاء وأن يخير بين مجيريه[1] . وهكذا يسهل فهم ما ذهب إليه العرب من التشرف بكثرة من يلوذون بحماهم . لقد كانوا يرحبون بكل قادم ، دون أن يهتموا بمعرفة اسمه أو أصله ، أو باستطلاع علة شكواه أو موضوع مطالبه . كانوا يتبنونه ، يتولون أمره كله ويعتبرونه فرداً من أفراد العائلة تجب له المحبة والحماية وجوباً طبيعياً . ولم يكن بد من أن يؤدى هذا الغوث المتعجل الكريم إلى كثير من الإفراط . وكم من مرة رأى القوم رجالاً ذوى شمم وشجاعة يسترون بسواعدهم مذنباً ، ويؤازرونه فى دعواه ضد عائلات بل وقبائل بأكملها . إنهم يفون بعهدهم إلى حد الحطيئة ،

---

(١) كاترمير : « مذكرات فى الملاجىء عند العرب » ضمن « أمشاج من التاريخ وفقه اللغات الشرقية » ص ١٩٠ .

ويحمون الجار بريئاً كان أم آثماً ، ويناصرونه ولو عاداه الجميع ، ما داموا لم يشرطوا حمايتهم بشرط ، ولم يتحروا من قبل عن الحافز الذى دفعه إليهم . ولقد كانوا يرون من العار على الفارس الشهم أن يبدأ بالتحرى عن قضية قبل أن يتولى الدفاع عنها ، وأن يظهر بمظهر المساوم أو بمظهر من يمطل حمايته . لقد كان ذلك فى نظرهم هو الدليل على قلب هاوع متردد ، وثمة قاعدة لا تجرؤ على أن تلتزم قبل أن تصف الأرقام وتتبين أن العملية مربحة لا تنذر بأى خطر . ولعل « بونيفاس مركيز مونفيرا » قد لبى هذه العواطف ذاتها حينما أقحم نفسه فى خطر محقق ، لكى يخلص فتاة من ربقة عم يظلمها . وكذلك زج بنفسه سيد آخر — فيما يقول « ريمبودى فاكييراس » — لمناصرة « بيير دى مانزاك » الذى اختطف السيدة « دى تيبرسى » ، ومضى زوجها يطالب بها ويطاردها[1] .

كانت القاعدة إذن — لدى العرب على الأقل[2] — هى الترحيب بالمستجير وحمايته حماية عمياء ضد الجميع . ولقد أدى ذلك إلى ضروب من الإفراط — كما قلنا — ولكن القوم حاولوا أن يستدركوها . فلم يكن

---

(١) فوريبل : تاريخ الشعر البروفنسى ج ١ ص ٤٨٣ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٨٧ وما يليها : « كان الفارس ملزماً بأن يستخدم بأسه استخداماً كريماً . . . ويود الباحث أن يتأكد من مقدار تدخل الفروسية فى العلاقات الاجتماعية والسياسية إبان العصر الوسيط بناء على وقائع إيجابية تعينه فى الوقت ذاته على تحديد طبيعة هذا التأثير ودرجته . ولكن التاريخ لم يحفظ مثل هذه الوقائع ، وإنما حفظت الأشعار شيئاً منها ، ومعظمها يتعلق بالمعاملات البيتية وينصب على السلطة الزوجية أو الأبوية .

من واجب الرجل القوى الذى ينشد ثأراً أن يعنى بحماية عدوه أو عدو أهله من شره هو . وإلا لما كان أيسر الفرار من القصاص إذ ذاك ، إذ لا يتكلف العدو إلا أن يلتمس حماية عدوه ، وأن يقيم لديه حتى يبيت آمنا مطمئنا !

ولذلك اعتاد المرء — للإفلات من هذا الشرك — أن يعلن للمستجير : « أجرتك ما لم تكن فلانا » (أى العدو الذى أتعقبه) . ولقد حدث عندما طلب الخليفة هشام بن عبد الملك رأس الشاعر « الكيمت » ، أن ضاقت السبل فى وجه الشاعر ، وانتهى به الأمر إلى أن يلوذ بقبر ابن هشام ، فلما نظر الخليفة من إحدى نوافذ قصره ولمح رجلا جالساً بالقرب من قبر ولده قال : « إن كان مستجيراً بى فليجر ، ما لم يكن الكميت » . . . ومع ذلك فقد عفا عنه[1] .

وأدت الخبرة بالقوم إلى أن يصححوا شيئاً فشيئا ما كان فى حماية الأقدمين من شطط . لقد كانت حماية عامة ، فأصبحت أشد حذرا ، وأضيق حدودا ، ولوناً من المجاملة الشكلية . وغدوا يحمون المستجير من طائلة أشخاص معينين يذكرونهم[2] ، أو يحمونه من طائلة الجميع باستثناء أشخاص معينين تربطهم بهم أواصر النسب أو القربى أو الوفاء

---

(١) الأغانى الصغير جـ ١ ص ١١٦ — ١١٩ .

(٢) انظر ، فيما سبق ، فصل « الوفاء بالعهد » : قصة هانىء الذى أجار النعمان ضد ملك الفرس .

(عندما فر بشر بن أبى حازم من غضب قيس بن خارثة — وهو الجواد الكريم — لم يستطع أن يجد ملاذًا فى أى مكان ، فلقد كان يقال له أينما ذهب : « إننا نحميك من الجميع ما عدا قيس »)[1] .

ومما لا يحتاج إلى بيان أن الحماية كلما امتدت واتسعت حدودها كانت أكبر قدرا ، يسعى إليها القوم ويتغنى بمدحها الشعراء . ومن هنا كانت المباريات فى بذل الحماية ، على نمط المباريات فى السخاء وفى الحلم ، مما سبق أن تحدثنا عنه : أقبل الشاعر « الأعشى » يوما على « علقمة بن علاثة » سائلا أن يكون فى حماه ، فقبل أن يحميه من الإنس والجن ، وطلب الأعشى أن يحميه من الموت أيضا ، فرفض ، وحينئذ قصد الأعشى عامر بن الطفيل ، فوعد بأن يحميه ولو من الموت ، فسأله الأعشى :

— وكيف أنت فاعل ؟

— إذا أتاك الموت وأنت فى حماى دفعت لأهلك ديتك .

وأعجب هذا الجواب الأعشى ، فأنشد يمدح عامرًا ويهجو علقمة .

وذهب « أبو دواد » إلى أبعد من هذا المدى ، فلقد جعل فى حماه كعب بن مناه ، فكان إذا توفى له ولد دفع عنه ديته ، وإذا فقد « كعب » ناقة أو شاة عوضه عنها بمثلها ، حتى جرى على الألسنة هذا التعبير القائل « فى حمى أبى دواد[2] » .

---

(١) بلوغ الأرب ، ص ٨٤ .

(٢) كاترمير : « مقالة فى الملاجىء عند العرب » ص ٢٠٥ .

ولما كان العرب لا يستطيع أن يمتاز بعضهم على بعض بسعة الحماية أو بعدد من يتولون حمايتهم — وكل منهم يرغب مع ذلك فى أن يتفوق على صاحبه — فقد بلغ بهم الأمر أن بسطوا حمايتهم على الحيوان . وذات يوم حمل أحدهم رمحه ليذود عن قطيع من الجراد المطارد ، لأنه كان يحسب أن الجراد إذا حط لديه فقد فعل مستجيراً به من مطارديه ، وكان من واجبه إذن أن يلبى هذا الدعاء وأن يحمى تلك الحشرات الوثابة .

وعندما لمح « كليب وائل » حمامة تبنى عشها على أرض له ، قال يخاطبها — ولعله أراد أن يشكرها على ما أولته من ثقة : « أيتها الحمامة ، بيضى واسجعى ولا تخافى . » وأعلن هنالك أنه قد جعل فى حماه جميع ما يؤم تلك المنطقة من الماشية ، بل ومن الكواسر أيضا .

ثم مضى فى نفس السبيل آخرون ، فأصبح هنالك مجيرو الطير ، ومجيرو الغزال ، ومجيرو الذئاب ، ومطعمو الوحش إلخ . . . وأدت هذه العادات الغريبة الكريمة إلى نشوء تقليد يحض فى بعض الأقطار على احترام طيور معينة ولا سيما الحمائم : فلقد كانت حمائم مكة منذ أقدم العصور تحظى بالمناعة التى أصبحت تتمتع بها حمائم ميدان « سان مارك » الأليفة[1] . وفى المسجد الذى أقيم بتبريز على ضريح غازان « كان من الفرض » أن تطعم جميع الطيور قمحا وذرة بيضاء طوال شهور الشتاء

---

(١) من المعروف أن حمائم « البندقية » كانت تقوتها الجمهورية تذكاراً لما أدته من خدمة لمدينة البندقية عند استيلائها على « كاندى » بقيادة الدوج « داندولو » .

الستة ، وكان من المحرم تحريمًا باتًّا أن يقتل واحد منها[1] » .

لقد حاولنا أن نحدد طبيعة الحماية عند العرب ومداها ، وبقى لنا أن نواجه سؤالين : كيف كان المستجير ينال الحماية ؟ وكيف كانت تنتهى الحماية ؟

كانت الحماية تسأل وتمنح بطرق مختلفة ، أبسطها — ولعلها أقدمها — أن يقصد المرء مقاتلا ويستجير به فى صوت مرتفع ، فيمتطى المقاتل على الفور جواده ، ويعلن أن هذا المجهول قد بات فى حماه . وإن لم يجد المرء مقاتلا ياوذ به — إذ لا يتاح دائما للطريد أن يبلغ مقاتلا مسلحا — كان من الممكن أن ياوذ بصبى . وكان قبول الصبى حمايته ملزمًا لأبيه أو لرئيس عائلته إذا كان يتيما . وفى كتاب « الأغانى » هذه القصة ، التى رأينا أن نسوقها للقارئ لأنها تتناول مشكلة الحماية التى يوليها المرء عدو قبيلته :

هرب الحارث بن ظالم ، فتوجه نحو اليمامة ، فلقى غلمة يلعبون ، فنظر إلى غلام منهم أخلقهم للخير عنده ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا بجير بن أبجر العجلى ، وله ذؤابة يومئذ ، وأمه امرأة قتادة بن مسلمة الحنفى . فأتاه وأخذ بحقويه والتزمه وقال : أنا لك جار . فأتى الغلام أباه فأخبره ، وأجاره وقال : ائت عمك قتادة بن مسلمة الحنفى فأخبره فأتى قتادة فأخبره فأجاره .

---

(١) كاترمير : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٢٤ .

وأقبل بنو قيس يريدونه ، فقال قتادة :

– لو أخذتموه قبل دخوله الحصن لأسلمته إليكم ، فأما إذ تحرم بى فلا سبيل إليه .

فقالوا :

– أسيرنا اشتريناه بأموالنا ، وما هو لك بجار ولا تعرفه ، وإنما أتاك هاربا من أيدينا ، ونحن قومك وجيرتك .

– أما أن أسلمه أبدا فلا يكون ذلك . ولكن اختاروا منى إن شئتم : فانظروا ما اشتريتموه به فخذوه منى ، وإن شئتم أعطيته سلاحًا كاملا وحملته على فرس ، ودعوه حتى يقطع الوادى بينى وبينه ، ثم دونكموه .

فقالوا : رضينا . فقال للحارث . فقال : نعم . فألبسه سلاحا كاملا وحمله على فرسه ، وقال له :

– إن أفلتهم فرد إلىّ الفرس ، والسلاح لك .

فخرج وتركوه حتى جاز الوادى . ثم اتبعوه ليأخذوه . فلم يزل يقاتلهم ويطاردهم حتى ورد بلاد بنى قشير ، وهو قريب من اليمامة أيضا . فلما صار إلى بلاد قشير يئسوا منه ، فرجعوا عنه . وعرفه بنو قشير ، فانطووا عليه ، وأكرموه . ورد إلى قتادة بن مسلمة فرسه ، وأرسل إليه بمائة من الإبل[1] .

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٥ وما يليها .

ويشاء سوء الطالع أحياناً ألا يلقى المرء فى طريقه مقاتلا ولا صبياً ، فيضطر إلى أن يستجير بأى اسم ، كما حدث عندما أوشك « بنو حارث » أن يقتلوا « خالدا » ، فاستجار بواحد منهم يدعى « قس بن الصمة » . ولكن قساً كان غائبا ، ولم يفد خالد من الإهابة به شيئا ، فلما عاد قس بعد إعدام خالد ، غضب أشد الغضب ، وعاب على أهله ما ألحقوه به من هوان ، إذ بلغت الجرأة بهم أن يرفعوا يدهم على من احتمى باسمه[1] .

ويروى مؤرخو العرب أن امرأة من « عمورية » هوجمت ، فصرخت : « وامحمداه ! وامعتصماه ! » وأنبئ بذلك الخليفة المعتصم ، فامتطى على التو جواده ، وتبعته كتائبه ، وحاصر « عمورية » . ولم تلبث المدينة حتى سلمت ، فدخلها المعتصم وهو يصيح : « هأنذا قد أجرتك يا امرأة[2] » .

ولدينا من شعر أبى تمام ، شاعر المعتصم ، قصيدة جميلة تشيد بهذه الواقعة الفرسانية الرائعة .

وكانت توجد كذلك عدة وسائل أخرى للاستغاثة ، منها أن يعلق المرء ثيابه على خيمة رجل ، فيصبح صاحب الخيمة — ولو كان غائبا — حامى هذا المستجير منذ تلك اللحظة[3] ، أو أن يمسك المرء بملابس

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) هكذا استجار « عبيد بن جرى » بمعز . الأغانى ج ٢ ص ٣٤٨ .

رجل من خلفه قائلا له : « هذا رباط من استجار بك[١] » ، أو أن يذهب إلى ربع حرام .

ولم تكن هناك ملاجئ بمعنى الكلمة كما كانت الكنائس فى العصر الوسيط بإجماع أهل أوربا ، وإنما كثيرا ما كان يعلن سيد ذو بأس أن هذا الموضع أو ذاك موضع حرام وأنه فى حمايته . وهكذا أعلن مسعود أن خيمة زوجته ملجأ لكل من لاذ بها من المقاتلين الأعداء[٢] .

ولقد أقر القوم ، دون أن يكون بينهم على ذلك شرط صريح ، حرمة القبور . فمن لاذ بقبر فقيد عزيز المديك ، ضمن أنه قد أفلت من ثأرك .

لقد احتمى الشاعر « حماد » بضريح أبى عدوه ، فلم تخب ثقته .. ورأينا كيف التجأ الشاعر « الكميت » عندما طارده الخليفة « هشام » إلى قبر « معاوية بن هشام » فعفا عنه .

ولما استولى « صلاح الدين » على دمشق ، أهين أحد أهلها ، وعبثاً عرض شكواه على القاضى ، فمزق ثيابه على قارعة الطريق وصرخ : « نور الدين أين أنت يا نور الدين ؟ » ، ومضى — وقد تجمهر وراءه الشعب — يبكي على قبر ذلك الأمير . وأنبئ بذلك « صلاح الدين » فأمر بإنصافه[٣] .

(١) كاترمير : المرجع السابق ذكره ، ص ٢٠٣ .

(٢) راجع فصل « تعظيم المرأة » .

(٣) كلود ماران . المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٤٠ .

وحسبنا هذه الأمثلة. ولننظر الآن فى كيفية انتهاء النجدة. من البديهى أن الرجل إذا تخلى عمن استجار به لحق به العار ، واتخذ اسمه الشعراء — فى أبياتهم الخالدة التى تتناقلها الأجيال — رمزًا للمذلة والهوان . لذلك لم يكن مما يخالف روح العرب ، بل كان من الشكليات التى اصطلحوا عليها ، أن يحل المجير والمستجير فى نهاية الأمر ما كان يربطهما من روابط . وغنى عن الإيضاح أن الحماية كانت تخبو من تلقاء ذاتها بتحقق الغرض الذى قامت من أجله ، أو بموت أحد الطرفين المتعاقدين . غير أن المحمى قد يعرض له قبل تمام الغاية من الأسباب ما يدعوه إلى أن يتحرر من وصاية حاميه ورعايته . وفى تلك الحال كان عليه أن يقنع حاميه ، بأن يعدل عن حمايته . فإذا اتفقا على ذلك ، أعلن الطرفان على الملأ انقضاء الميثاق الذى كان يجعل منهما أعضاء أسرة واحدة ، كما حدث بين عثمان والوليد :

كان عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة ، فتفكر فى نفسه يومًا فقال : والله ما ينبغى لمسلم أن يكون آمنا فى جوار كافر ورسول الله صلى الله عليه وسلم خائف . فجاء إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— أحب أن تبرأ من جوارى .

— لعله رابك ريب .

— لا ، ولكن أحب أن تفعل .

— فاذهب بنا حتى أبرأ منك حيث أخذتك .

فخرج معه إلى المسجد الحرام . فلما وقف على جماعة قريش ، قال لهم :

ـ هذا ابن مظعون قد كنت أجرته ، ثم سألنى أن أبرأ منه ، أكذاك يا عثمان ؟

قال : نعم .

ـ اشهدوا أنى منه برئ .

وجلس عثمان مع القوم (من قريش) ، فأنشدهم لبيد :

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت . فقال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل . فقال عثمان : كذبت . فلم يدر القوم ما عنى ، فأشار بعضهم إلى لبيد أن يعيد ، فأعاد ، فصدقه فى النصف الأول وكذبه فى الآخر لأن نعيم الجنة لا يزول . فقال لبيد :

ـ يا معشر قريش ، ما كان مثل هذا يكون فى مجالسكم .

فقام أبى بن خلف ، فلطم وجه عثمان . فقال له قائل :

ـ لقد كنت فى منعة من هذا بالأمس .

فقال له :

ـ ما أحوج عينى هذه الصحيحة إلى أن يصيبها ما أصاب الأخرى من الله[1] !

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ٩٦ .

ونستخلص من هذه الدراسة أن الحماية كانت فعلا رسميا ، يعلن المستجير طلبه إياها ، ويعلن المجير منحه إياها : ويعلن كلاهما عدولهما عنها . إنها تتضمن استغاثة رجل فى ضائقة برجل ذى بأس ليعينه على بلوغ غاية معينة . وتستتبع هذه الاستغاثة تدخلا نشيطًا دائبًا من ناحية المجير فى سبيل الثأر للمستجير أو الدفاع عن مطلبه . على أن العرب ، إلى جانب هذه الحماية الفعالة ، والتى تختلف هدفًا ومدى ونشأة ، كانوا يعرفون لونًا آخر من الحماية ، ثابتًا سلبيا عاما ، حماية يسديها الجميع بلا تمييز ، من نساء أو رجال ، ومن محاربين أو صناع . تلك هى الحماية التى تصدر عن الضيافة . وهنا ينبغى أن نفهم الضيافة بأوسع معانيها ، فلقد كان حسب المرء أن يجتاز باب دار أو أن يحظى فى أضيق الحدود ، ولو عن مكر ، بكرم أو سعى رجل — وليكن كوبا من الماء ، أو « العيش والملح » ، أو قطعة من حبل تستعار لكى يبلغ الدلو ماء البئر — حتى تنشأ رابطة من روابط الضيافة تبسط على الضيف الحماية . ولم يكن المضيف ملزمًا بأن يعتنق منازعات ضيفه ، ولا بأن يثأر له ، وإنما كان يدين له بأن يحفظه سالمًا وبأن يقيه أذى الشمس والمطر كما ، يدرأ عنه ضربات أعدائه . إن الضيف فى بلاد العرب مقدس ، يعتبره القوم موفدا من قبل السماء التى ترزقهم ، وعليه مناعة — إذا صح القول — إلهية . وكانت الخيمة ملجأ حراما ، وأدنى لقمة يتناولها تحتها ألد الأعداء تحول البغض رعاية . . . وها هى ذى فى الختام بعض الطرائف :

ذات مساء رحبت فاطمة بنت الخرشب بطارق أقبل يسألها الضيافة . ولعل الطارق أثر فى رأسه التعب من ناحية ورائحة المسك التى تفوح بها مضيفته الحسناء من ناحية أخرى ، فدنا منها واجترأ على أن يغازلها ، ولكن السيدة الوقور دعته إلى الاحتشام . غير أن صوت الهوى لم يزل يزمجر فى قلب الفتى ، حتى غلبته شهوته ، وأمسك بفاطمة يريد أن يعتدى عليها . فدفعته فاطمة عنها ونادت : « إلىّ يا ربيع . إلى يا ولدى . » وهرع ربيع » فقالت له : « يا ولدى هذا الرجل أراد أن يفضحنى » . وأخرج ربيع سيفه ، وشهره ثم تركه يسقط ، وصاح : « كلا . لن يقال إننى فضحت أمى ، وفضحت نفسى بسفك دم ضيفنا » . وخلى سبيل الرجل .

ألا تذكركم هذه القصة بمسلك « روى جوميز دى سيلفا » إذ كشف وجود « هرنانى » لدى « دونيا سول » وحمى ضيفه من غضب الملك « كارلوس » ؟ . . . مع هذا الفارق ، وهو أن الشيخ « جوميز » لم يفته أن ينفخ فى البوق ساعة راح « هرنانى » يقتطف السعادة . . .

وبعد أن عاد « معن بن زائدة » من إحدى المعارك ، استعرض الأسرى الذين كان مقدراً لهم أن يعدموا . واستوقفه واحد منهم وسأل أن يشرب ، فجىء بالماء ، ولما فرغ من الشرب جميع الذين كان الموت ينتظرهم ، قال الأسير الذى خطر له أن يستقى : « والآن يا معن بن زائدة ، هل ترفع على يدك ضيوفك ؟ » فأمر معن بن زائدة بإطلاق سراح

أسراه . وقالوا له : « إنك أشرف بعفوك منك بنصرك » .

وبعد أن فتح عمرو بن العاص مصر ، أراد السير إلى الإسكندرية . فأمر بنزع فسطاطه ، فإذا فيه يمام قد فرخ ، فأخبروا عمرًا بذلك ، فقال : « لقد تحرم بنا متحرم » . فأمر بالفسطاط فأقر كما كان ، وأوصى به من بقى هناك من القبط[1] . وتذكارًا لهذه الحادثة ، سميت المدينة التى قامت فى السهل شمالى منفيس ، والتى أصبحت العاصمة (من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٩٦٩ عندما أسست القاهرة) باسم « الفسطاط » أى الخيمة .

وهذه أخيرًا ، عن الأتليدى ، لمحة لا يمكن أن يلم بها القارئ دون أن يختلج بالتأثر . إنها أشبه بأجمل المواقف فى مسرح « كورنى » . وإنها لتشرف الإنسان وترفع من قدره :

عند سقوط الدولة الأموية ، مضى العباسيون يتعقبون بنى أمية ويذبحونهم فى غضب مستعر . وهرب إبراهيم ، أحد أمراء الأسرة المخلوعة ، وهام فى شوارع الكوفة لا يدرى أين يلتجئ ، وأبصر دارًا ذات فناء جد فسيح ، فدخل ، ووجد نفسه أمام فتى وسيم على صهوة جواد لم يكد يصل ، يصحبه موكب من الخدم والحشم . وإذ سأله هذا الفتى ماذا يريد ، أجاب : « إننى شقى أخشى على حياتى ، وجئت ألوذ ببيتك . » فرق له الفتى ، واقتاده إلى غرفة يختبئ فيها ، ومكث معه برهة يشرف على

---

(١) راجع السيوطى : حسن المحاضرة . وزيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٢ ص ١٨٠ .

تزويده بكل ما قد يبتغي من غذاء وكساء . ولم يوجه إليه مضيفه أى سؤال . ولاحظ إبراهيم مندهشًا أن الفتى يمتطى كل يوم جواده ويخرج مدججا بالسلاح وعن له أن يسأله عن الذى يحمله إلى القيام بهذه الجولات المنتظمة ، فأجابه الفتى : « لقد ذبح إبراهيم بن سليمان أبى وهو رابط الجأش ، وعلمت أن القاتل الآن مضطر إلى التخفى ، وإنى أبحث عنه كل يوم آملا أن ألقاه وأشفى من دمه غلتى . » وشده إبراهيم من هذا القدر الذى قاده إلى بيت ألد أعدائه ، وسأل الفتى ما اسمه ، وما اسم أبيه ، وبعد أن تأكد من أنه هو المذنب ، قال لمضيفه : « إنى مدين لك بأفضال عظيمة ، والوفاء يحتم علىّ أن أدلك على عدوك وأن أوجز بحثك عنه . » واستفهم الفتى عما يعنيه ، فأضاف إبراهيم : « إننى أنا ابن سليمان قاتل أبيك ، فعاقبنى على جرمى . » فرد عليه الفتى : « لعلك تعس أبهظك الدهر وتود أن تطلقك من ربقته ميتة سريعة . » ولما ذكر إبراهيم من التفاصيل ما قضى على تشكك مضيفه ، حال وجه الفتى ، وملأت عينيه الدموع ، وظل برهة حانى الرأس ، ثم قال لإبراهيم : « سوف تلحق يومًا بأبى أمام قاض يحكم بالعدل ، وأما أنا فلن أحنث بالوعد الذى قطعته لك ، ولكنى أخشى ألا أتمالك نفسى دائما ، فامض ولذ بمكان لا يثير فيه وجودك ذكريات تحز فى القلب . » وقدم له فى الوقت ذاته مبلغ ألف دينار من الذهب . ورفض إبراهيم الهبة ، وانصرف صامتا[1] .

---

(١) كاترمير : المرجع السابق ذكره . انظر قطعة من الاتليدى فى « مجانى الأدب » جـ ٣ ص ٢٠٩ . وانظر فى فلوريان لمحة مشابهة ص ١١٣ .

الخلاصة

تلك كانت أخلاق الفروسية عند العرب . لم نحرص على إعادة رسم صورتها رغبة منا فى الاستمتاع بتأملها وإثارة إعجاب الناظر بأطلال عالم قد اندثر . بل سعيا إلى استخلاص بعض الدروس العملية النافعة من الوقائع التى لاحظناها. إن التاريخ ، إذ يقدم لنا صورة من الأحداث الماضية جلية واضحة ، ينبغى أن يعيننا فى تفهم مشاكل العصر الحاضر فهماً صحيحاً نزيها . وليست مصائر الشعوب أحكاما صدرت من قبل ، ولا هى ارتجالا وليد اليوم العابر ، وإنما يشاد صرح المستقبل بمواد الماضى ، وقد شكلتها أيد أكسبتها الخبرة وروح التنافس مهارة وحذقا . لقد تحول كثير من معابد مصر القديمة إلى كنائس صغيرة أو كبيرة ، وتحولت بعض الكنائس إلى مساجد . وهكذا تتغير العناوين ، وتتحدد العقائد، وتتخذ الحضارة معنى يختلف باختلاف البيئات والقرون ولكن تظل أعماق الطبيعة الإنسانية باقية كما هى : نزوعاً لا ينقطع إلى تحسين وجودها ، وتوقاً متصل الدأب إلى كمال غير محدود . إن جميع البشر يسيرون نحو غاية واحدة ، ولكن كلا منهم يسعى فى طريقه وبوسائله الخاصة . ولن يستطيع شعب أن يتطور وأن يتم نموه إلا إذ تبع عبقريته

الأصيلة ولن يفوق أثر التربية والعلم والتلاقح أو التطعيم الثقافى فى مزاج جنس من الأجناس ، أثر الأصباغ فى ملامح وجه من الوجوه .

إن الماضى فى نفوسنا لا يموت أبدا[١] . والعربى وإن ارتدى أسمالا ينبض فى صدره قلب نبيل كريم . من المهم إذن أن يدرس كل شعب تاريخه وأن يتعرف نفسه . ومن المهم كذلك أن تتعارف الشعوب . فإن بعضها يعتمد على بعض ، وينبغى أن تتعاون جميعا فى خلق الاتساق العام . وعند إنشاد اللحن الدولى الجامع ، يصدح كل شعب بنغمته الخاصة . إن موسيقى الغابات تتألف من أصوات جميع الكائنات التى تسكنها .

وإن مبدأ « اعرف نفسك بنفسك » مبدأ جوهرى بالنسبة للأمم كما هو بالنسبة للأفراد . فليس من حق الشعوب أن تنكر قدر نفسها ولا أن تبالغ فيه ، وإنما عليها — بعد أن تحصى مواردها — أن تعمل لا لتحفظ تراث السلف فحسب بل لتنقله إلى الخلف مزيدا قد زخر بما أضافت إليه . ولا ينبغى أن يتعمق العرب فى تاريخ بلادهم لكى يستسلموا للطرب الذى تغمرهم به أمجادهم الغابرة ، بل ليبحثوا فيه عن فضائلهم العريقة ويجدوا المسلك الذى يؤدى بهم إلى النور ، والسبيل الذى اختطه مصيرهم .

وليست عواطف الفروسية التى استعرضناها مزية ينفرد بها عصر أو جنس أو بلد . فمن المآثر العديدة التى تشهد بالوفاء والسخاء والحلم ،

---

(١) « اننا نكمل ، ونلطف ، ونتستر على ما وضعته الطبيعة فينا ، ولكننا لا نضع فيها شيئاً » (فولتير : القاموس الفلسفى ، كلمة « خليقة »)

ومن أمثلة التسامح والشهامة والمروءة التى يتحلى بها هذا الكتاب ، ما اقتطفناه على ضفاف الفرات وضفاف الأردن وضفاف النيل وضفاف الوادى الكبير ، ومنها ما سبق ظهور الإسلام ومنها ما أتى بعده . وهل يعنى ذلك سوى أن تلك فضائل عامة تنتمى إلى جميع البلاد وجميع الأجناس ذات الثقافة العربية واللغة العربية والذكريات والتقاليد العربية ، لا فارق بين جنس وجنس أو بين دين ودين ؟ إن الأرض وحدها لا تصنع الإنسان . والوطن يتألف من التربة التى تنبت الأبدان ، ومن الآداب والفنون التى تنشئ النفوس . وفى المصريين — مسيحيين أو مسلمين — وفى السوريين وأهل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب نفس الروح العربية التى نجدها لدى أهل العراق أيضا . وعلى الجميع واجب مزدوج هو السعى الحثيث لإنهاض البلاد التى ولدوا فيها ، وإحياء الفنون والآداب والفضائل العربية التى أصبحوا وحدهم ورثتها الشرعيين .

وإن كان ثمة نقص وتخلف فى العالم العربى ، فمرده علة أولى تراكمت عليها علل أخرى عديدة ، معقدة ، تتميز فى كل من البلاد العربية على نحو خاص . ولنقتصر هنا على اجتلاء العلة الأساسية لتخلف الشعوب العربية ، ومصدر الداء الذى أصابها : إنه نظام الحكم التركى .

أينما حل الأتراك أنجبوا الدمار . وليس تاريخهم ، من أول صفحاته إلى آخرها ، إلا أعمال التخريب . كانت الحرب صناعتهم الوحيدة . وكانوا يقدمون عليها لمجرد إشباع شهواتهم الوحشية ، بسفك الدماء الغزيرة ،

ومل‌ء مخازنهم بالغلال ، وتجديد نساء حريمهم ، والاستزادة من غطرسة الغزاة . كان إغراء الغنيمة — لا الإيمان برسالة — هو الذى يدفعهم إلى القتال . وكانوا يفتتحون إقليما أو بلدا ، حتى إذا نهبوه وعاثوا فيه فسادا ، واعتصروا خيره اعتصار الليمون ، وأخرجوا منه آخر حبة وآخر قطرة ، مضوا إلى إقليم آخر أو بلد آخر يواصلون فيه تدميرهم . . . ثم كان صدهم أمام أبواب « فيينا » ، وكان تقهقرهم الذى بدأ منذ قرنين وتلاه اندحارهم فى الحرب العظمى . . .

لقد تسرب الأتراك من عهد بعيد إلى الدولة العربية . جلبت الحروب والغارات فيما وراء « الأكسوس » و « سيرداريا » حول بحر قزوين عدداً كبيرا منهم إلى أسواق الرقيق . وكان العرب يشترونهم ليتخذوا منهم خدما ، وليضيفوا إلى قصورهم زينة ورفاهية . وفى أيام الخليفة « المنصور »[1] أدخلوا سلك الجيش ، وكونوا فيما بعد حرس الخليفة الخاص .

وكان العباسيون غير آمنين فى بغداد . كانوا يخشون أن يروا عرشهم يهوى من تحتهم ويستقر فى أيدى سلالة « على » التى أخذ أنصارها يتكاثرون من يوم إلى يوم . وهكذا اتجهوا إلى إحاطة أنفسهم بأجانب لا تعنيهم المنازعات بين أسرة وأسرة ، ويستطيعون أن يعتمدوا على ولائهم ولا سيما وهم يجزلون لهم المرتبات . لقد اعتمدوا أول الأمر على فرس خراسان ، غير أن هؤلاء كانوا ذوى طبع مرن فسرعان ما تمثلتهم الأمة

---

(١) « المعتصم » لا « المنصور » . (تحقيق) .

العربية وأصبحوا عرباً يعتنقون مذاهب القوم السياسية ويتحزبون، ولم يكن بد من إقصائهم. ولما كان الأتراك قد أظهروا شجاعة ونظاماً فى المعارك، وكانوا من ناحية أخرى يستعصون تماماً على المؤثرات العربية، فقد بدا أنهم خير من يحل محل الفرس. ولم يتردد الخلفاء فى أن يعهدوا إليهم بحراسة أشخاصهم وعرشهم. ولم يلبثوا أن ندموا على ذلك ندما مضاعفا. فلقد راحت مطامع المماليك ومطالبهم تشتد حيال سلطة كانوا يعلمون أنها رهن تصرفهم. وعند وفاة المعتصم (سنة ٨٤٢)، كان الأتراك قد أصبحوا سادة الدولة الحقيقيين. كانوا أصحاب القصر ينصرون أسخى من يرزقهم، ويعينون أو يعزلون من الخلفاء ما شاءوا. وكان رئيسهم الذى يلقب بأمير الأمراء ثم بمعز الدولة[1] وبالسلطان، يركز فى شخصه جميع السلطات الحربية والمدنية. ولم يعد للخلفاء، وقد انزووا فى القصر كالسجناء، إلا السلطة الدينية. وبعد سقوط بغداد (سنة ١٢٥٨) التجأوا إلى مصر، حيث عاشوا حياة مغمورة حتى سنة ١٥١٦. وفى سنة ١٥١٧ انتزع سلطان القسطنطينية سليم الأول تلك السلطة الدينية من يد آخر العباسيين، ونودى به خليفة للنبى، وأميراً للمؤمنين.

ذلك موجز تاريخ العلاقات بين الأتراك والخلافة، اقتصرنا فيه على الخطوط الرئيسية.

---

(١) «معز الدولة» ديلمى وليس تركياً.

إن المماليك الذين أهابت بهم ثقة ولى الأمر لتدعيم عرشه قد أسرعوا إلى تقويض ذلك العرش . لقد استقرّوا فى الدولة ، وسرعان ما استهانوا بها ، وأخلوا بنظامها ، وأدوا بها إلى الانحلال ، لكى تؤول لهم فى آخر الأمر ويتملكوها . وما إن سادوا على البلاد العربية ، حتى مضوا ينجزون فيها عملهم ، ألا وهو التدمير . لقد بذلوا أعنف الجهد وأطوله وأقساه فى هدم كل ما هو عربى والقضاء عليه قضاء شاملا . كانوا يبغضون عبقرية سادتهم الأنيقة الرقيقة ، فدأبوا على محو آثار حضارة استهجنوها إذ رأوا فيها هوانا لهم وزراية بهم . أعلنوا الحرب على الأدب والفن والعواطف بل وعلى الدين أيضا . وحولوا إلى صحراء جرداء أرضًا اشتهرت فى القدم بأنها أخصب بقاع الدنيا . ونفوا لغة من أجمل اللغات كانت مركبًا رشيقًا لأنبل الأفكار ، وامتد معولهم الآثم إلى المبانى البديعة التى صاغ الشعر أحجارها ، بل وإلى المنشآت الدينية ، وراق لهم فوق كل شىء أن يخضعوا بوقاحتهم شمم العرب . وطاردوا الكرم والحياء والنزاهة والشهامة واحترام المرأة وشرف العهد ، ولم يستريحوا إلا يوم لمسوا أن الشعوب التى استذلوها قد وضعت على وجوهها قناعًا يشبه وجوههم القبيحة .

إنهم الأتراك ، والأتراك وحدهم ، هم الذين أسفوا وانحطوا بالنفس العربية — أجل ، الأتراك لا الإسلام .

لقد راح معظم الكتاب الأوربيين ممن احترفوا الكتابة فى الشئون الإسلامية ، أو ممن عرضوا لها — سواء فى ذلك المؤرخون والفلاسفة والساسة

والمستعمرون والرحالة والصحافيون – يبينون أن الإسلام وحده هو المسئول عن فساد الحضارة العربية وتدهورها . ويمكن التماس العذر لهذا الإجمال الغريب في قصور هؤلاء الكتاب عن دراسة النصوص العربية دراسة عميقة ، وفي أن الكتب التي تنشر على التوالي ما أكثر ما تتشابه . . . كما يمكن تفسير هذه الظروف الظاهرة أيضًا بأن هناك من الأخطاء المقبولة المكررة ما يضيرك إذا حاولت تصحيحه أو اقتلاعه . . . وما الذي يعيبونه على الإسلام ؟

قالوا إن الإسلام – يهبط بمستوى المرأة ويتعمد إذلالها . غير أننا أثبتنا أن النبي كان يسعى دائما إلى تحرير المرأة وإلى صيانة مصالحها ، وإلى تحسين وضعها ماديا وخلقيا .

ولا أدل على ذلك من أنه للنهوض بالمرأة المسلمة يكفي الرجوع إلى تعاليم النبي الحقيقية وتطبيقها بحيث تتمشى وحاجات العصر . وأما تعدد الزوجات والطلاق – وهما في سبيلهما الطبيعي إلى الزوال – فيمكن إلغاؤها شرعا وقانونا ، كما أشرنا إلى ذلك في فصل « المرأة حسب القرآن » . وتطبيق النصوص القرآنية تطبيقًا دقيقًا يكفل عن سعة للمسلمة العصرية ممارسة حقوقها المدنية والوطنية التي تستطيع باعتدال أن تسعى إليها . وهل يجوز بعد ذلك أن يقال إن الإسلام يحض على ازدراء المرأة ويعترض طريق تحريرها ؟

وقالوا إن الإسلام غير متسامح ، بينما ينص القرآن على أنه « لا إكراه

فى الدين » . وإلى ما ذكرنا من الأمثلة المتعددة على روح التسامح لدى المسلمين ، سواء فى علاقتهم بأهل الأديان الأخرى أو بأهل دينهم من الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة ، سنضيف شهادة « رينان » فقط ، وهو رجل لا يمكن اتهامه بالعطف على الإسلام . إنه يقول : « لقد أقام حب العلم والأشياء الجميلة إبان القرن العاشر فى هذا الركن الممتاز من الدنيا (يعنى أسبانيا) تسامحا لا تكاد الأزمنة الحديثة تضرب لنا منه مثلا . فلقد كان المسيحيون واليهود والمسلمون يتكلمون نفس اللغة ، وينشدون نفس الأشعار ، ويشتركون فى نفس الدراسات الأدبية والعلمية . إنهم أسقطوا جميع الحواجز التى تفصل بين الناس ، وتلاقوا كلهم فى بناء الحضارة العامة . وأصبحت مساجد قرطبة — حيث انتظم آلاف من الطلبة — مراكز نشيطة للدراسات الفلسفية والعلمية » .

وضع مكان أسبانيا فى القرن العاشر الدولة العربية فى عهد العباسيين ، أو مصر فى عهد الفاطميين ، تحصل على نفس اللوحة ، صورة هذا التسامح والعمل العقلى التى تقدمها بغداد أو القاهرة ، أو سمرقند أو القيروان .

وقالوا أيضا إن الإسلام ينفى بذل الجهد إذ يعلم الناس أن كل شئ « مكتوب » ، غير أن إيمان الإسلام بالقدر لا ينصح بالجمود والهمود ، ولا يبطل الحركة والتطور ، بل إنه يدعو إلى نقيض ذلك ، وحسبنا برهانا

ما جاء فى القرآن : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولوكان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون[١] ».

أولا يعنى ذلك أن يقلع المرء عن السير بلا تبصر فى السبيل التى اختطها أسلافه ، وأن يسير بجرأة فى طريق الرشد والحق ؟

ولعل النصوص التالية أشد وضوحا .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[٢] »

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[٣] » .

وكيف يستطاع التوفيق بين قدرية عمياء وبين هذه المسئولية التى وضعها القرآن على كاهل الإنسان الذى يحاسب على أعماله خيراً كانت أم شرا ؟

وكيف يستطاع التوفيق بين القدرية وبين الأمر بأن يصلح الإنسان شأنه ويحسن حاله ويكمل نفسه دون أن ينتظر تدخل الله ؟

وقالوا أخيرا — وهو زعم خطير — إن الإسلام عدو للحضارة والتقدم . ولنا أن نرد على هذا الاتهام باستعراض عدة قرون من التاريخ . وهل ينكر منكر أن هناك « حضارة عربية » ؟ لقد ثار « رينان » بشدة — فى محاضرة شهيرة عن « الإسلام والعلم » ألقاها يوم ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ — على فكرة « الحضارة العربية » ، وقال فى تهكمه اللاذع إن ما اصطلح الناس

(١) سورة المائدة ، ١٠٤ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٨٦ .

(٣) سورة الرعد ، ١٣ .

على تسميته بالحضارة العربية ليس إلا الحضارة اليونانية أذاعها ونقحها — لا العرب أنفسهم — بل السوريون والكلدانيون والفرس والأسبان ممن أصبحوا عرباً بالفتح أو باللغة . هب أننا تركنا رأى « رينان » بلا مناقشة ، وهب أننا محونا بجرة قلم وجود حضارة عربية ، فحسبنا أن نستشهد هنا ببعض الأحاديث النبوية لنثبت أن الإسلام فى جوهره يشجع حب الاستطلاع العلمى ونشر المعرفة :

— طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب .

— فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد .

— من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة .

— خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد وإذا هو بحلقتين : إحداهما يقرءون القرآن ويدعون الله ، والأخرى يتعلمون ويعلمون . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كل على خير ، هؤلاء يقرءون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون ، وإنما بعثت معلما ، فجلس معهم .

— أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم .

— من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار[١] .

وفيم الإكثار من الاستشهادات وثمة حقيقة لا جدال فيها ، وهى أن

---

(١) جميع هذه الأحاديث واردة فى مسند ابن ماجة حـ ١ .

العلم قد ظل قرين الدين طالما كان الاهتمام بالدين قويا ، فما إن ظهرت الأسرات الأجنبية حتى كان لذلك أثر واضح فى ضعف شأن الدين فى أنفس الناس ، وإهمال جانب الدرس . ولقد تنبأ بذلك النبى حين قال :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا .(١) »

الرؤساء الجهال ! هلا تعرفتم الأتراك ؟

لقد بكر الأتراك بالمجىء إلى الإسلام ، تغريهم المنفعة أكثر مما تحدوهم الرحمة ، فكوروا العمائم ، وقاتلوا فى ظل الراية الخضراء ، ونحروا الخراف فى الأعياد ، وتباهوا بالصوم والزكاة – ولكن نفوسهم ظلت تتارية همجية ولم يفلح الإسلام فى تهذيبهم . وعندما تولى هؤلاء المتوحشون الأمر عمدوا إلى الشريعة يفسرونها على هواهم ، لتطابق أوضاعهم أو تقضى رغبات لهم عابرة .

إن هؤلاء الضالين فى الإسلام قد ضللوا المسلمين ، وأدوا بالدين إلى أن يعكس صورتهم ، وهم الذين راحوا ينافقون ويدعون أنهم حماة حمى الإيمان . وبفعلهم بدا هذا الدين لقصار البصر جملة من الصيغ العتيقة ، وشريعة استسلام خانع وتعمية ، فى حين أنها شريعة نور وحضارة وتقدم . فرق بين العربى والتركى ، وليس الإسلام هو هذا الهزل التركى . لقد

(١) صحيح البخارى : باب كيف يقبض العلم .

استخدم الأتراك الدين مجرد وسيلة لبلوغ غاياتهم . ولكى يوطدوا سلطانهم ، بأبخس الأثمان ، صدروا من ناحية فكرة القدر المحتوم ، فكرة الإذعان لهم لا الثورة عليهم ، ومن ناحية أخرى فكرة العجز عن إدراك العقائد غير الملموسة ، لمنع العرب من البحث العقلى ، وإغراقهم فى الجهل ، خشية أن يفسروا النصوص القرآنية ، وأن يناقشوا أسس السيادة ، وأن يكشفوا ما اغتصب الدخيل من حقوقهم . والجهل ضمان لبقاء الأمر الواقع . ولقد حيل بين العرب وبين الدرس أيضا لأن الدرس والتقدم كانا دائماً ألد أعداء الهمجية .

والحمد لله ، لقد تخلص العالم العربى من التتار . فليرجع العرب فى حرية إلى نبع دينهم النقى ، ولينهلوا منه احترام المرأة ، ووجوب التعليم ، والتطور ، والارتقاء . وليستأصل العرب عامة من قلوبهم — مسيحيين أو مسلمين — جراثيم الشر التى بذرتها الهمجية التركية ، وليعملوا على ازدهار اللغة العربية والحضارة العربية من جديد ، وليثوبوا إلى تقاليد آبائهم فيتصفوا بالرجولة ، ويعرفوا قدر أنفسهم ، ويشعروا بكرامة الإنسان وكرامة المواطن . وليعلموا أنهم ينتمون إلى بلد قبل أن ينتموا إلى دين . وليكونوا أهل صراحة ، وولاء ، وتسامح ، ومروءة — بكل معانى هذه الكلمة . وتوخياً للإيجاز نقول فليكونوا عرباً لا عبيداً للأتراك. وهذه الفضائل ، إنهم لم يفقدوها . إنها كامنة فى نفوسهم ، وما عليهم إلا بعثها

وإحياؤها وتنميتها ونشرها وتعميمها . وبشيء من الصبر ، والعناية الذكية ، والإرادة المثابرة ، والتوجيه الحكيم ، تؤتى الشجرة التى أهملت وردها الجميلة المعهودة .

* * *

إن جهل الشعوب بعضها ببعض لواقع يبلبل العقل ، فكأنها تسكن كواكب مختلفة ! على جميع الأمم إذن أن تطرح ظنونها القديمة ومصطلحاتها البالية ، وأن تفطن لحقائق العالم الراهن ، والأوضاع الجديدة التى انجابت عنها الحرب العظمى . فلن تكون بعد اليوم سيطرة وتبعية ، ولن يكون سيد ومسود ، ولن تكون بين البشر أجناس عليا وأجناس سفلى . لقد أعلنت حقوق الإنسان وحقوق الشعوب فى جميع أرجاء الدنيا ، وتجاوبت أصداؤها ، وأثبتها النصر وأقرها ، بحيث لا يجوز لامرئ أن يتجاهلها أو يتناساها أبدا .

لقد انقضى العصر الذى كان يستبيح فيه الأوربى أن يستغل أرضا غير أرضه ، يتجبر على أهلها ، ويسومهم العذاب ، ويتحدى مطالبهم الشرعية . إنما عليه أن يعين الشعب المتخلف معونة صديق مرشد ودود . وأحرى بالأوربيين أن يتعرفوا عواطفنا ومبادئنا وروح الفروسية الفعالة فى حياتنا ، فهى خير ما يرسم لهم مثل العهد والجوار .

إن الناظر فى الريف الواحد يرى حقول القمح والذرة والشعير متجاورة ،

وفى البستان الواحد ثمار التين والزيتون والأعناب تنضج معا ، وما أجمل أن يرى جنبًا إلى جنب فى رحاب الله ، تحت شمس واحدة، وفى سبيل غاية واحدة هى الحضارة والتقدم ، ثقافات متنوعة تنمو وتزدهر : الثقافة العربية ، واللاتينية ، والإنجليزية السكسونية ، والصقلبية . . . وذلك كله لمتاع العقل وخير الإنسانية .

القاهرة ١٩١٤ — باريس ١٩١٦

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠





